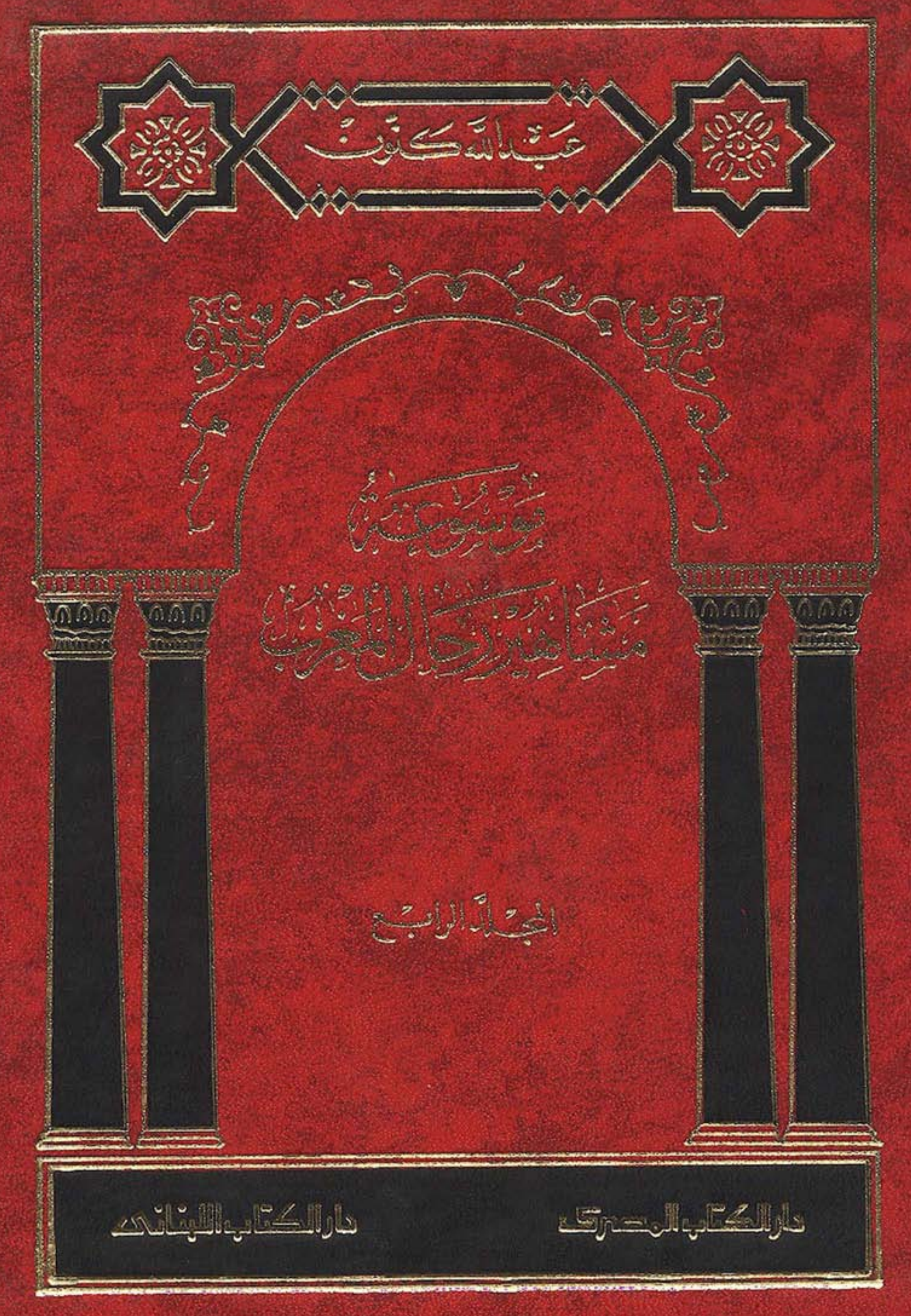
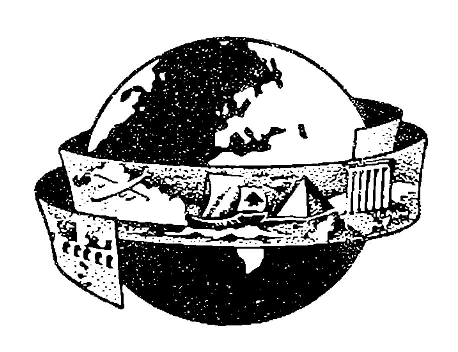


عبد الله كنون
موسوعة
مشاهير رجال المغرب
المجلد الرابع
دار الكتاب المصري
دار الكتاب اللبناني



دار الكتاب المصري

طباعة - نشر - توزيع

٣٣ شارع قصر النيل - القاهرة ج.م.ع

ت: ٣٩٢٢١٦٨/٣٩٣٤٣٠١ - فاكسميلي: (٢٠٢) ٣٩٢٤٦٥٧

ص.ب: ١٥٦ - الرمز البريدي: ١١٥١١ - برقيا: كتامصر

TELEX No: 23081 - 23381 - 22181 - 22481 - ATT: MR. HASSAN EL - ZEIN

FAX: (202) 3924657 CAIRO - EGYPT



المجلد الأول	المجلد الثاني	المجلد الثالث	المجلد الرابع	المجلد الخامس
عبد العزيز الفشتالي	عثمان السلاليجي	أبو القاسم الشريف	إبن الياسمين	أحمد بن شعيب الجرنائي
أبو القاسم الزياني	ابن غازي	ابن الحاج الفاسي	ابن البناء العددي	ابن هاني السبتي
الوزير ابن ادريس	ابن زكور	أحمد زروق	الإمام إدريس	محمد المسناوي
إكنسوس	ابو الطيب العلمي	الشريف الإدريسي	أبو عمران الفسي	محمد بن المدني كنون
أبو جعفر بن عطية	ابن الونان	ابن بطوطة	السلطان محمد بن عبدالله	عبد الملك المعتصم
ابو العباس الجراوي	ابن عبدون المكناسي	عبد المهيمن الحضرمي	الأصيلي	محمد الخامس
ميمون الخطابي	أبو بكر بن شبرين	أبو العباس العزفي	عبدالله بن ياسمين	محمد بن عبدالكريم الخطابي
مالك بن مرحل	إبن رشيد	عبد الواحد المراكشي	يوسف بن تشفين	سابق البربري
عبد العزيزالملزوزي	أبو موسى الجازولي	ابن أبي زرع	ابن حبوس الفاسي	النابغة الهوزالي
الأمير سليمان الموحد	ابن أجروم	أبو حفص بن عمر	ابن زنباع الطنجي	أبو الحسن المسفر

ذكريات

مشاهير رجال المغرب

بقلم

عبد الله كنون

مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني
للطباعة والنشر
بيروت

طبع على مطابع دار الكتاب اللبناني
رأس النبع - بيروت هاتف: ٢٥٨٧٠٠

ابن اليسمين

31

انظر الأخطاء المطبعية

في آخر هذه

الحلقة

رسالة تقدير

من صديق المؤلِّف أَديب تِطَّاوُن
الأُستاذ الشريف سيدي البشير أَفَيْلال

الحمد لله وحده ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله أجمعين

سيدي الأخ الأجل الشريف الفاضل العلامة الكاتب المغربي الأستاذ عبدالله كنون السلام عليك ورحمة الله .

وبعد فقد وافتني من لدنكم بمزيد الغبطة وكامل التطلع الأعداد الستة من تأليفكم ذكريات مشاهير رجال المغرب التي تفضلت بها اخوتكم هدية من مؤلف فاضل ، ويااما أعظمها في النفس ، وشكرت لأخينا فضله ونبله ، ودعوت له ان صح منّي الدعاء بخير دائم وتوفيق .

هذا وإذا كان عبد الرحمن بن خلدون المغربي ابتكر له طريقة في تاريخه العام ، وهو الامام المبرز فيه المشتهر به ، وهي تحكيم اصول العادة والعقل والاجتماع وقياس الشاهد بالغائب والحاضر بالذاهب ، وترجى مع ذلك من

ذوي المعارف المتسعة الفضاء النظر بعين الانتقاد لا بعين الارتضاء ، فإنا اسنا نذهب في شأنه مذهب الاعجاب أو نقرأ له آية من آيات العبقرية ، بل نحكم بها لذلك العصر الثامن الذي عاش في أحضانه ، عصر دولة بني مرين الهادئة المتمدنة ، الذي نضج فيه عقل المغربي وتفتحت فيه أكمام غرائزه ووجد طلاب المعرفة وذوو الاستعداد الفطري منهم أمامهم وخلفهم وعن ايمانهم وعن شمائلهم في المغرب وفي بقية الأندلس وأفريقيا ومصر والشام والعراق ما يذكي عقولهم ويضخم معارفهم بالمدارس الجامعة ونظم التعليم المحكمة والاساتذة العباقرة والمكاتب القيمة والخزائن العلمية والاحباس المرصدة والعلاوات السخية وفسح المجال في النهاية لذوي الكفاءة والاستعداد لتأدية رسالتهم لشعبهم ودولتهم كأحسن شيء يناله ذو شهادة عليا في دولة رشيدة .

أما الاستاذ سيدي عبدالله كنون الذي أنجبه المغرب العربي وليداً باراً حنونا في آخر اطوار حياته ، وأول بعثه للوجود والنهضة ، بعد مماته ، إذا دفعه نبوغه وبروره للحنين إلى أدب وطنه المغربي الغابر ، والكشف عن شخصياته البارزة فيه لهذا الجيل الحاضر ، فإنه طبعاً سوف لا يجد أمامه ما وجده أمام نقد التاريخ .

لا يجد ما يمده فيه ويسنده ، وينير له سبيل الهداية إليه ويرشده ، لا سيما والمغرب كما علم حتى في أوقات نضوجه لم يُعْنَ قادتُه وكتابه بتدوين حياة رجالاته العلمية والأدبية كما ينبغي وايرادها بصفة تحليلية مجلوة كالمرآة الصافية تظهر للأجيال بعدهم ما انطوت عليه حياة أولئك الماضين لتكون لهم عظة وخبرة

وإسوة حسنة وعبرة ، فإذا أظهر لنا هذا الكاتب النابغة في هذا العصر والحالة ما قلنا شخصيات المغرب البارزة التي كان لها مكانها الخاص في العلم والأدب ومركزها السامي في المجتمع والدولة في تأليفه،ذكريات مشاهير رجال المغرب، وعلمنا منها ما انتحاه في طريق ابرازه وما عاناه من تعب نفس واجهاد قُوى واعمال خاطر في استنتاج الحقائق التاريخية الدقيقة من تلك المواد الضئيلة التي كانت مرجعه في التأليف، علمنا حقاً انه هو هو الذي نقرأ له آيات الإعجاب ونذهب في شأنه مذهب الاكبار .

فليدم من فضيلته هذا النبوغ في خدمة هذا الوسط المغربي المفتون بمظاهر المدنية الجوفاء عن ماضيه المجيد ، وشرفه التليد ، حتى يعلم هذا الجيل الحاضر أنه من سلالة ذلك الماضي الغابر ، وان ليس بينهما من فرق إلا ما قال الشاعر :

الناس كالناس والأيام واحـدة والدهر كالدهر والدنيا لمن غلبا

وتقبل فائق احترامي وتقديري ثاني الربيعين عام 1369

أخوكم **البشير أفيلال**

ابن الياسمين

هويته، شخصية ادبية ممتازة، عالم رياضي كبير ، ارجوزته في علم الجبر ،كتابه تلقيح الافكار ، حساب الغبار واشكاله ، حل مشكلة الارقام العربية ، وفاته .

العالم الرياضي الأديب أبو محمد عبدالله بن محمد بن حجَّاج المعروف بابن الياسمين ، من أهل مدينة (فاس) ، بَرْبَرِيّ الأصل من بني حجاج أهل قلعة (فنْدلاوة) . كذا عرف به في (الذخيرة السّنية) وحلاَّه بالفقيه الحاسب . وبه تعلم أن وصف ابن سعيد المغربي له في كتاب (الغصون اليانعة) بالأشْبِيلي إنما هو جَرْي على عادتهم من اعتبار الشخص الذي أقام بقطر مّا ، من أهل ذلك القطر ، ولو جَريْنا نحن على هذا الاعتبار لتَبيَّنَّا أكثرَ نبغاء الأندلس في القرْنين الخامس والسادس وما بعدهما .

والياسمينُ اسمُ أمه نُسِبَ إليها وكانت سوداء ، وكان هو أيضاً أسود ومنه يُعلم أن هذا الاسم في الإماء قديم .

قال في الذخيرة : أخذ عن أبي عبد الله بن قاسم عِلْمَ الحساب

والعَدَد وشارك في غير ذلك ، وكان أحد خُدّام المنصور (الموحّدي) ثم ولَدِهِ الناصر . وله أرجوزة في الجبر قُرِئتْ عليه وسمعت منه بـ (إشبيلية) سنة سبع وثمانين وخمسمائة ، وقال في الغصون اليانعة : تخرج بإشبيلية في فنون العلم . وكان أول تعلقه بالفقه والتوثيق . حتى صار من أعلام العارفين بالوثيقة . ثم اشتغل بالنظم والنثر وفنون الآداب فصار من أعلام الأدباء والكتّاب .

ويظهر من النصّيْن أنه كان مشاركاً في الفقه والأدب زيادة على رسوخه في علم الحساب ، وأن بَراعته في هذا العلم كانت بالأخذ عن ابن قاسم الذي خلفه بعد في نَشْرِه بإشبيلية .

ويُفيضُ ابنُ سعيد في الناحية الأدبية من ترجمة صاحبنا على حين أن الناحية العلمية لا تحظى منه بأدنى اهتمام ونحن نتتبع ما عنده في ذلك ثم نُعقِبُه بالكلام على الناحية الأخرى إذْ كانت الشخصية الكاملة للمترجم لا تبرز إلا بتشْخيصهما مَعاً .

ولقد حكى مما يدل على أوليته النابهة بأنه جاء بإشبيلية إلى شيخ طبيب فشكى إليه بتلهب مَعِدته وأنه لا يُشبعه شيء ، فقال له : وقد لَمَح عليه بوارق السعادة لا بد لك من أن تشتكي بِسُوء هضْم مَعِدتك . نَعمْ وبِثَانية . نَعمْ وبِثالثة . فمضت الأيام وطلع[1] إلى (مَرّاكش) ، وبلغ المبلغ العظيم من مُجالَسة

(١) يقال طلع المكان بلغه والتعدية بالى تقوية وهوكذلك من المستعمل في العامية المغربية .

المنصور ومُسايَرته له إذا ركب في أسفاره ، لافتتانه بحديثه وما يجد عنده مما لا يجده عند غيره . فاتفق أن طلع ذلك الطبيب إلى مراكش واجتمع به . فقال له : يا حكيم صدقتَ فيما أنذرتني به من سوء الهضم فما تراه ؟ فدله على ما يصنع ، ثم مضت الأيام فشكا له بالنِّقْرس[١] ، وقال أظن هذه الثانية . قال : نعم ، ثم أقام مدة ووقع اجتماعه به ، فقال له يا حكيم : صدقتَ في اثنتين فأين الثالثة ؟ فقال : يا فقيه بلَغَتْنِي على ألسُن الناس ولو كانت علّة شكوتَ بها . فضحك أبو محمد وكان كثير الاحتمال والمُطايَبة . وأحسَن للطبيب . وكان قبل ذلك لم يُفِض عليه من دنياه بشيء ، قال ابن سعيد: وإنما أشار الطبيب إلى الخلّة التي اشتهرت عن ابن الياسمين والله أعلم بالسرائر.

وظهر أن هذا الطبيب كان إلى جانب معرفته بطب الأبدان طبيباً نَفْسانياً ولذلك تعرَّف على ما سيؤول إليه حال مُترجمنا من انحراف وشذوذ ، إن صحت هذه الحكاية . وهي على كل حال تدل على نشأته المدلَّلة وسماحة أخلاقه ، وتدل على أنه كان بإشبيلية في عنفوان شبابه .

ثم أشار ابن سعيد إلى وفاته ذبيحاً بداره بمراكش والكيفية البَشِعة التي وُجد عليها بمثل الحال التي وُجد فيها الفتح بن خاقان صاحب (قلائد العِقْيان) و (المطْمَح) . وتطرَّق لذكر بعض أشعاره المكشوفة في هذا الصدد وحكى الحكاية الآتية عن أبي عِمْران الطرْيَاني : « قال كنتُ في اليوم الذي أصبح

---

(١) النقرس مرض يسمى بداء الملوك وهو ألم يأخذ في الرجل والقدم على الخصوص .

فيه ابنُ الياسمين مذبوحاً عند الكاتب أبي الحسن بن عيَّاش ، فبينا أنا ألاعبُه بالشطرنج إذ دخلت إليه أمَة لــه وألقت لــديْه بَراءة عرَّفته أن امرأة دفعتها إليها ، ورغبَت منها أن توصلها إلى سيدها . فقال هذا وقتك ؟ ولم يلتفت إليها قال : فقلت له : ولعل فيها ما لا يجب تأخيره ، قال : ولعلّ. ثم أخذها وقرأها ، فإذا بوجْهِـه تغيَّر ثم ضحك ورَمَى بها إليَّ . وقال انْظر هذا الذي لا يجب تأخيره . فقرأتها فإذا فيها :

هذا ابنُ حجَّاجٍ تفاقَم أمرُه	وجرَى وجرَّ لِحدّ غايتِه الرسَنْ
حتى غدا مُلقى ذبيحـاً حاكيا	للناس رقْدتَه إذا هـَجـر الوسَنْ
فلْيَحذَر الكُتَّابُ ما قد غالَــه	وأخُصّ بينهمُ الفقيهَ أبا الحسنْ

فقلتُ ومَن ترى قائل هذه الأبيات لَعنه الله ؟ قال يا سبحان الله ! وهـل صاحبُها غيرُ الكورائي[1] (الجراوي) الذي طبعه الله على ألاَّ يُضيّع فرصة من فُرَص الأذيَّة ؟ قال أبو عِمْران ثم اشتهر بعد ذلك قول الكورائي (الجراوي) في تلك القضية مُعرِّضا بابن عياش :

فليحذر الكُتَّابُ ما قــد غاله	وأخصّ من بين الجميع فُلانا

فحصل التحقيق بأنه قائلُ ما تقدم .

---

(١) يعرفه ابن سعيد بالكورائي ويختلف نسبه كذلك عند غيره من المؤرخين ، وهو الجراوي. أنظر الحلقة الخامسة من سلسلة ذكريات مشاهير المغرب .

ومما وقع بينه وبين الشاعر أبي العباس الجرّاوي أن هذا هجاه بقوله :

إسْتُ الحُبارى ورأسُ النَّسْر بينهما   لَوْنُ الغُراب وأنفاسٌ من الجُعَلِ
خُذْها إليكَ بحكم الوَزْن أربعة   كالنعت والعطف والتوكيد والبدلِ

فاشتهر قولُه بين الناس حتى استفزَّ حِلْمَ ابن الياسمين فقال يُجيبه :

يا أعرقَ الناس في نسْل اليهود[1] ومَن   تأبَى شمائلُه التفصيل للجُمَلِ
خذْها بِحُكْم اجتماع الذم واحدة   تُغْني عن العطف والتوكيد والبدلِ

ثم قال ابن سعيد : وله مُوشَّحات يُغنَّى بها . وأمداح في المنصور والناصر. وأمثلُ ما وقع من ذلك قوله من قصيدة منصورية ذكر فيها قطع المنصور الاشتغال بكتب الفروع والاقتصار على ما ثبت من الأحاديث النبوية :

أسيدَنا قد وردتُم بِنا   مَواردَ كنَّا عليها نَحُومْ
نبذتُم مقالَة هذا وذا   فزال المِراءُ وقلَّ الخصومْ
وأثبتُّمُ قولَ من لفظُه   هو الحق والشرعُ منه يقومْ
فلا زِلتُمُ لكمال الهدى   وإحياءِ دارِس درْس العلومْ

وقوله من قصيدة ناصِرية :

عجبتُ لمن يراك وبعد هذا   يحاولُ أن يرىَ ملِكاً سواكا

---

(١) نسبه إلى اليهود لان القبيلة التي هو منها كانت على اليهودية قبل الإسلام .

وقد جمع الإلهُ لديك ما قد تفرَّق في البرية مِن حُلاكا
وما أحدٌ يؤمّ ذَراك يوما فيختار الترحّلَ عن ذَراكا
فسبحانَ الذي أعطاك مُلْكاً على مِقْدار ما أعلى عُلاكا

قال : وخرج ابن الياسمين إلى بعض بَحائِر مراكش فنظر إلى زهر نارَنْج فاستحث على وصفه من كان معه من أهل الشعر والأدب ، فقال كل واحد منهم على ما أعطاه فكره فلم يحفظ من ذلك إلا قول ابن الياسمين :

جاء الربيع وهذا أولى البشائر منه
كأنما هو ثغرٌ قد جاء يضحك عنه

وختم ابن سعيد ترجمة صاحبنا بهذه المحاورة الشعرية التي جرت بينه وبين أبي الحجَّاج ابن نمَوي أحد كبار علماء فاس ، وكان حضر إلى مراكش فَاسْتُحْسِنَتْ مُذاكرتُه بها وأُحسِن إليه وخُلِع عليه على حسب ما ذكره (أبو الوليد الشقُنْدي) في معجمه ومنه نقل ابن سعيد . قال : وحضر مع ابن الياسمين فاستقبَح صورته واستحسن كلامه فقال فيه :

أيها اللابسُ لونَ الـ ـليل ثوباً حين أظلمْ
والذي يُضمِر داءً منه يوماً ما تألمْ
أنت من أقبح خلق الله ما لم تتكلمْ
بشِذُور باهراتٍ ساحراتٍ لو تُجَسَّمْ
أصبحتْ في كل جيد حسن ٍ عقداً مُنظَّمْ

فلما بلغ ذلك ابن الياسمين قال :

أيهـا الفـاسي أتى ريـ حـُك قبلَ النجْو يفْغَم
في قريض حسَن الصّو رة بالهجْو مُجذّم
فقبلْناه وقـد جـا ء لنا بالمدح مُعلَّم
ثـم قلنـا بمـزاح منك يوماً ليس يُعدَم
إنمـا الشأن فقيـهٌ عالِمٌ ليس يعلَّم
لا تراه الدهرَ إلاّ بِغرَيم الكأس مُغْرَم
يرفُضُ النفلَ مع الفرْ ض ! أوانَ الزِّير والبَم(١)
وإذا صلّى ريـاء كان فيها مثلَ أبكَم
في ثيـاب كربيـع قد سرى فيها المحرَّم
ذا جوابي وهو ظُلْمٌ لكَ والبادِئ أظلَم

قال الشقُنْدي : هذان الشِّعْران بمنزلة الشعْرَيَيْن ، وكلاهما عينٌ في مقابلة عيْن ... وناهيك بها شهادة من الشقنْدي صاحب الرسالة المعروفة في الإزراء على أدباء المغرب وشعرائه .

* * *

(١) الزير وتر رقيق والبم بخلافه وتر غليظ .

وإلى هنا نكون ، قد انتهينا من ترجمة ابن الياسمين الأدبية .وقد عرفنا عنه أنه أديب مُمتِع حسَن الحديث فَكِه المَحْضَر مع سماحة نفس وطيب خلق ، وبذلك تأهّل لمجالسة المنصور والناصر والكون في معيّتهما . وأما حظه من الشعر فكان ، كما رأينا في هذه النماذج من نظمه ، ليس بالقليل فهو يُزاحم الشعراء والفقهاء بمنكبَيْه ولا يُقصّر في الغالب عن إجادة وإن كانت ميزته هي المحاضرة بعلمه وأدبه والحديث الطّلِيّ الذي يرغب فيه ولذلك حلاّه ابن سعيد بقوله الجليس المتفنّن الكاتب .

بقيت الناحية العلمية من ترجمته ، وهي التي قامت على شهرته بالبراعة في علم الحساب والجَبْر . وهو لذلك يُعدّ من ألمع علماء العرب شهرة في الرياضيات ، وقد تقدمت الإشارة إلى أرجوزته في علم الجبْر التي أخذت عنه بأشبيلية ، وهي تبدأ بمقدّمة ، في العدد الصحيح وأبواب في الجمع والطرح والضرب والقسمة وحلّ العدد إلى أصوله ، ثم مُقدّمة في الكسور وأبواب في الجبْر أي جبر الكسور والحطّ وهو عكس جبْر الكسور والصرف وطُرق استخدام المجهولات، وأخيراً ينتقل إلى علم الجبر والمقابلة وهو أهمّ أبواب الأرجوزة وأنفَسُها (١) وقد شرحها كثير من علماء الفن كالماردِيني والقَلصادي وابن الهائم وغيرهم ، ومنهم من اقتصر على شرح القسم الأخير منها وهو المتعلق بالجبر والمقابلة لعظم نفعه وكثرة فائدته ، وفي هذه الأرجوزة تُوجد خُلاصة كثير من القوانين والمُعادَلات الجبْرية التي تتضمنها كتب الجبر

---

(١) قدري طوقان في كتابه تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك ص ١١١ .

الحديثة ، وهي تدل على تضلع الناظم في الجبر وبُعْد غَوْره فيه كما تدل على أن ثروته الأدبية لا يستهان بها فلولا إحاطتُه بالجبر والشعر احاطة كلية لما استطاع أن يضعهما في قالب جذّاب[١] .

ومثال منها قوله في معنى الجبر والمقابلة :

وكل ما استثنيتَ في المسائل ... صَيّرْهُ إيجاباً مع المعادل

وبعد ما يُجبر فليقابل ... بطرْح ما نظيره يماثل

وقوله في أحكام الجبر :

على ثلاثة يدورُ الجبْرُ ... المالُ والأعداد ثم الجذْرُ

فالمال كُلّ عدد مربعِ ... وجذره واحد تلك الأضلعِ

والعددُ المطلّق ما لم يُنسبِ ... للمال أو للجذر فاحكم تصِبِ

فبعضُها يعدل بعضاً عددا ... مركباً مع غيره أو مُفرَدا

فتلك ستّ نصفُها مركبه ... ونصفها بسيطة مرتبه ...

والجذر والشيء بمعنى واحدِ ... كالقول في لفظ أب ووالد. الخ

* * *

---

(١) الكاتب نفسه في مجلة الرسالة العدد ٦٣ .

ولابن الياسمين أيضاً كتابُ تلقيح الأفكار في العمل برُسوم الغُبار ويوجد مخطوطاً في الخزانة العامة بالرباط ضِمْنَ كتب المكتبة الكتّانية . وهو كتاب له أهمية عِلميَّة وتاريخية كبيرة . أما العِلْمية : فتظهر من مُحتوياته وقد جعله على خمسة أبواب تتضمن أربعين فصلا .

فالباب الأول في العدد الصحيح وما يتعلق به ، وينقسم إلى خمسة فصول :

الفصل الأول : في ضرب الأعداد بعضِها في بعض .

الفصل الثاني : في قسمة الأعداد بعضِها على بعض .

الفصل الثالث : في تسمية الأعداد بعضِها من بعض .

الفصل الرابع : في جمع الأعداد بعضِها إلى بعض .

الفصل الخامس: في طرح الأعداد بعضِها من بعض .

والباب الثاني في الكسور وما يتعلق بها ، وينقسم إلى أحد عشر فصلا :

الفصل الأول : في ضرب الكسور المتصلة وأخذ بَسْطها .

الفصل الثاني : في ضرب الكسور المنفصلة .

الفصل الثالث : في ضرب الكسور المبعَّضة على اختلافها .

الفصل الرابع : في ضرب الكسور المستثنى منها على اختلافها .

الفصل الخامس: في جمع الكسور بعضِها إلى بعض .

الفصل السادس : في طرح الكسور بعضِها من بعض .

الفصل السابع : في صرف الكسور من اسم إلى اسم .

الفصل الثامن : في قسمة الكسور بعضِها على بعض .

الفصل التاسع : في معرفة تسمية الكسور بعضِها من بعض .

الفصل العاشر : في معرفة تركيب الكسور .

الفصل الحادي عشر : في جبر الكسور .

والباب الثالث في فوائد لا يُستغنى عنها فيما تقدم من المسائل ، وينقسم إلى أربعة فصول :

الفصل الأول : في معرفة الطروحات التي يستدل بها على الصواب من الخطإ.

الفصل الثاني : في معرفة ما للعدد من المقامات في القسمة وغيرها .

الفصل الثالث : في الأجزاء التي لا تنقسم .

الفصل الرابع : في حكم التكرار من الآلاف .

والباب الرابع في استخراج الأحوال المجهولة وينقسم إلى أحد عشر فصلا:

الفصل الأول : في جمع الأموال لِمُجرَّد الكسور .

الفصل الثاني : في جمع الأموال بزيادة الدراهم .

الفصل الثالث : في جمع الأموال باستثناء دراهم من كسورها .

والباب الخامس في أشياء يُحتاج إليها في الجبر والمقابلة وينقسم إلى تسعة فصول :

الفصل السابع : في ضرب كسور الأجذار .
الفصل الثامن : في أخذ المكعبات .
الفصل التاسع : في مسائل من المساحة مقرّبة إن شاء الله .

والدارس لفصول الكتاب لا بد أن يقف على دلائل كثيرة تُعرّفه بعبقرية صاحبنا في هذا الفن وتُظهره منه على ذِهْنية رياضية قلّما توفرت إلا للأفذاذ من العلماء . وعلى حسب ما يظهر فإن هذا الكتاب جمعه من مذكّراته التي كان يلقيها دروساً على الطلبة ، فإنه يقول في مقدمته : « كنت في مدة تعلمي الحساب أثبت مسألة من كل نوع من أنواعه مخافة اختلافه في حين إهماله ... فأكثر جماعة من الإخوان البحث عنها ورغبوا في انتساخ ما تحصل منها ، فدفعت إليهم ما كان عندي ، فلم يعد منها شيء إليّ ... وكان من جملة من رغب فيها أخوَا صدق ، وصديقا حق ، فقدر الله عز وجل إهمالها قبل أخذهما لها . فلم أزل أمطلُهما وأسوّف ، وأعِدُهما وأخلِف وكل ذلك لا ينقض عهدهما ، ولا يُحيل ودهما إلى أن فتح الله العليم في وجود بعض مسائل منها عند بعض إخواني ، فحمدت الله عز وجل على ذلك كثيراً ، وصرفت الهمة إلى جمعها وأضفتُ ما لا غِنى عن معرفته منها مثل جمع الأموال وطرحها وضربها وامتحانها ، واختلاف أعمالها لاختلاف معانيها وما يستحيل منها وبعض ما يتصرف فيها من وجوه الأعمال مثل الجبر والقياس ومثل المكعبات الخ » .

* * *

وأما أهميتُه التاريخية فإنها في إشارته إلى أصل الأرقام الحسابية المعروفة بالغُبار ووجه تسميتها بذلك وأنها ـ وهذا من الأهمية بمكان ـ لها شكلان ، شكل هو هذا المستعمل بالمغرب وشكل هو المعروف بالارقام الهندية وهذه هي عبارته في ذلك أثناء المقدمة : واعلم أن الرسوم التي وُضعت للعدد تِسعةُ أشكال يتركب عليها جميع العدد ، وهي التي تسمى أشكال الغُبار وهي هذه (وهنا رسم أرقام الحساب كما نَرسُمها في المغرب من واحد إلى تسعة) وقد تكون أيضاً هكذا (وهنا رسمها بالشكل المعروف بالهندي) ثم قال : ولكن الناس عندنا على الوضع الأول . واو اصطلحتَ مع نفسك على تبديلها أو عكسها لجاز . ووجه العمل على حاله لا يتبدل . وقد صنعها قوم من جواهر الأرض مثل الحديد والنحاس من كل شيء منها أعداد كثيرة ويضرِبُ بها ما شاء من غير نقش ولا محو . وأما أهل الهند فإنهم يتخذون لوحاً أسودَ يمدّون عليه الغبار وينقشون فيه ما شاءوا . لذلك يسمى حِسَابَ الغُبار . وعلى الحقيقة ليس إلا المداد والمحو .

إن لهذه النبذة من القيمة التاريخية ما لا يخفى فإنها كشفت أن للشكلين المستعملين في البلاد العربية من هذه الأرقام الحسابية أصلا واحداً وأنهما قديماً كانـــا مستعملين هنا وهناك . فإن صاحبنا يقول (ولو اصطلحت مع نفسك على تبديلها أو عكسها لجاز) وهذا واقع فإننا نجدهما في بعض المخطوطات مما يقرب من عصر المؤلف (القرن السادس) يتقارَضان كما أنها تُثْبتُ اشتراكهما معاً في التسمية بحروف الغُبار أو برسومه جرْياً على اصطلاح المؤلف . وقد كان

هذا بحسب الأصل ، وإن كان هذا الاسم فيما بعدُ كاد يختص بالأرقام المستعملة في المغرب في حين أن الأرقام المستعملة في الشرق اشتهرت بالأرقام الهندية والهنود هم الذين كانوا يتخذون طريقة الرقم على الغُبار في الأعمال الحسابية فأطلق على هذه الأرقام بملاحظة تلك الطريقة اسم الغُبار والغُبارى والغُبارية ، يبقى أن أرقامنا المغربية التي اشتهرت أيضاً بالأرقام العربية عند الغربيين إنما جاءها هذا الاسم من اقتباس الغربيين لها عن طريق المغرب العربي بواسطة (البابا سلفستري الثاني) أو غيره الذي تعلّمهما في الأندلس أو هنا في المغرب ولا زائد ، وإلا فالشكلان معاً غُباريّان بمعنى أنهما كانا يُستعملان في الأعمال الحسابية على الطريقة الهندية ، وكانا مستعملين أيضاً عند أجدادنا العرب في المشرق والمغرب .

والسبب الذي اخترناهما له هو بعينه السبب الذي كان الحامل للغربيين على اختيار هذا الشكل المسمى عندهما بالعربي ، وهو السهولة والوضوح واليُسر . وقد نوه صاحبنا ابن الياسمين في خطبة كتابه الذي نحن بصدده ، بهذه المزية التي لهما في هذه العبارة : (هذا العمل المعروف بالغُبار أقصر أنواع الحساب وأفيدها وأوضحها بجودة بيانه وبُلُوج بُرْهانه) .

هذا هو ابن الياسمين العالم الرياضي الفذّ والأديب المحاضر الممتع ، لا نزعم أننا كتبنا ترجمة له ، وإنما رسمنا الخطوط الأولى في ترجمته ، وهو حريّ بأن يخصّ ببحث واسع مستقل يحلل شخصيته الأدبية ، ويبرز مظاهر

نبوغه العلمي ، وفي انتظار هذا البحث نؤمل أن يكون في هذا التعريف الموجز ما يعطي فكرة ولو مجملة عن حياته وإنتاجه .

وقد كانت وفاته رحمه الله سنة ٦٠١ وقيل آخر سنة ٦٠٠ وعلى الأول اقتصر صاحب الذخيرة السنية وابن سعيد في الغصون اليانعة .

أَخطاء مطبعيـــة

وقعت بعض الأخطاء المطبعية في حلقات من هذه السلسلة لم يُمكن تداركها كما فعلنا في الحلقات الأولى لأنها طُبعت دفعة واحدة ، فرأينا أن نشير إليها وإلى تصحيحها جملة في هذه الحلقة ، مقتصرين على ما هو ضروري الاصلاح غير متتبعين ما هو ظاهر كبعض الحركات المغلوطة ونحوها فنرجو اصلاح هذه الأخطاء على هذا البيان :

الحلقة الرابعة

الصفحة	الخطأ	الصواب
25	ذَكَرَه	ذِكْره
44	اسمِعَه	أسمِعُه

الحلقة السادسة

الصفحة	الخطأ	الصواب
13	ابن خفّاجة	ابن خفَاجة
19	النزع	النزغ

الحلقة الثامنة

13 يحذف التعليق فإنه كان مبنياً على ضبط نيران في البيت بالفتحة على انه مفعول لحبت المخففة وآيات بعده مضمومة هي الفاعل فلما غُيّر الضبط بضم نيران سقَط هذا التعليق .

16 التعليق هو : يعني جيش المشركين إلى آخره ، وما قبله ليس منه وانما ادخل فيه غلطاً فيُحذف .

الحلقة التاسعة

الصفحة	الخطأ	الصواب
12	اقسم	أمر
19	في الهوى	من الهوى
20	ملكم	ملككم
	وعيا	رعيا
35	لسلطان المغرب	لسلطان المغارب

الحلقة العاشرة

25	الكتائب	الكاتب

الحلقة الحادية عشرة

الصفحة	الخطأ	الصواب
9	الما ولين	المؤولين
11	التوجه	التوجيه
14	ينعُون	ينعَوْن
21	لّق بالمغرب	لّق بالمشرق
28	الدراسة	للدراسة

الحلقة الثانية عشرة

الصفحة	الخطأ	الصواب
22	تنشأ به	تتشابه
	ســال	مال

الحلقة الثالثة عشرة

الصفحة	الخطأ	الصواب
20	وتمشس	وتمس

الحلقة الرابعة عشرة

الصفحة	الخطأ	الصواب
7	إذا كانت	إذْ كانت
16	النحو	النحر
23	نعني	يعني

الحلقة السادسة عشرة

الصفحة	الخطأ	الصواب
16	يحول	يجول
	نعمت نظرة	نعمت نضرة

الحلقة السابعة عشرة

الصفحة	الخطأ	الصواب
22	السراب	السرب

الحلقة الثامنة عشرة

الصفحة	الخطأ	الصواب
9	القاضي شرع	القاضي الذي شرع
14	ان مسودة	انها مسودة
36	جبال الرمل	حبال الرمل
38	فغرب	تغرب
	تلولا	فلولا
39	يزاد في التعليق ... أو يكون حن بالجيم لا بالحاء .	

الحلقة العشرون

الصفحة	الخطأ	الصواب
5	فكانك	فلا شك
9	محمد داود	محمد بن داود
12	غيرهم المباشرين	غير المباشرين
20	ودفت	ودنت
21	أحمد زينسي وحكان	أحمد زَيْني دَحْلان
	الكحدلي	الكحّاك

الحلقة الحادية والعشرون

الصفحة	الخطأ	الصواب
22	وقد	وقال
23	السطر الخامس يُجعل رابعاً فهو بيت من تمام القطعة قبله .	
25	ان اقل	وان اقل
	ابرازا	ابريزا

الحلقة الثانية والعشرون

الصفحة	الخطأ	الصواب
23	بين تعلم	بين ان تعلم

الحلقة الثالثة والعشرون

الصفحة	الخطأ	الصواب
23	ابن عكر	ابن عسكر
24	النضنج	النضح

الحلقة الرابعة والعشرون

الصفحة	الخطأ	الصواب
15	في الصدد	في هذا الصدد

25 سقط سطر كامل من هذه الصفحة ، ونصه .. وما يحتويه من المعلومات القيمة في موضوعه،وان كنا لا نستغني عن اقتباس بعض ما قاله علماء الاستشراق.

الحلقة الخامسة والعشرون

الصفحة	الخطأ	الصواب
6	بفتح	بفتح الباء
9	لا ينجح	لا يجنح

10 سقط سطر كامل من هذه الصفحة ونصه .. لم يقم بين المسلمين على كثرة الرحالين فيهم من جاب هذه البلاد العديدة التي جابها الخ .

الصفحة	الخطأ	الصواب
15	يفري فرية	يفري فريه
	ابن الغمار	ابن الغماز
18	ولم يأت	ولم يتأت

الصفحة	الخطأ	الصواب
23	على اتم وجه إلى مكة	تحذف من هنا عبارة إلى مكة.
27	سنة 727	سنة 729
28	727	732
37	ابن مرزوق عن	تحذف عن من هنا
38	إذا زجع رجع	إذا رجع
40	ممتاز	تمتاز

الحلقة الثلاثون

الصفحة	الخطأ	الصواب
8	التعليق هو : بتشديد الباء أي الطويل.	
11	الأمانة	الأمامة
12	في حلته	في صلته
20	لم نظفر بشيء	لم نظفر منها بشيء
26	على وشن	على وثن
29	يفضي	يغضي
32	صدورها	صدور مها
36	أدركه	أدرك



32

ابن البناء العددي

بقلم
عبد الله كنون

دار الكتاب المصري
القاهرة

دار الكتاب اللبناني
بيروت

الطبعة الثانية

١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م

1995 A . D - H1415

دار الكتاب المصري

٣٣ شارع قصر النيل - القاهرة - ج.م.ع
ت : ٣٩٢٢١٦٨ / ٣٩٣٤٣٠١ - ص.ب ١٥٦ - الرمز البريدي ١١٥١١
برقياً: كتامصر - فاكسميلي ٣٩٢٤٦٥٧ (٢٠٢)

TELEX No : 23081-23381-22181-21881
ATT: MR.HASSN EL-ZEIN
FAX : (202) : 3924657

دار الكتاب اللبناني

شارع مدام كوري - مقابل فندق بريستول
ت : ٨٦٠٧٩٢ - ٨٦١٥٦٣ - ص.ب : ٨٣٣٠ / ١١
برقياً «دكالبان»
TELEX : DKL 23715 LE
بيروت - لبنان FAX (9611) 351433

ابْنُ البَنّاءِ العَدَدِيّ

32

ابن البنّاء العددي

> اسمه ونسبه ، ولادته ونشأته، اخلاقه ، قدومه لفاس وتدريسه فيها ، صلته بالسلطان، اشتغاله بعلم التنجيم ، سبب انتشار مؤلفاته ، مزيد من التحرير في موضوع التنجيم ، براعته في العلوم الرياضية ، ثناء الناس عليه ، اعجاب الاوربيين بأعماله،مشاركته في الفلسفة والتصوف، رسالته مراسم الطريقة وشرحها ، مؤلفاته وتصنيفها، الكلام على كتاب التخليص وشرحه ، الكلام على كتاب الجبر والمقابلة، تلاميذه، شعره، وفاته ومدفنه ومحل ولادته.

هو أبو العباس أحمد بن محمد بن عثمان الأزْدِيّ المراكشي ، الشهير بابن البنّاء العَدَدِي . العالم الرياضي والفلكي الكبير الذي جاوزت شهرته حدود بلاده وأصبح مفخرة للعرب والمسلمين ، وكان له تأثير ملحوظ في النهضة العلمية بأوربا ، لمّا أخذ الأوربيون يقتبسون من الحضارة العربية ويترجمون كتب العرب إلى لغاتهم .

وُلد ببلَدِه مراكش في الحيّ المعروف بقاعة ابْنِ النّاهض منها ، في التاسع أو العاشر من ذي الحجة متمّ عام ٦٥٤ هـ — ١٢٥٦ م. وكان والده يحترف بالبُنْيان فلذلك عُرف بابن البنّاء ويوصف زيادة على ذلك بالعَدَدِي لتمييزه

من آخرين عرفوا بهذه الكُنْية أيضاً ، وللدّلالة على أخصّ ما تفوق فيه من العلم وهو علم العدد .

ودرس ابن البناء أولا ببلده مراكش فقرأ القرآن على أبي عبدالله محمد المراكشي المعروف بابن مُبَشّر ، وتلاه بحرف نافع من طريقَيْ وَرْش وقالون على المقرىء الصالح المعروف بالأحدب . قال وكان كثيراً ما يدعو لي بالخير . لأني كنت أخفف عنه بعض الأعمال التي كان يناولها بالمَكْتَب فانتفعت بدعائه.

وانتفع في العربية بقاضي الجماعة أبي عبدالله محمد بن علي بن يحيى الشريف المراكشي ، قرأ عليه بعض كتاب سيبويه ، ولازم حضور مجلسه مدة ؛ وذاكره في مسائل من كتاب الأركان لأقْلِيدس ، كان الحق فيها معه إذ لم تكن صناعة لأبي عبدالله المذكور كما يقول ابن هَيْدُور في شرحه لكتاب التلخيص للمترجَم . قال ورد عليه في مسائل من التناسب في كتابه الذي ألفه في صناعة الحساب .

وقرأ على أبي اسحاق ابراهيم بن عبد السلام الصّنهاجي المعروف بالعطّار جميع كتاب سيبويه وكرّاسة أبي موسى الجزولي قراءة تفهُّم وتفقُّه وحلّ لمشكلاتهما وبَحْث عن غوامضهما ، وأملى عليه حال قراءته عليه الكرّاسة شرحه المعروف عليها وكتب عليه بخطه وصححه له . ثم بعد ذلك زاد فيه أبو اسحاق المذكور مباحث وقوانين وأخرجه لمن رغب فيه من الطلبة الراحلين إليه .

وأخذ علم العروض عن أبي بكر القالُوشي الملقب بالفأر لَقِيه بمراكش فقرأ عليه كتابه الكبير المسمى بالختام المفضوض عن خلاصة العَرُوض وأرجوزته

العروضية المسماة بالنكات العلمية في مشكلات الغوامض الوزنية . كما أخذ عنه أرجوزته الفرَضية المسماة باثارة المسائل الغوامض من مُغْلقات مشكلات الفرائض ، ويُحكى عن المترجَم قولُه : كنت أفرِضُ له مسائل من علم الفرائض فينظمها حتى أكمل أرجوزته هذه . وقال فيما حكاه عنه ابن هيدُور وكنت أقرأ عروض أبي محمد بن علي الأنصاري المعروف بابن السقَّاط على أبي عبد الله بن عبد الملك للقراءة عليه وألحَّ علي في ذلك وكان معجباً به .

وفي خبَره هذا مع أبي بكر القالوشي وخبَره المتقدم مع أبي عبدالله بن يحيى الشريف ما يدل على أنه كان عند الأخذ عن هذين الشيخين ، بحالة من الفهم والتحصيل تجعله يأخذ ويُعطي ويستفيد ويُناقش ، ففي مُذكراته مع الشريف كان الحق معه ولا غَرْوَ فان الفنَّ فنّه ،وفي قراءته للعروض على القالوشي كان يستعدّ لذلك بقراءة عروض ابن السقاط على ابن عبد الملك المراكشي الذي كان معجباً به ، ويُلحّ عليه في قراءته . بل أنه كان يُزوِّدُه بالمادَّة التي كوَّن منها منظومته الفرَضيَّة وأخذَها بعد إكمالها عنه . ويذكر ابن القاضي في ترجمة القالوشي بالجذْوة أن صاحبنا ابن البناء أخذ عنه ما ذُكر بفاس ، وان كان في ترجمته لابن البناء يُوافِق غيرَه ممَّن ترجم له في أنه لقيه بمراكش وأخذ عنه بها ، ويُرجّح ذلك هذا الذي ذكرناه عنه من قراءاته على ابن عبد الملك بمراكش طبعاً ، استعداداً لقراءته على القالوشي .

وقد قرأ على ابن عبد الملك غيرَ العروض ، علمَ الحديث ، فروى عنه كتاب الموطإ للامام مالك برواية يحيى بن يحيى اللَّيْثي ، وتدرَّب بين يديه في عقود الوثائق ، وانتفع به كثيراً . وهذا يدل على أنه كان يشتغل بالشهادة والتوثيق أيامَ ولاية ابن عبد الملك للقضاء في مراكش .

وتفقه بأبي عمران موسى بن أبي علي الزّناتي المراكشي ، قرأ عليه شرحه لموطإ مالك ، وبأبي الوليد بن أبي بكر بن حجّاج ، قرأ عليه كتاب التهذيب للبراذِعي ، وفرائض أبي القاسم الحَوْفي ، كما أخذ عنه كتابَي المعيار في المنطق والمستصفى في الأصول لأبي حامد الغزّالي .

وقرأ كتاب الارشاد لأبي المعالي على أبي الحسن محمد بن عبد الرحمن المغيلي القاضي الكاتب قراءة تفقه حتى أكمله .

وأخذ علوم السنة عن قاضي الجماعة بفاس أبي الحجاج يوسف بن أحمد ابن حَكَم التّجيبي المكْناسي ، وأبي يوسف يعقوب بن عبد الرحمن الجزولي وأبي محمد الفشتالي وأبي عبدالله محمد بن عثمان بن سعيد شُهر بابن أبي سعيد كنية أبيه .

هكذا أجمل مترجموه فيما أخذ عن هؤلاء الأعلام من علوم السنة ولم يبينوا ذلك . على أن ابن القاضي وهو أحدهم قال في ترجمة أولهم أعني القاضي ابنَ حكَم من كتابه الجذوة ما يلي : « أخذ عنه بفاس أبو العباس بن البناء الأزْدي وغيرُه أخذ عنه الحساب والتعاليم وغير ذلك » وبه نعلم أن مشيخته في العلوم الرياضية والفلك لم تقتصر على الأفراد المختصين المذكورين بعده ؛ إذْ كان من أساتذته في العلوم النقلية من يشارك في العلوم العقلية كأبي يحيى الشريف الذي مرَّ بنا أنه كان يذاكره في اقليدس وكابْنِ حَكَم هذا الذي أخذ عنه الحساب و التّعليم زيادة على ما أخذ عنه من علم السنة المرادِ به غالباً الحديث الشريف .

والتعاليم اصطلاح كانوا يطلقونه على العلوم الكَوْنيّة من فلسفة وطبيعة

وطب وكيمياء وما إليها ، فدراستُه في هذا المجال كانت أوسع مما يُظن بناء على هذه الملاحظة . ولذلك جاءنا منه هذا العبقريّ الفَذّ الذي أكبرَ قدرَه الأجانب فضلا عن ذوي قُرْباه .

وقرأ ابن البناء الطب على الحكيم المعروف بالمَرّيخ(١) . وأخذ علم العدد على أبي عبدالله محمد بن علي المعروف بابن حَجلَة وهذا ليس هو أستاذه الوحيد في هذه المادة كما نعلم ،فينبغي أن نضيف إليه الشريف المراكشي وابن حكم. وأخيراً فإن شيخه في علم النجوم هو أبو عبدالله محمد بن مخلوف السجلماسي نزيل مراكش .

وفي تعداد مشائخه يجب أن لا نغفل ذكر الشيخ أبي زيد الهَزْميرِي الصّوفي الجليل الذي كان يعطف على صاحبنا عطفاً شديداً وأخذ بيده في سلوك طريق القوم حتى بلغ مبلغ العارفين .

وظاهر مما تقدم أن جانباً مهماً من دراسته كان بفاس على جِلّة من مشائخها المعدودين ولذلك قلنا فيما سبق أنه درس أولا ببلدة مراكش ، فلا شك أنه بعد ما صَلُب عودُه وقضى نَهْمته مما عند مَشْيَخة المراكشيين رحل إلى

(١) لم نقف على ترجمة لهذا الحكيم ولعله هو الذي هجاه الحسن بن نصر الدباغ صاحب كتاب ملح الزجالين بقوله زجلا :

ان رأيت من عاداك	يشتكي من تلطيخ
وتريد أن يقبر	احمله للمريخ
قد حلف ملك الموت	بجميع ايمانو
الا يبرح ساعة	من جوار دكانو

فاس التي كانت محلّ دراسته الثانية التي أكمل بها تحصيلَه ، واستوعب معارف علماء قُطره .

ولا نعرف له رحلة إلى غيرها من البلاد داخل المغرب ولا خارجه[1] .

على أن فاسا ان عرفته طالباً نجيباً ودارساً متفوقاً ، فإنها لم تلبث أن عرفته مدرساً بارعاً وشيخاً مفيداً فيما بعد ذلك كما يحدثنا عنه أبو زيد عبد الرحمن ابن أبي الربيع سليمان اللّجائي فيما حكاه تلميذه ابن هيدور قال :

« وأخبرني شيخي وسيدي أبو زيد عبد الرحمن ابن الشيخ الفقيه الأستاذ أبي الربيع سليمان اللجائي حين قراءته عليه بمدرسة العطّارين بمدينة فاس قال: كان شيخنا أبو العباس بن البناء رحمه الله شيخاً وقوراً حسن السيرة قوي العقل مهذباً فاضلا حسن الهيئة طويل[2] القد أبيض اللون يلبس الثياب الرفيعة ويأكل المآكل الطيبة، وكان لا يمرّ بموضع إلاّ ويسلم على من لقيه ، ما رآه أحد وتحدث معه إلا انصرف عنه وهو يثني عليه ، وكان محبوباً عند العلماء والصلحاء والولاة ، مشغولا بالنظر والبحث والتعليم ، حسن الالقاء ، قريب الافادة ماهراً في جميع العلوم محققاً لها مُحِباً في أهل العلم حريصاً على افادة الناس بما عنده ، وكان قليل الكلام جداً ، لا يتكلم بِهذَر ولا بما يكون خارجاً عن مسائل العلم ، وكان إذا حضر في مجلس فتكلم فيه سكت لكلامه جميع من حضر لاستماع حديثه ، حتى قيل فيه : ان عنده طِلّسْمَ السّكوت يُسكِت به الناس إذا تكلم .

---

(١) لقد عنينا بتحرير هذا المطلب من ترجمة ابن البناء المتعلق بذكر مشيخته لأنه وقع فيه كثير من الخبط والتخليط عند جميع من ترجموا له .

(٢) في الجذوة معتدل القد .

ان هذا الكلام يتضمن افادات شتَّى عن المترجم ، فهو أولا يفيدنا أنه أقام مدة بفاس يدرس العلم في مدرسة العطارين وثانياً يعطينا صورة عن درسه وطريقته فيه ، وثالثاً يحدثنا عن صفاته وأخلاقه ومعاملته مع الناس وأحوال معيشته ، وذلك كله مما يزيدنا به معرفة ويبرز لنا شخصيته العلمية والاجتماعية القويـة .

ولكنه لا يُعرِّج على سبب قدومه لفاس ولا على تاريخه ومدة اقامته بها ، ولم نر من مترجميه من ذكر شيئاً من ذلك . ونحن نظن أن السلطان أبا سعيد المريني يمكن أن يكون هو الذي استقدمه للتدريس في مدرسته التي هي مدرسة العطارين المذكورة لما فرغ من بنائها، لكن يعكر علينا ذلك أن تاريخ تأسيس هذه المدرسة هو عام ٧٢٣ ، وابن البناء توفي عام ٧٢١ في القول المشهور ، فإما أن يكون تدريسه بفاس في غير مدرسة العطارين واللجائي أو غيره ممن روى الخبر عنه غلط في ذلك، وإما أن يكون تاريخ وفاة ابن البناء تأخَّر إلى سنة ٧٢٣ وهو القول الثاني فيها أو إلى سنة ٧٢٤ وهوقول ثالث نُقِل عن تلميذه أبي جعفر بن صفوان .

وعلى كل فإن صلة مترجمنا بالسلطان أبي سعيد معروفة ومداخلته له ثابتة حتى أنه فيما يحكُون عنه سأله عن زمن موته فأجابه أن موته يكون عند اشتغاله ببناء موضع في قبلة مدينة تَازَة يقال له تازَرُوت فكان كذلك . والسلطان أبو سعيد كان كوالده أبي يوسف يعقوب المنصور المريني معنياً بنشر العلم وتقريب العلماء وبناء المدارس وخزائن الكتب ، ومن المروي تاريخياً أنه حضر عند الشروع في بناء مدرستـه المُشار إليها وحضر معه الفقهاء وأهل الخير ،ولما تمَّ بناؤها شحنها بالطلبة ورتب فيها اماماً ومؤذنين وقومة يقومون بأمرها ورتـب

فيها الفقهاء لتدريس العلم وأجرى على الكل المرتبات والمؤون فوق الكفاية، واشترى عدة أملاك وقفها عليها احتساباً لله تعالى[1] فلا غَرْوَ أن يكون أبو سعيد قد استقدم ابن البناء لحضور تأسيس هذه المدرسة وللتدريس فيها بعد ما تم بناؤها إذا كانت وفاته قد امتدت فعلا إلى ماقيل من سنة ٧٢٤ أو أنه استقدمه من مراكش ليكون في مَعِيَّته وللتدريس بفاس في مدارسها الأخرى ان كان قد تُوفي فعلاً قبل بناء مدرسة العطارين لاسيما وأمثالُ ابن البناء ممن يشتغلون بعلم التنجيم كانوا دائماً طَلِبَةَ الملوك وخاصة الخاصة من رجال الحاشية الذين لا يُستغنى عنهم .

واشتغال ابن البناء بعلم التنجيم هو مما لا شك فيه وله فيه موضوعات معروفة، انما الناس قد تَزَيَّدوا فيه وبالغوا فيما ينسبونه إليه من الحكايات المتعلقة بذلك، ومنها ما تقدم في كلام التجاني من أنه كان عنده طِلَّسْم السكوت ، يسكت به الناس إذا تكلم . ويحسن أن نورد بقية كلام المذكور تعليقاً على ذلك فإنه يحتوي على تعليل معقول لما حمل الناس على قولهم هذا . ونصّه نقلا عن ابن هيدور :

قال شيخنا رحمه الله « أما » أبو العباس فكان محققاً في كلامه قليل الخطإ فيه ، ولأجل ذلك حُسِد ونُسِب إليه علم الطلسم، وكذلك أيضاً حُسِد في موضوعاته وقيل انه كان يضعها بالاختيارات النجومية لكثرة طلب الناس لها وعنايتهم بها وكثرة شهرتها في البلدان وهذا كله ظاهره انما هو الحسد. وسبب شهرتها انما هو اشتغاله بقراءتها حتى اشتهرت بحياته في جميع البلدان.

---

(١) الاستقصا للناصري ج ث ص ٥٤ .

وتبين لنا هذه النبذة إغراب الناس أيضاً حتى في تعليل ما لقيته مؤلفات المترجم من الرواج ونسبتهم ذلك إلى اختيار الطالع السعيد والقرانات النجومية ساعة وضعها وتأليفها. والحالةُ السيكولوجية للعوام، وبعض العلماء المحدودي الادراك عند مشاهدة بعض الظواهر الغريبة ، كثيراً ما توحي بمثل تعليل طلسم السكوت وما إليه من العجائب ، والتعليل الصحيح هو ما أشار إليه اللجائي . ويعضده في خصوص اصابة ابن البناء في كلامه وانصات الناس إليه وتسليمهم له ، قولُه هو نفسه أعني ابن البناء في هذه الأبيات الشعرية الحكيمة المشتهرة من نظمه :

قصدتُ إلى الوَجازَة في كلامي لعِلْمِي بالصواب في الاختصارِ
ولم أحذَرْ فُهوماً دون فهمي ولكن خفتُ إزراء الكبارِ
فشأن فُحولة العُلماء شأني وشأنُ البَسْط تعليمُ الصّغارِ

ويمكن أن يضافَ هذا التعليلُ وهو التحرير والتلخيص في تآليف ابن البناء إلى ما ذكر اللجائي في سبب شهرتها وانتشارها من قرائه لها في حياته وأخذ الناس لها عنه ، فإن الرجل كان مختصاً في علومه ومحصلا لها تمام التحصيل ، وبذلك فهو لا يُودع في مؤلفاته إلا زُبْدةَ الفن وخلاصةَ العلم ، مما يجعل الناس يرغبون فيها ويتنافسون في تحصيلها . وقد أشار في أزهار الرياض إلى هذا المعنى ، وزاد على ذلك أنه كان عريقاً في الحضارة بريئاً من البداوة .

ويحتاج موضوع اشتغال المترجم بالتنجيم والعجائب المنسوبة إليه في ذلك إلى مزيد بَسْط. فَنَنْقُل كلامَ ابن شاطر المراكشي الذي ساقه ابن هيدور ،

والمُبين لمبدإ تعلق ابن البناء بهذا العلم إلى أن بلغ فيه الغاية بحسب زعم ابن شاطر ثم نعقب عليه بما يلزم . وهذا هو باختصار قليل :

« وأخبرني الشيخ أبو عبدالله محمد بن شاطر رحمه الله قال : كان أبو العباس من أهل العلم متفنناً في فنون كثيرة ، وكان ينظر في أحكام النجوم مع محافظته على الدين وأخذه في علوم أهل السنة واشتغاله بها ، فكان آخذاً من الطرَفَيْن بالحظ الوافر . وخدم في أول حالِه وليّ الله تعالى أبا زيد الهزْميري رحمه الله ودخل في طريقه مع الفقراء الذين كانوا تلامذة له ، فأعطاه ذكراً من الأذكار ودخل به الخلوة مدة سنة كاملة فرأى ليلة وهو بحال يقظة ومشاهدة ، دائرة الفَلك باجمعها حتّى عاين مَجْرَى الشمس من أوله إلى آخره فوجد في نفسه من ذلك هوْلا شديداً فسمع نداء الشيخ من خلْوته وهو يقول له : أُثْبُت . أُثْبُت . حتّى عاين ما رأى عياناً مستوفى ، فلما أصبح قال له الشيخ مبتدئاً : ان الله تعالى قد فتح لك فيما اراك وهو عِلْمُك الذي وهبك الله فاطْلُبْه .

« فأخذ من ذلك الوقت في طلب علم الهيئة والنجوم حتّى أدرك في ذلك الغاية الّتي لم يلحقها أحد في زمانه ، إلا أنه لم يصحّ عنده الإخبار بالكائنات قبل كوْنها ، ولم يطّرِد له في ذلك قانون مما ذكره أصحاب تَقَدْمة المعرفة فكان يُحسّ من ذلك في باطنه أمراً عظيماً ، و أخذ يستقصي في ذلك جميع أصول أحكام النجوم ، ولم يدع في ذلك مما قاله الأقدمون شيئاً إلا جرّبه واختبره ، فلم يحصُل له في ذلك قانون إخْباري مُطّرد ، وبقي على تلك الحالة سنين إلى أن استعمل الصوْم والخلوة طلباً لتصحيح مراده وأن يُخبَر بقانون مطرد في الإخبار بالمغيّبات فدام في تلك الخلوة عدة أيام إلى أن رأى يوماً

بين يديه في صلاة كان يصليها صورةَ قُبَّة من نُحاس مصنوعة بصنائع لم يرَ مثلها في عالم الحس وهي محبوسة في وسط الهواء وفي داخلها شخص يتعبد فهاله ما رأى من صُور مُفْزِعة وسمع أصواتاً مَهُولةً تناديه أن ادْنُ منا فلم يثبُت له جأش وأُغْمِيَ عليه وصار يهذي فمرَّضَه أهله مدة إلى أن بلغ خبرُه للشيخ الهزْميري فعاده ومسح رأسه فزال ما به،وسأله عما رأى فأخبره فقال له أنا كنتُ ذلك الرجل الذي في القبة أُمِرتُ أن أخبرك في ذلك المقام فلم تثبت ، وها أناذا أخبرك في عالَم الحِس . ثم أخبره بمطلبه بعد أن أخذ عليه العهد ألا يعلمه لأحد إلا بعد الاذن» .

هذا هو كلام ابن شاطر في موضوع التنجيم والمراحل التي قطعها ابن البناء في طلبه وقبل التعليق عليه بشيء ننوه بما في طَيِّه من دلالة على تعلق صاحبنا ابن البناء بالعلم واجتهاده في طلبه واتخاذه جميع الوسائل لبلوغ غرضه منه حتى الرياضة الرّوحية ، وقد ذكر غيره من ذلك أنه بقي مدة لا يأكل ما فيه رُوح ثم نُؤمِّنُ على ما ورد في النصف الأول من هذا الكلام وهو المتعلق بروئيا ابن البناء لدائرة الفلك وتمثّله لشيخه الهزميري وهو يُثَبِّته أمام هوْل ما رأى . ونقول روئيا . ونحن نعني ما نقول فلا شك أنها كانت رُوئيا مَنامية بدليل عبارة (فلما أصبح) التي بعدها ، وان كان الراوي جعلها روئية عيْنية مُبالغة أملتْها عليه الحالة النفسية التي كان وما يزال فريق من الناس يخضَعُون لها إيماناً منهم بالخوارق وكرامات الأولياء التي لا يحدّها شرع ولا يزِنُها منطق .

فأما أن تكون هذه روئيا منامية فلا حرَجَ في ذلك ، وهي بهذه الصفة أدخل في الكرامة من الصفة الأخرى . وقد حصل المقصود منها وهو الفتح على

صاحبنا في علم الفلك والنجوم ، كما قال له الشيخ الهزميري ، حتى بلغ في ذلك الغاية التي لم يلحقها أحد في زمنه .

نعم بقي النصف الثاني من كلام ابن شاطر وهو ما نتحفظ في قبوله ، ونرى أن فيه تزيداً كبيراً والمراد منه هو القول بأن ابن البناء ظفر بالنتيجة المتوخاة من علم التنجيم وهي معرفة المغيبات واعطاء ذلك صبغة شرعية بجعله حاصلا عن طريق المجاهدة وبالإذن من الشيخ الهزميري حتى لا يقع اعتراض على مدعيه ، لا سيما مع التمهيد له بما جاء في استهلال الكلام من أنه كان ينظر في أحكام النجوم مع محافظته على الدين إلخ .

ونحن وإن كنا لا ننكر علم التنجيم ولا نثبته ، فإن ما لا نتساهل فيه هو حكم الشرع على هذا العلم وأحكامه وأنه من الشرك اعتقاد شيء من ذلك وأن الاشتغال به ان لم يكن لغرض شرعي كإبطاله وعدم الاغترار به ، حرام لا يجوزه الشرع ولا بد أن يكون ابن البناء إنما عمل به في هذه الدائرة إن حصل منه على شيء حقاً ، وكان هو في نفسه حقاً .

ومما يحكى من أخباره في ذلك والراوي هو ابن شاطر أيضاً قال :

« كنت قاعداً مع الشيخ ابن البناء في دكان فلان الطبيب بمراكش ، فإذا برجل قد أتى لابن البناء وقال له يا سيدي : توفي والدي وكان متهماً بالمال ولم يترك لي شيئاً وقيل لي إن ماله مدفون بداره فأحب أن تعمل خاطرك معي لوجه الله ففكر الشيخ برهة ثم قال للرجل : صور لي صورة الدار في الرمل ، فصور له صورتها من غير أن يدع شيئاً منها . فأمره أن يزيل تلك الصورة فأزالها . ثم أمره أن يصورها ثانياً فصورها كالأولى ، فأمره أن يزيلها ،

ثم أمره أن يصورها ثالثاً فصورها كالأولى والثانية ، فنظر فيها وقال له: ان مالك في هذا الموضع فقبّل يدَه وانصرف » .

قال ابن شاطر : فبحثت عن الرجل فالتقيتُ به بعد يومين فأخبرني أنه وجد مال أبيه في الموضع الذي ذكره الشيخ فقضيت العجب من ذلك .

وهذا أمر إلى الزّكانة وحدّة الذهن أقرب منه إلى الحكم بالنجوم .

وحكوا عنه أيضاً أن شُرْطياً عدا على خديمه فقتله ، فلما بلغه الخبر عمل بعض الأوْفاق فما استتمها حتى مات الشرطي . وهذا يمكن أن يكون وقع صُدْفة بموت الشرطي موتاً فجائياً متأثراً مِنْ خُصومته مع خديم المترجم ، فنُسِب إلى تأثير الأوفاق وعلى كل فإن اشتغال ابن البناء بهذا العلم ان صح أن نسميه علماً ـ أمرٌ ثابت لا مِرْية فيه ، بل انه أخذ منه مجهوداً كبيراً ووقتاً طويلا . وكونه وصل فيه إلى نتيجة عملية أمر مشكوك فيه . ومُخالفتُه للشرع لا غُبار عليها ، انما نحن لا نشك أنه كان له وجه ومدخل شرعي لذلك ، لا سيما وأن بين تآليفه موضوعاً اعتمد فيه حكم الشرع في ردّ الأحكام النّجومية وابطالها كما نقف عليه في لائحة مؤلفاته ، وحرصُنا على ذكر هذه الأشياء مع تحفّظِنا بازائها ، من المقاصد التي نتوخّاها في كتابة تراجم علمائنا وعظمائنا لتخليصها من الشوائب ، وافراغ خلّة المعقُولية عليها ، فقد غبّرَ الزمنُ الذي كان الناس يقفون فيه مشْدُوهين أمام النبغاء والعباقرة فينسبون ما يرون من أعمالهم العجيبة إلى المُعْجزة أو السّحْر وما إلى ذلك من الأمور التي وراء العقل وفوق الطبيعة البشرية وهو خطأ ينبغي أن يزول .

ومما روَوْه على أنه كرامة ، وهو أحرى أن يكون فِراسة أن أبا عبدالله

الكُومي ، وهو من فضلاء مراكش المشهورين بالخير والصلاح ، خرج في قائلة يوماً قاصداً إلى زيارة الفقيه أبي عبدالله البَقّوري مُكَمّل إكمال المُعْلِم[١] وقال فدخلت عليه فوجدته بين كتبه على التراب ، وعليه مُرقّعة غليظة وعرَقُه يقطر ، فجلست عنده ساعة ثم خرجت إلى زيارة ابن البناء فخرجتْ إليّ وَصيفةٌ خُماسية قالت من هذا ؟ قلت قُولي له الكُومي فاعلمته وأذِن في دخولي فوجدته في قُبّة رياضه الذي[٢] أحْدثَ بناءه بمراكش وعليه ثوب كتّان من عَمل تونسيّ وفي القُبة أقطعَة ومَخَايدُ وعليها حجابٍ حسن[٣] فسلمتُ عليه وجلست فنادى الخادم وأشار لها فقدمت آنية بالسّكَّر وأخرى بالبطيخ . فقال لي ادنُ فدنوت . وقلت في نفسي سبحان الله كيف تركت البقوري وكيف وجدت هذا الرجل ؟ فقال لي اسكُت ودع الفضول . او كان البقوري في هذا المقام وأنا في مقامه لاختلّ حال كل واحد منا .

ان ما يعنينا من هذه الحكاية ليس هو تفرس ابن البناء الذي عرف به حال الكومي ولا سيما إن كان أخبره بأنه آت من عند البقوري وانما يعنينا منها وصفُ معيشة صاحبنا وتَرفّهه الذي يدل على غناه وسعة حاله وأنه بنى رَوْضاً لسكناه ببلده حاضرة مراكش ، لم يكن مما وَرِثه عن أبيه حتى لو كان أبوه ذا ثروة اكتسبها من حِرْفته بل الأمر يدل على أنه هو الذي استفاد ماله ونمّى ثروته بمخالطة السلطان وربما بوسائل أخرى كالتجارة ونحوها .

---

(١) المعلم على صحيح مسلم للمازري واكماله للقاضي عياض ومكمله هو صاحبنا البقوري .
(٢) ذكر الوصف على اعتبار الرياض مفردا كما يجري في لسان العامة بالمغرب .
(٣) يريد بالأقطعة المراتب والمضربات وبالحجاب الأغلفة التي تجعل للمخدات وللمضربات والمراتب وهذه تعرف بالتلاميط .

وقد مرّ بنا آنفاً في حديث أبي زيد اللجائي عنه أن تلك كانت حاله أيضاً لما كان مقيماً بفاس فكان يلبس اللباس الرفيع ويأكل المأكول الطيب وهي حال تناسب ما كان له من المكانة الاجتماعية المرموقة .

ولقد كان هذا الذي أدركَه من شفوف المنزلة لدى السلطان وكفاية الحال ومحبة الناس له وتعظيمهم إياه، انما هو من بركة العلم والعمل والحرص على النفع ونُصح العباد ، فإنه قد بلغ في المعرفة مقاماً عالياً اعترف له به الجميع وكان قد شارك غيره من أهل العلم المتصدرين فيما عندهم ، وانفرد عنهم بفنون لم يَتْثقفْها فقط ولكنه تعمّقها واختص بها حتى أصبح يُشار إليه بالبنان فيها وهو مع ذلك على جانب من الوقار والسكينة وسَمْت العلماء ، يبذُل ما عنده من العلم ، ويعامل الناس بأحسن الأخلاق ، ويقوم على قدم الاجتهاد في العبادة والبِرّ وفعل الخير .

ان أهل العلم والصلاح كلهم قد أثنوا عليه ونوهوا به، ناهيك بما قاله فيه العلامة ابن رُشَيْد وهُو مَن هُو كما في نيل الابتهاج : « لم أر عالماً بالمغرب إلا رجلين : ابن البنّاء العددي بمرّاكش وابن الشّاطّ بسَبْتَة » وكان ما اشتهر به أكثرَ من غيره ورُزِق فيه الفتح هو علمُ العَدد وعلمُ الفلك، فالعدد بمعناه الواسع الذي يشمل الحسابَ والجبرَ والمُقابلة وما تفرع منها مما نسميه بالرياضيات ، كان له فيه تفوق كبير وفضل مُعترف به من أهل الفن على تقدّم أبحاثه وتوسّع نظرياته وخاصة في حساب الكسور المتسلسلة والجُذور الصمّاء ومُربّعات الأعداد ومُكَعّباتها وحساب الخطأيْن وقد أدخل بعضَ التعديل على القاعدة المعروفة بقاعدة الخطإ الواحد وحلّ بعضَ المعادلات الجبْرية العَويصة ، وذلك كله بطرق سهْلة وقريبة المأخذ مما أطلق ألسنة

العلماء بالثناء وتقدير عمَلِه ، ولا سيما الأوربيون الذين أدهشتهم تحقيقاته حينما نُقِلت بعضُ مؤلفاته إلى اللغات الأجنبية في أول عصر النهضة . وممن شهد بفضله في هذا المقام لالاند وسارطون وويكه وسوتر وألدوميلي وأشار الرياضي الفرنسي شال إلى أن بعض علماء الغَرْب أغاروا على كتُبه وتَبنَّوْا نظرياته[١] .

وفي الفلك بمعنى علم الهيئة والمواقيت والرَّصْد وعَمل الأزْياج والتنجيم وما إلى ذلك كان لابن البناء أيضاً اليدُ الطّولى والقِدْحُ المُعَلَّى ، واعتُبِرت بعضُ بحوثه أساساً لوضع الأزياج وضبْط المواقيت ، لأنه كان يُعْنى بالتجربة ولا يكتفي بالنظر . فَمِن ثَمّ انتقد أشياء كانت توخذ مُسلَّمة وأسَّس قوانين للعمل في هذا الصدد قُوبِلت بمزيد الاستحسان . واننا لِنُعطيَ دليلا على ذلك نكتفي بالقوْل إن كثيراً من مؤلفاته ورسائلـه العلمية تحمِلُ اسم قـانون أو مِنْهاج حتى قيل ان كلمةَ Almanac الأجنبية مأخوذةٌ من اسم كتابه مِنْهاج الطالب المعروف . وقال العلامة سارطون انها مأخوذة من اسم كتابه المناخ .

ولم يقتصر صاحبنا ابن البناء على هذين العِلْمين ، بل انه نظر في الهندسة كذلك وله فيها أوضاع جيّدة واستعان بمهارته في علم العدد على بسط مطالبها الأساسية ، وبذلك يكون عطاؤُه في العلوم الرياضية كاملا .

ولابن البناء مجال آخر من العلم النظري له فيه آثار ما زالت لم تدرس وهو المنطق والفلسفة ، فقد سبق لنا أنه أخذ التعاليم عن ابن حكَم ، وغالباً ما يراد بها الفلسفة وان كانت تطلق ويراد بها العلوم الكونية من نظرية وعمليّة .

---

(١) قدري حافظ طوقان : تراث العرب العلمي ص ٣٨٠ .

ولقد وجدنا في أسماء مؤلفاته كتاباً باسم الكليات في المنطق ، ولا بد أن يكون كما عودَنا محتوياً على شيء جديد ولو في طريقة العَرْض . وفي مؤلفاته أيضاً رسالةٌ صغيرة الحجم ولكنها كثيرة العلم سماها مراسم الطريقة ، وشرْحٌ لها مبسوط ، وهما تأليفان لم يُسبق بهما على ما قال الشيخ أحمد بابا في نيلٌ الابتهاج . والحقيقة أن هذا الكتاب متْناً وشرحاً عملٌ فريد ، وله فيه نفَس عال لم نعرفه لغيره فيما تضمنه من الأبحاث .

ولنستمع مثلا إلى قوله في المرسم الأول مقارناً بين وظيفة النفس والعقل :

« ان النفس إذا توجهت نحو المحسوسات وأدركتها ارتسمت منها في النفس صور خيالية ، وبعد ذلك تتصرف فيها القوة المفكرة تركيباً وتفصيلا ، وتخلص ماهية الشيء المحسوس من مُشَخّصاته وترك الأمر الكلي الذي وقع بتشابه الجزئيات وإذا توجَّهتْ نحوَ ما ليس بمحسوس لها سواء كان شأنه أن يُحَسَّ أو ليس شأنه أن يُحس ، فلا بد لها من وضع علامة في النفس تَتنزَّلُ عندها منزلة الصور المتخيَّلة من المحسوسات ويُسمى هذا الوضع توهّماً فإن الرسم إنما هو اتباع الخيال الذي عن المحسوسات ولا يرتسم في النفس شيء سوى ذلك .

والعقل لا يضع لشيء رسماً أصلا انما له ابداً الشهادةُ للحق ، ومُدْركُه وجْدانُ اللزوم في الأشياء . فلذلك إذا صرف الإنسان فكره نحو ربه نصبَ الوهم في الذهن شيئاً لا ينفك الوهم عنه يجعله كالعلامة . فهذا الذي حصل في الذهن بالوهم يساعد العقلُ الوهمَ على نصْبِه ، إذ لا حيلة للوهم إلا به ، ويتفقان على انها علامة مُشيرة إلى الاسم حيث هو وليست هذه العلامة هي

ماهية الربّ ولا نفسه ، إذ لا ماهية للربّ وله حقيقة جلّت عن احاطتنا بها يشير إليها العقل والوهم ويتفقان أيضاً في الشهود الصريح على اطراح تلك العلامة بمعنى عدم اعتبارها فيبقى الذكر خالصاً بقوة الروح ، وليس تلك العلامة أيضاً مأخوذة من شيء أصلا ، انما حدثت في النفس من ذكر الرب فهي مشيرة إلى اسمه كما ذُكِر وعلامة ضابطة للوهم » .

ولنستمع إليه أيضاً في ابطال شُبهة من شُبَه الفلاسفة في قِدَم العالم :

« فما يغلّط إطلاقُ ان المؤثر لا يؤثر حتى يتأثر ، وقد يبنى على لازمه قدم العالم في الوجود لاستحالة تأثر القديم بالحادث ، وما ذلك إلا لاطلاق هذا القول وميْل العلامة التي في النفس عما يقبل التأثير في نفسه إلى العموم ، وليس ذلك يحق في كل شيء بل نجد مؤثرات لا تتأثر أصلا مع أثرها الحادث مثل خطين متوازيين ممتدين بلا نهاية هما في مُدْرَك العقل لا يلتقيان أصلا ويلتقيان حساً، فقد أثّرَا أنهما تأثّرا بالالتقاء والنهاية، وسبب ذلك الارتباط الذي بين الخطين والبصر ، وبامتداد البصر معهما تظهر صورة الاجتماع وبانقباضه تظهر صورة الافتراق ، ولم يتأثرا من جهة ذاتيَيْهما أصلا وانما الأثر في غيرهما ، وهما مع ذلك يُوصَفان بأنهما مُلْتقيان وليست هذه الصفة موجودة في ذاتيهما بل هي حال لهما في البصر لا فيهما فيوصفان بالضدين الاجتماع والافتراق وتلك الأوصاف لهماحقيقة،لأن شأنهما أن تكون لهما تلك الأوصاف بسبب تلك الأحوال ، وليس ذلك بموجب كثرتهما ، ولا تغيرهما ولا نفي الأثر عنهما بل حقيقتهما عند الأثر وقبله وبعده من جهة ذاتيهما حقيقة واحدة لم تتغير فهذا مؤثّرٌ أثّرَ أثَراً ظهر منه أنه تأثر وهو لم يتأثر لأن ذلك الأثر عائد إلى المتأثر الخ » ..

هذان نموذجان من تفكيره الفلسفي في رسالة المراسم لم نسُقْها إلا للتنبيه على غرابة منزَعه وقوة نظره ، وإلا فإنهما لا يُغنيان شيئاً عن وجوب الاطلاع عليها ودراستها مع شرحها لمعرفة ما لابنِ البناء في هذا الميدان الآخر من العلم من بَسْط واتّساع ، ولا نَغفُل عن استغلاله لِمَعارفه من العلوم التطبيقية فيما ضربه من مثال للاحتجاج على بطلان التأثر ، وهو بِصَدَد تقرير نظرية فلسفية ، فإن ذلك من أصالة فِكْره وتمام تصرّفه .

ونظن أن هذه الاتجاهات العلْمية الثلاثة هي التي برّزَ فيها وأبدع ما شاء حتى طارت له تلك الشهرة المعروفة التي جاوزت آفاق بلاد العروبة والإسلام إلى الآفاق العلمية العالمية ، وان كان كما علمنا قد شارَك مُشاركة هامة في العلوم الشرعية واللغوية وله فيها كذلك آثار قيمة . ولكنا لا نقف عندها كما وقَفْنا عند علومه السابقة لأن هذه هي التي اختص بها في زمنه وأما تلك فقد كانت مُشاعة بينه وبين جميع عُلَماء عصره ، فلنكتفِ الآن بسرد لائحة مؤلّفاته التي تشملُها وغيرَها ومنها نتعرَّف إلى مَجْهُودِه فيها أيضاً .

ونحن نقسم هذه اللائحة باعتبار ما ذكرنا إلى أربعة أقسام ، مؤلفاته في العلوم الشرعية واللغوية ، ومؤلفاته في الرياضيات ، ومؤلفاته في علم الفلك ، ومؤلفاته في الفلسفة . ونلاحظ أولا أن هذه المؤلفات أكثرها رسائل صغيرة ، وقد سبقنا إلى هذه الملاحظة شارحة ابن هيدور الذي قال :

« أما موضوعاته يعني تآليفه فكثيرة جداً ، ألف في جميع ما عني به ، ومعظمها صغار جداً » .

(أ) المؤلفات الشرعية واللغوية : (١) تفسير الباء من بسم الله الرحمن الرحيم جزء صغير . (٢) تفسير سورتي العصر وإنا أعطيناك الكوثر. (٣) عنوان الدليل من مرسوم خط التنزيل وهو جزء نبيل في تعليل رسم المصحف [1] الامام . (٤) حاشية على تفسير الكشاف ، سفر صغير غريب في معناه . (٥) كتاب نحا فيه منحى ابن الزبير في كتابه المسمى ملاك التأويل في المتشابه اللفظ من آي التنزيل ، موضوع غريب أتى فيه ببدائع وعجائب . (٦) الاقتضاب والتقريب لطالب اللبيب في أصول الفقه . (٧) منتهى السُّول في علم الأصول جزء صغير . (٨) تنبيه الفهوم على مدارك العلوم في أصول الفقه أيضاً جزء كبير . (٩) شرح التنقيح للشهاب القرافي . (١٠) اختصار كتاب الأحياء للغزالي . (١١) كتاب في عمل الفرائض . (١٢) كتاب الفصول في الفرائض أيضاً . (١٣) شرح بعض مسائل الحوفي في الفرائض . (١٤) مقالة في الاقرار والانكار . (١٥) مقالة في مسائل المُدبَّر . (١٦) مقالة في مقادير المكايل الشرعية . (١٧) رسالة في ذكر الجهات وبيان القبلة والنهي عن تغييرها لأنها بوضع مجتهد . (١٨) رسالة في احصاء عدد أسماء الله الحسنى من القرآن واخراجها منه على حسب ما هي من غير تغيير وتداخلها من جهة العموم والخصوص . (١٩) رسالة في الفرق بين الخوارق الثلاثة المعجزة والكرامة والسحر ومن فصولها أن المعجزة من باب الوجود الممتنع على البشر والكرامة من باب الوجود المفتوح للبشر ولهذا يمكن التحدي فيها والسحر من باب

---

(١) ان اكثر ما نعقب به من بيان على أسماء هذه الكتب هو من صنع ابن هيدور وعنه ننقله .

الخواص الأرضية المرتبطة بالقوى . وصاحب السحر لا بد له من آلة ظاهرة أو خفية، وليس لصاحب المعجزة أو الكرامة آلة إلا الدعاء إلى الله تعالى. (٢٠) رسائل في تفسير بعض الآي من القرآن . (٢١) شرح عوذة مُغْفَلَة . (٢٢) شرح ما يكتب في الحفيظة التي تُكتب في آخر جمعة من شهر رمضان. (٢٣) كلام في العزائم والرقى والسحر والتمائم . (٢٤) كلام في خواص بعض الدعوات. (٢٥) رد على الأحكام النجومية وابطالها. (٢٦)الكليات في العربية جزء صغير. (٢٧) الروض المَريع في صناعة البديع في علم البيان.(٢٨) كتاب الاختصار . (٢٩) مقالة في عيوب الشعر . (٣٠) قانون في معرفة الشعر. (٣١) مقالة في الفرق بين الحكمة والشعر. (٣٢) مقالة شرح فيها لغز عمر بن الفارض الذي أوله :

ما اسم ثلاثي الحروف فثلثـــه مثل له والثلث ضعف جميعه[1]

(ب) المؤلفات الرياضية : (٣٣) كتاب التلخيص في الحساب وهو من أشهر تآليفه . (٣٤) شرحه المسمى برفع الحجاب قال ابن هيدور «وهو سفر صغير كثير المنفعة ، ورأيت عليه خط مؤلفه انه ألفه عام واحد وسبعمائة » ، وقال ابن خلدون في التلخيص « انه ضابط لقوانين أعماله مفيد » ، وفي رفع الحجاب : « هو كتاب جليل القدر أدركنا المشيخة تعظمه وهو جدير بذلك».

وهذان الكتابان عليهما قامت شهرته بصفته حاسباً كبيراً ورياضياً ممتازاً . وقد نُقِل التلخيص إلى اللغة الفرنسية في القرن الماضي بمعرفة الأستاذ اريستيدمار

(١) لا يوجد هذا اللغز في ديوان ابن الفارض .

وطبع غير مرة كما نُقِلت محتوياته وأطراف من شروحه إلى الفرنسية وغيرها قبل ترجمته كاملا .

ومن شراحه القَلَصادي وابن هَيْدور وابن مُجْدي والهَوّاري والإشبيلي ونظمَه ابن غازي في رجزه المعروف المسمى بالمُنْية واختصره ابن الهائم وسمَّى مختصره الحاوِي .

وعلى هذه الشهرة المطبقة التي أدركها التلخيص فقد قيل انه اختصره من كتاب أبي زكرياء الحصَّار حتى ان بعضهم يطلق عليه الحصَّار الصغير وكذا قيل في شرحه رفع الحجاب انه مأخوذ من كتاب أبي كامل شجاع المصري وغيره ، ولا عيب في ذلك فما زال العلماء يأخذ بعضهم عن بعض وقد اختُصر التلخيص نفسه كما رأينا ولكن قيمته لم تذهب باختصاره ولا بالقول انما هو مختصر الحصَّار فما أعطاه تلك القيمة إلا شيء زائد على المختصر منه ، والناس أكْيَسُ من أن يمدحوا رجُلاً البيتَ بل صرح ابن هيدور بهذا المعنى إذ قال : « وكل ما ألف بعده من المختصرات فمُقَصّر عن درجته وأنى للضالع بادراك شأو الضليع » وقال في مدحه نظماً :

يا طالباً علمَ الحساب وكُنْهَه	وأصالَة البرهان في الأعمال
فعليك بالتلخيص تُدْرِكْ جَوْدةً	في علمه من غير ما إشكال

(٣٥) كتاب الجبْر والمقابلة وقيل فيه أيضاً أنه مُقتبس من كتاب أبي القاسم القُرَشي بل مأخوذ منه بالحرف ، ذكر ذلك أبو العباس بن صفوان تلميذ

المترجم في شرحه على كتاب القرشي المذكور ، وكان نبّهه على ذلك أبو بكر القَالُوسي ، أثناء قراءته على ابن البناء بمراكش وأوقفه على بعض ذلك ثم لما رجع ابن صفوان إلى الأندلس تصيَّرتْ إليه نسخة من كتاب القرشي قال :

« فتأملته فرأيت كتاب ابن البناء مأخوذاً منه بجملته منقولاً بنصه لم يضع فيه كلمة واحدة ليست في كتاب القرشي ، حاشا الخطبة وما في حكمها وما عدا ذلك مما تضمنه من المسائل والامثلة وجميع ما فيه من كتاب القرشي كأنه لخّصه منه وجرده عن البراهين . وكان ابن البناء رحمه الله تعالى فريدَ عصره... قادراً على التأليف ، صدرت عنه تآليف كثيرة في فنون شتى ولكنه رأى حُسْنَ تأليف القرشي فانتقَى منه عيوناً بديعة واقتضب نُكتاً مفيدة ونظَمها كتاباً صغيرَ الحجْم كبير العلم انتفع به ، أهل تلك الطريقة وصار عُمدةً لهم فيها » هذا كلام ابن صفوان وقد أحسَن توْجيهَ عمل ابن البناء في هــذا الكتاب ولو أنه أشار إلى قصده هذا لارْتفَع عنه كل لوم والكمال لله .

(٣٦) مقدمة في أُقليدس . (٣٧) المقالات الأربع . (٣٨) القوانين وضعه لابن القاضي العِمْراني الذي كان يقضي في زمنه بمراكش . (٣٩) الاصول والمقدمات في صناعة الجبر . (٤٠) جزء في ذوات الأسماء والمُنفصلات . (٤١) القانون في العدد كراس . (٤٢) جزء في العمل بالرّومي سماه الاقتضاب . (٤٣) مُختَصر في المساحة . (٤٤) جوابات عن مسائل هندسية ومساحية . (٤٥) رسالة على الكرة (لا ندري جغرافية هي أم فلكية) . (٤٦) اختصار في الفلاحة (أثبتناه هنا لتقليل التقسيمات) .

(ج) المؤلفات الفلكية والتنجيمية وما إليها :

(٤٧) رسالة في مسائل مختلفة فقهية ونُجُومية منها الردّ على من يقول ان وقت العصر يُعلَم بوقوع قُرص الشمس على بصَر القائم قُبالتَها وبين أن ذالك لا يصحّ في بلد دون بلد ولا زمن دُون زمن . (٤٨) منهاج الطالب في تعديل الكواكب وهو من أشهر تآليفه في هذا العلم وقد نقله الدكتور رخوان برنيت إلى الاسبانية ونشره مع الأصل العربي معهد الابحاث بتطوان سنة ١٩٥٢. (٤٩) الزّمام المعروف بالمستطيل وهو مختصر المنهاج المذكور . (٥٠) اليَسارة في تعديل السَّيارة وهو أيضاً من تآليفه المشهورة أتى به على وجه التقريب للمبتدي وجعله دون الكتابين المذكورين . (٥١) الاشارة في اختصار اليسارة اختصر فيه الكتاب الذي قبله مبالغة في التسهيل على الطالب . (٥٢) المنهاج في رؤية الأهلة وهو معروف من كتبه ومتداول بين الفقهاء . (٥٣) المنهاج في تركيب الازياج ... وهذان الكتابان وكتاب منهاج الطالب تصحّفت أسماؤها في بعض المطبوعات من ترجمة ابن البناء [١] من المنهاج إلى المُناخ ، وبذالك وقع الاختلاف في أصل كلمة المناك *Almanac* هل هو المناخ أو المنهاج مع الجَزْم بأنها مأخوذة من أعمال ابن البناء، والصواب أنها من المنهاج.(٥٤) تأليف غريب في أحكام النجوم . (٥٥) ثلاثة مداخل إلى صناعة الاحكام النجومية. (٥٦) مقالة في عمل الأسْطرلاَب . (٥٧) رسالة في العمل بالصفيحة الزرقالية . (٥٨)رسالة في العمل بالصفيحة الشكازية وهاتان الرسالتان مشهورتان معروفتان

---

(١) في كتاب الجذوة لابن القاضي وكتاب الاعلام لابن ابراهيم المراكشي .

من تأليفه . (٥٩) مختصر رسالة ابن الصفّار . (٦٠) جزء في الأنواء فيه صور الكواكب ويقال فيه أيضاً كتاب والغالب أنه هو الذي نشره معهد الدروس العُليا المغربي سنة ١٩٤٨ مع ترجمة فرنسية للدكتور رينو باسم رسالة في الأنواء إذ ليس للمؤلف موضوع ثان في الأنواء على ما نعرف وان كانت هذه الرسالة المنشورة ليس فيها صور للكواكب كما يذكرون . (٦١) رسالة في العمــل بالميزان المعروف بالكامل المقرب . (٦٢) قانون في معرفة الأوقات بالحساب . (٦٣) قانون في فصول السنة وما تحتوي عليه . (٦٤) مقالة في الحُملاء الستة بجدول . (٦٥) قانون في ترحيل الشمس . (٦٦) كتاب في تسمية الحروف وخاصية وجودها في أوائل سور القرآن . ((٦٧) رسالة في طبائع الحروف ومناسبتها للمعاني . (٦٨) موضوع حسن في الأوفاق . (٦٩) رسالة في المناسبات (٧٠) كلام في عمل الطِّلَّسْمات . (٧١) كلام على الصَّرْع الروحاني والصَّرْع المِزَاجي . (٧٢) كلام على الزجْر والفَال والكهانة . (٧٣) كلام على خط الرمل . (٧٤) كلام على السيميا . (٧٥) رد على ابن عبد العظيم الزموري في خَلْوته وردّ على البُوني . (٧٦) كلام على خواص الأشياء . (٧٧) كلام في الكيمياء .

(د) المؤلفات الفلسفية : (٧٨) الكليات في المنطق جزء صغير . (٧٩) شرح عليه . (٨٠) جزء صغير في الجدل . (٨١) شرح عليه . (٨٢) مراسم الطريقة في فهم الحقيقة من حال الخليقة ، رسالة تقدم الكلام عليها . (٨٣) شرحها وهما موجودان بمكتبة الاسكوريال . (٨٤) عواطف المعارف في الكلام

والاصول والتصوف . (٨٥) رسالة في ذكر العلوم الثمانية (لم نعرف المراد بهذه العلوم ووضعنا الرسالة هنا اعتدادا بمفهوم الفلسفة القديم) .

هذه خمسة وثمانون كتاباً أو تأليفاً أو موضوعاً باختلاف التعبير مما استطعنا أن نحصيه لمترجمنا بمقارنة أسمائها في الكتب المطبوعة التي ترجمته ومخطوطه شرح ابن هيدور على كتاب التلخيص ، والجميع مما دخله تحريف كثير فضلاً عن عدم تعيين موضوع البعض منها ، ولكنا اجتهدنا أن نضع كلاً في محله المناسب ونرجو أن نكون وفقنا في ذلك . وظاهر أن أكثر هذه المؤلفات رسائل صغيرة كما نص على ذلك في تعدادها وكما نعرفه مما نملكه أو وقفنا عليه منها . وعلى كل حال فهي أعظم دليل على رحب باعه واتساع دائرة معرفته وخاصة في فنونه التي اختص بها وأعطاها كليته فكان يُرحَل إليه فيها من نواحي المغرب وأقطاره ومن القطر الأندلسي أيضاً ، فعبد الرحمن اللجائي الذي نبغ بعده في الحساب والفلك رحل إليه من فاس بأمر والده الشيخ الكبير أبو الربيع سليمان وناهيك بها . وكان تأليفه لكتاب الكرة أثناء قراءة هذا عليه بمراكش كما أخبر هو بذلك وكان يقرأ عليه أيضاً بمدرسة العطارين بفاس في آخر حياته كأنه لم يُشْبِـع نَهْمَته مما عنده . وأبو جعفر بن صفوان رَحَل إليه من الأندلس وبرغم ما قال في كتابه في الجبر والمقابلة فإن أبا زكرياء السرّاج نقل عنه انه قال فيه :

« وصلَ شيخُنا ابن البناء في علم الهيئة والنجوم غايةً لم يلحقها أحد من أهل زمانه مع اتصافه بطهارة الاعتقاد واعتبار السنّة » وهي شهادة تتوافق

مع كلام ابن شاطر المتقدم في شأنه . ونظائرها كثيرة .

ويدعونا هذا إلى ذكر أشهر مَن أخذ عنه من الأعلام فإنهم بمثابة تاليف حية له خصوصاً وأن ذلك مما يحفظ سنَد العلم ويبين كيفية انتقاله من جيل إلى جيل ، فزيادةً على من ذكرنا من أبي زيد اللجائي وابن شاطر وابن صفوان من تلاميذه الذين يردد ذكرهم في هذه الترجمة وكلهم من الأفذاذ ، نذكر أيضاً العلامة أبا البركات بن الحاج البلفيقي وهو شيخ شهير من أهل الأندلس أخذ عنه الجماعة ، والعلامة الآبليّ أحد حكماء الإسلام في القرن الثامن أخذ عنه ابن خلدون ونوّه به كثيراً، وابنَي الامام العالِمَيْن التلمسانيَّيْن المعروفين وأبا عبد الله بن النجار من شيوخ القَلْصادي المتفنّنين في المنقول والمعقول وسواهم من أهل هذه الطبقة فما دونها .

ولابن البناء شعر قليل تقدمت منه تلك الأبيات الثلاثة الحكيمة في تعليل ايجاز مقاصده ونروي منه أيضاً هذه الأبيات الطريفة الغزَليةَ المضمونِ الهندسيةَ الشكْل . وكل اناء يرشح بما فيه :

خطَّ الغرامُ على المشوق مُثلَّثاً ... مُتساوِيَ الأضْلاع خَطّاً مُبرَّز
فغدا ينادي ظبْيَةً فتّانـــةً ... فتكت به عمْداً بغير تحــرّز
يا ميّ ان أرسلتِ سهماً صائباً، ... من قوس طرف ما لها من مُحْرز
تَجِدي المتيمَ وسْطَ دائرة الهوى ... وفؤادُه فيهــا كنقطة مَرْكَز
أضحى كخط ليمس يُدرَك رقةً ... أو نقطــةٍ في الــوصْم لم تتميَّز
وإذا يرُوم الغُنجُ منكِ قتالَه ... يُلْفيه دونَ تحــرُّف وتحيُّــز

ذكرها ابن هيدور في شرح التلخيص .

هذا وقد اشتهر أن المترجم توفي عشية يوم السبت ٥ رجب ودفن من الغد بخارج باب أغمات من مراكش عن يسار الخارج منه ، والتفريق بين يوم الوفاة والدفن مما وقفت عليه مقيداً بظهر بعض تآليفه وهو مفيد لرفع الخلاف بين ما يقال من أنه توفي يوم ٥ أو يوم ٦ ، أما الباقي فهو مما عند صاحب الجذوة ، وعلق عليه ابن المُوقّت في كتابه السعادة الأبدية بقوله « وأما موضع دفنه فهو مجهول إلى الآن ، إلا أنه مشهور عند الخاص والعامّ بالبُرْج الرّكْني داخل حوْمة جنان بُوسكْري من باب إيلان وعليه علامة من الطين وهي محل مُواجَهة الزائر » وابن الموقت من أهل مراكش ومن أحدث مترجميه فهو أعرف بأمره هذا . كما أنه ذكر أن محل ولادته بمراكش من حي قاعة ابن الناهض ما يزال معروفاً حتى الآن وهو محل سكنى أحد فضلاء المراكشيين المسمى محمد بن هاشم الجَبَلي وكان حياً عند كتابة ابن الموقت لهذا الكلام .

نعم قيل في عام وفاته غيرُ ما ذكر ، فابْن القاضي في الجذوة قال عام أحدٍ أو ثلاثة وعشرين فصدّر بالمشهور وعقّب بالقول الذي يجعلها عام ٢٣ ، ونقل في نيل الابتهاج عن أبي زكرياء السرّاج أن وفاته كانت عام ٢٤ إلا أنه جعل مولده أيضاً سابقاً عن تاريخه المعروف وذلك سنة ٦٤٩ .

وهذا الخلاف في وفاته له مجال من النظر بالنسبة إلى ما تقدم عن تلميذه اللجائي من أنه درس بمدرسة العطارين وهذه المدرسة لم تؤسس إلا سنة ٢٣ على ما سبق لنا من ملاحظة والعلم عند الله .

المملكة العربية السعودية
وزارة المعارف
المكتبات المدرسية

ذكريات
مشاهير رجال المغرب

بقلم
عبد الله كنون

دار الكتاب اللبناني — دار الكتاب المصري
بيروت - لبنان — القاهرة ج م ع

طبع على مطابع دار الكتاب اللبناني
رأس النبع - بيروت - هاتف: ٩٥٨٢٠٠

الإمام إدريس

33

الإمام إدريس

العلويون وحقهم في الخلافة ، وقعة فخ ولجوء ادريس الاكبر الى المغرب ، مبايعة المغاربة له ، نفي شبه يوردها بعض المؤرخين ، عمل ادريس في توطيد الاسلام بالمغرب ، فتحه لتلمسان ، وفاته ، ولاية مولاه راشد الوصاية على العرش ، ولادة ادريس الازهر ، نشأته وتربيته ، مبايعته ، نهوضه باعباء الملك ، تنظيم الدولة بناء مدينة فاس ، مناقشة راي غريب في تاريخها جهاده ومآثره ، وفاته .

كان العلويون ، و هم يحاربون بني أمية ، يحتجّون بأنهم انتزعوا الخلافة منهم بغير حق، وأن سبيلهم إليها كان هو القوة لا غير ، أما الاستحقاق الشرعي بطريق السابقة والأفضلية في الإسلام ، فهو لآل النبي من بني هاشم ، حتى لو لم نَقُل بالارث والوصية . فلما قامت الدولة العباسية اعتبر العلويون أن بني عمهم خانوهم ، لأن الدعوة انما كانت للرّضَى من آل محمد ، وفعلاً فقد كان أهل البيت النبوي اجتمعوا بالمدينة عند اختلال أمر مروان بن محمد ، آخر خليفة من بني أمية ، وبايعوا لمحمد الملقب بالنفس الزكية ، وهو ابن

عبد الله الكامل بن الحسن المُثَنّى بن الحسن السِّبْط بن علي بن أبي طالب ، وحضر البيعة أبو جعفر بن محمدَ بن علي بن عبدالله بن عباس ، وهو الذي تولى الخلافة بعد ذلك باسم أبي جعفر المنصور .

ولهذا لما خرج محمد النفس الزكية بالحجاز على المنصور ، احتج له الامامان مالك وأبو حنيفة وقالا ان امامته أصح من إمامة أبي جعفر ، حتى انهما أوذيا في ذلك ، وكان الامام مالك يُفْتي بأن طلاق المُكْرَه لا يجوز ، مُورياً ببيعة الإكراه ، التي يأخذ العباسيون بها الناس ، وعلى ذلك تتابع خروج العلويين حتى كانت وقعة فَخّ بالقرب من مكة ، سنة تسع وستين ومائة في أيام موسى الهادي العباسي ، وكانت الكرّةُ فيها على العلويين ، فتفرقوا في الأمصار ، ومنهم ادريس بن عبد الله أخو محمد النفس الزكية ، الذي لجأ إلى المغرب .

وقصة لجوئه هذا طريفة ، ولعلها من إيحاء مولاه راشد المغربي الأصل ، الذي لم ير لسيده أنجى من أن يُبْعِد في غَرْب البلاد الإسلامية حيث يأمَنُ على نفسه ، ويُحتمل أن يجد المنعة والنصرة .

وهكذا نرى ادريس قد لحق بمصر ومعه راشد مولاه ، فعلم صاحب البريد بأمره ، وهو يومئذ واضح المسكين مولى صالح بن المنصور ، ولما لم ير فيه خطراً وأنه انما يطلب النجاة من الموت ، حمَله على البريد إلى المغرب الذي هو وِجْهتُه ، فلم ينتهِ حتى حلّ بمدينة وَلِيلي سنة ١٧٢ (١) ونزل على اسحاق بن محمد بن عبد الحميد زعيم أوْرَبَة من قبائل المغرب التي يقال انها قبيلةُ راشد مولى ادريس ، فهذه خطة مُحكَمة دبرها المولى المُخلِص لنجاة

---

(١) هي فلوبيليس *Volubilis* المدينة الرومانية الاثرية المسماة في لسان العامة قصر فرعون بقرب مدينة زرهون .

سيده والقيام بأمره ، ولذلك قلنا إنّ قصة لجوء ادريس إلى المغرب ربما كانت من ايحاء مولاه .

ويروي ابن أبي زَرْع حكاية أخرى في وصول ادريس إلى مصر وكيفية خروجه منها ، وهي حكاية مؤثرة ، وان كان طابَعُ الصنعة يلوح عليها واضحاً وخُلاصتها أن رجلاً من أهل مصر ، من أهل اليسار استضاف ادريس بعد أن عرفه ، وأقام عنده أياماً هو ومولاه راشد ، فنُذِر بهما الوالي ، فبعث إلى الرجل يُحذّره مغَبّة ايواء الخارجين على الدولة ولكنه يُؤمّنه هو وضَيْفه ، ويُؤجّل هذا الضيف ثلاثاً ليغادر مصر ويتجه حيث شاء . فأعدّ الرجل راحلتين له ولادريس وصنع زاداً يبلغهما إلى افريقية ، وقال لراشد اخرُجْ أنت مع القافلة ، وأخرج أنا وادريس على طريق لا تسلكه الرفاق وموعدنا مدينة بَرْقَة . وهناك ودّعهما المصري ، وتوجه ادريس ومولاه إلى القيروان فأقاما بها مدة ، ثم قصدا المغرب الأقصى ، وعمَد راشد إلى ادريس فألبسه مِدْرَعَةَ صوف خشنة وعمامة كذلك وصيّره كالخادم له يأمره وينهاه خوفاً عليه واحتياطاً مِنْ عدوه ، الأمر الذي يدل على تجدد الطلب في أثره ، فوصلا إلى مدينة تلمسان ، ومنها توجّها إلى طنجة وهي يومئذ قاعدة بلاد المغرب وأمّ مدنه ، فأقاما بها أياماً ولما لم يجد ادريس بها مراده خرج مع مولاه حتى انتهيا إلى وَليلي فنزل على كبيرها ابن عبد الحميد الأوْرابي كما قلنا ، فأقبل عليه وبالغ في إكرامه وبِرّه ، وعرّفه ادريس بشأنه وأفضى إليه بسره ، فوافقه على مراده ، وتولى خدمته والقيام بشؤونه .

ولم يلبث ابن عبد الحميد أن جمع عشيرته من أوْرَبة وعرّفهم بنسب ادريس وقرابته من النبي (ص) وقرر لهم فضله ودينه وعلمه ، واجتماع خصال الخيْر فيه ، ودعاهم إلى بيعته ، فبايعوه بمدينة وَليلي يوم الجمعة ٤ رمضان المعظّم سنة ١٧٢ وكانت أوْربة يومئذ من أعظم قبائل المغرب وأكثرها عدداً ، فقامت بدعوة ادريس ودعت غيرها من القبائل المغربية إلى نصرته والدخول في طاعته ، فاستجاب له أكثر القبائل ، وتواردت عليه الوفود مُعْلِنةً ببيعته مُؤيِّدة له ، فقويت جُموعه وتمكّن سلطانه ، فجَيَّشَ الجيوش وخرج غازياً يضرب في بلاد المغرب طولا وعرضاً ، ويملك منها ما بقي غير خاضع له . وكانت دعوة الإسلام ما زالت لم تتمكن في كثير من القبائل ، وبعضُ القبائل قد فتنتها دعوات الخوارج وأهل الابتداع ، فعمل ادريس على ابلاغ الدعوة الإسلامية خالصةً من الزيغ والانحراف إلى الجميع ، واستَنْقَذ الذين استهوتهم البِدعُ والاهواءُ من الضلال ، ووحّد كلمة المغرب وقلوب أهله من يومئذ على مذهب السنة والجماعة ، فلمْ يمِلْ عنه بعد ذلك حتى يوم الناس هذا .

ولعلنا في غير حاجة إلى القول بأن ما زعمه بعضُ المؤرخين من أن ابن عبد الحميد كان مُعتزليا شيعياً ، وأن أوْرَبة قبيلته وجُلّ قبائل المغرب كانت على مذهب الخوارج ، وأن ادريس وفّق بين نزعات القوم وقوّى الشيعيّة وأقام دولته على أساسها ، هو من الكلام المُلقى على عَواهِنه والذي لا يثْبت عند التحقيق . ونعتقد أن الذي حملهم على ذلك هو ما رَأوهُ من نجاح أمر ادريس وانتشار دعوته وتمهيد سلطانه ، فجعلوا كلّ من مرّ به أو لَقِيَه

ابتداءً من دخوله إلى مصر ، شيعياً ينتصر لآل البيت ، حتى صاحب البريد بها ، وهو مولى للعباسيين ، وحتى كبير قبيلة أَوْرَبَة التي قامت بدعوته في المغرب ، كأنه لو لم يكن شيعياً لما قامت لادريس قائمة .

والحق أن قضية ادريس ، وتَعْنِي قضية العلويين ، بملابساتها المأسوية وقوة حجتها وأهمية من يُناصرونها من رجال العلم والدين كالامامين أبي حنيفة ومالك بن أنس ، هي في غُنْيَةٍ عن أن نلتمس لها الأسباب والعلل في شيعية كل من تطوع لخدمتها وتحمَّس لنصرتها .. أمَّا خارجيَّةُ القبائل المغربية فإنها كانت فِتْنَةً كما عبَّرْنا ، أكثرَ منها مذهباً ونزعة سياسية يأخذ بها المغاربة ، وإلاّ لما استطاع ادريس ان يُحوّلهم في مدة قليلة من الخارجية إلى الشيعية كما يزعم أولئك المؤرخون ، وهو الأمر الذي لم يُحقّقْه جدّه الأعلى علي بن أبي طالب والزعماء العلويون من بعده .

وإذا ثبت التزيّد في هذا القول وعدمُ صحته نظراً ، فإن الزعم بأن ادريس هو الذي تحول إلى مذهب أنصاره المغاربة كما ادَّعى البَكْرِي ، هو أكثرُ بطلاناً وأبعدُ من التحقيق . فإن ادريس كان من أئمة آل البيت وصاحب دعوة ، وعلَماً من أعلام المِلَّة والدين ، وقد تحمَّل في سبيل ايمانه بدعوته ودعوة أسلافه ونجاحِها أعظم التضحيات ، فكيف يتحوَّلُ عنها إلى ضدها في المكان الذي يأمل أن يبُثَّها فيه ، وتنتشر منه . وكيف يكون تحوُّلُه على يد أناس سُذَّج قليلي المعرفة ، حديثي عهد بالإسلام . لا جرمَ أن مَن زعم ذلك لم يُقدّر مُهِمَّة ادريس ، ولم يعرف ما كان عليه القوم من جاهلية جهلاء .

وباجماع المؤرخين وتواتر الرواية على ألسنة الجماهير الشعبية من أهل المغرب يعتبر ادريس أحد الفاتحين الذين نشروا الإسلام في هذه البلاد ، ووطدوا سلطانه ورفعوا رايته ، كعُقبة بن نافع وموسى بن نُصير بل انه في الرواية الشعبية يُعتبر الفاتح الوحيد ، وذلك قطعاً لأنه هو الذي تمّم عملَ سابقيه وأخضع ما بقي من قبائل المغرب خارجاً على الطاعة وأدخلهم في حظيرة الإسلام وقطع دابر الكفر والضلال ، وجمعَ الشمل ورتَق الفتْق ، ودعم كيان الوطن فلم ينهَرْ بعده ابداً .

وبعد أن فرغ ادريس من تمهيد المغرب الأقصى ، توجّه نحو مدينة تلمسان ، وهي باب المغرب الأوسط ، فخرج إليه واليها محمد بن خَرَز المَغْراوي مُستأمناً ومُبايعاً له ، فدخلها ونظر في أحوالها ، وبنى بها مسجداً كبيراً ، ثم عاد إلى وَليلي عاصمة مملكته حيث قُدر له أن يموت مسموماً بتدبير من هرون الرشيد فيما يقال ، لأنه لمّا بلغه خبره وتمكّنه وظهوره وغزْوه للمغرب الأوسط ، خشي من استفحال أمره وتملّكه لافريقية وتهديده لدولته فلم ير وسيلةً للتخلّص منه إلا أن يبعث إليه من يحتال في الاتصال به واغتياله ، من غير أن يتورّط معه في حرب لا يدري ما تكون نتيجتها .

وكانت وفاة ادريس بن عبدالله ، ويلقب بالأكبر ، في مهلّ ربيع الآخر سنة ١٧٧ ، فمدة امامته رحمه الله خمس سنوات وستة أشهر .

وقد نشأت عن وفاته أزمة حكم حادّة ، لو لم يدبرها راشد بحكمة وحسن

نظر لكانت نهاية الدولة الادريسية يومئذ ، فإن ادريس لم يُخلّفْ عقباً غير حملْ بجارية مغربية تسمى كَنْزَة ، وهي في الشهر السابع من حَملْها ، فجمع راشد روساء القبائل ووجوه الناس وقال لهم إنكم قمتم بدعوة آل البيت ونُصْرتِهم فإن رأيتم أن تتربّصوا بهذه الجارية حتى تضع حملها فإن كان ذكراً أحسنّا تربيته ، فإذا بلغ مبلغ الرجال بايعناه وفاءً لوالده وتمسكاً بدعوته ، وان كان انثى نظرتم لأنفسكم ، فاقتنعوا بكلامه وقالوا له ما لنا مَحِيد عن رأيك وحسن تدبيرك .

وتولى راشد من يومئذ الوصاية على العرش ، ولم تلبث كنزة أن وضعت مولوداً ذكراً أشبهَ الناس بأبيه ، وذلك في يوم الاثنين ٣ رجب ١٧٧، أي بعد شهرين من حدوث الأزمة ، فأخرجه راشد إلى الناس حتى نظروا إليه فقالوا هذا ادريس بعينه لم يمتْ ، فسماه راشد ادريس وسَهِر على تربيته وقام بأمره أحسن قيام .

وظهرت نجابة ادريس منذ الصغر ، فحَفِظ القرآن وهو ابن ثماني سنوات وتعلم الفقه والعربية ، وروى الشعر وأيام العرب وسير الملوك ، وتدرّب على ركوب الخيل والرمي بالسهام وغير ذلك من مؤهلات الرياسة وخصال الملك ، وأدركته نباهة أصله وكرم أبوّته ، فسرعان ما يفَعَ وترعرَعَ وأصبح مستعداً للاضطلاع بخلافة أبيه وتولي الأمر بنفسه ، فاجتمع عليه القوم وبايعوه في مسجد وَليلي يوم الجمعة غرة ربيع الأول عام ثمانية وثمانين ومائة وله من العمر احدى عشرة سنة .

وقيل ان ابراهيم بن الأغلب والي افريقية دسّ إلى راشد مَن قتله فأسرع القوم إلى مبايعة ادريس اتقاء للفتنة ، ومعاملة لابن الأغلب بنقيض قَصْدِهِ إذْ كان يريد تفريقَ الكلمة وقَطْعَ دعوة الأدارسة .

ولما تمت له البيعة صعد المنبر وخطب الناس فقال :

« الحمد لله أحمده ، وأستغفره وأستعين به ، وأتوكَّلُ عليه ، وأعوذ به من شر نفسي ومن شر كل ذي شر . وأشهد أن لا اله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، المبعوث إلى الثقَلَيْن بشيراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله باذنه وسراجاً منيرا ، صلى الله عليه وعلى آل بيته الطاهرين ، الذين أذهب الله عنهم الرِّجْسَ وطهَّرهم تطهيرا . أيها الناس : انا قد وَلِينا هذا الأمر ، الذي يُضاعَف للمحسن فيه الأجر ، وللمسيء الوِزْر ، ونحن والحمد لله على قصْدٍ جميل ، فلا تمدوا الأعناق إلى غيرنا ، فإن الذي تطلبونه من إقامة الحق ، انما تجدونه عندنا » ، فعجب الناس من فصاحته وقوة جأشه وأيقنوا أنه أحقّ بها وأهلها .

والحقيقة أن هذه الخطبة على قصرها تُبيّن مَدَى فعالية التربية الحسنة التي قام بها راشد لادريس ، اعداداً للمهمة الكبرى التي تنتظره ، وتدل على بُعْد نظر ادريس وإلمامه بالظروف التي بويع فيها وطبيعة الأحداث التي تواجِهه ، فهو لم يغترَّ بنصرة القوم له ، والحماس الذي أظهروه في بيعته ، وانما اعتمد في ولايته الحِسْبة وتوخّى العدل وطلَب الثواب من الله عز وجل ، ثم ألْمَعَ إلى خصومه وما يدبرونه له من المكائد ، فأنذر من يُصغي لهم وينخدع بكلامهم

أنّ مرادهم هو التسلط والقهر ، واشاعة الفتنة ، وأما الحق والعدل وحكم الشرع فإنهم بمعْزِل عنه ، ولا يقيمه إلا أهل البيت الذين ثاروا من أجله وأراقوا دماءهم الزكية في سبيله .

فما أشبه هذه الخطبة في اختصارها وجمعها بخطبة أبي بكر الصديق التي خطب بها عند مبايعته .. وهي إن تكُن من كلامه في هذه السنّ المبكرة فذاك منتهى النبوغ ، وان تكن مما خطب به بعد تقدمه في السن واستتباب الأمر له ، وانما المؤرخون هم الذين جعلوها خطبته الأولى فذاك منتهى التوفيق .

وأظهر ادريس على مرّ الأيام مقدرةً تامة على تسيير الأمور والنهوض بأعباء الملك ، مستعيناً بالرؤساء والأعيان من رجال القبائل وأنصار أبيه ، إلا مَن انحرف عنه ومال إلى دعاة العباسيين وولاتهم بافريقية فإنه كان يَحذَرُه ويُنزلُه منزلته ، وربما فتَك به أخذاً بالاحتياط وحسْماً لمادّة الخلاف كما فعل بابن عبد الحميد الأوْربي القائم بأمر أبيه لمّا أحسّ بانقلابه عليه ؛ وعُدّ ذلك من حزْمه وصرامته .

وكان ابراهيم بن الأغلب والي العباسيين على افريقية لا يفتأ يثير الفتن ويدبر المكائد للدولة المغربية الفتية ، فبعد قتله لراشد جعَلَ وَكْدَه قتْلَ ادريس أو تشتيت شمل القبائل المغربية ، المجتمعة عليه وهو القائل في شعرٍ له :

ألم ترني بالكيْد أزْدَيتُ راشداً ... وإني بأخرْى لابن ادريس راصِدُ
تناوَلَهُ عزْمي على بُعْد داره ... بمحتُومة يحظَى بها من يُكابِدُ

وكان بَهْلول بن عبد الواحد المَضْغَري من الرؤساء الذين استمالهم ابن الأغلب واستهواهم بالمال حتى بايع هرون الرشيد واعتزل ادريس في قومه مَضْغَرة فداراه ادريس حتى راجع طاعته وكان مما كتب به إليه هذه الأبيات :

أبَهْلُولُ قد حمّلت نفسك خطة	تبدّلتَ فيها ضلّةً برَشاد
أضلّك ابراهيمُ عن بعد داره	فأصبحتَ منقاداً بغير قياد
كأنك لم تسمعْ بمكر ابن أغلبٍ	وَقِدْماً رمى بالكيد كُلَّ بلاد

وفي الواقع أن المصاعب التي كان يخلقها ابن الأغلب لادريس بالتضْريب بين رؤساء القبائل المغربية وإثارة الفتن الداخلية ، كبّدته مشاقّ عظيمة ومجهودات كبيرة للمحافظة على الاستقرار ودوام الدولة ، ودلّت من جهة أخرى على حَصافته السياسية وقوة عزيمته ، على أن التِفافَ المغاربة حوله وصِدْق محبتهم له وتفانيهم في نصرته مما كان له أعظم الأثر في احباط دسائس ابن الأغلب وعدم نجاح مساعيه .

وضبط ادريس أمرَ المغرب وعدل في الرعية وأحسن السياسة ، ووصل الوفود وعظّم الرؤساء والأشياخ ، فأحبه الناس وتعلقت القلوب به ، وتوطد ملكه وقويَ سلطانه وكثرت جيوشه وأتباعه ، وقصد حضرته الأكابر والأعيان من كل قبيل . وكان من جملة من وفد عليه جموع من عرب افريقية والأندلس نحو خمسمائة فارس من قَيْس والأزْد ومَذْحج ويَحْصُب والصَّدِف وغيرهم فسُرَّ بوفَادتهم وأجزل صِلتَهم وأدنى منزلتَهم ، فطَعَّم بهم جهاز الدولة

الذي كان في حاجة إلى مثل هذه العناصر لتقويته واستكمال تعرْيبه ، فاستوزر منهم عُمَيْر بن مصعَب الأزْدي المعروف بالمَلْجُوم لِضَرْبة أصيب بها في بعض الحروب على خرطومه، وهو جدّ بني الملجوم الذين كان لهم بفاس فيما بعد شهرة عظيمة بالعلم والـدين ، واستقضى منهم عامرَ بن محمد بن سعيد القيْسي ، وكان من أهل الورع والفقه والدين، سمِع من مالك بن أنس وسفيان الثَّوْري وروى عنهما كثيراً . ومـن هنا بدأ مذهب أهـل الحجاز ينتشر في المغرب وفقه مالك بالخصوص ، لا سيما مع ما عُلِم مـن انتصاره للعلَويين ومَيْل هؤلاء إليه . وكذلك استكتب ادريس من وفود العرب أبا الحسن عبد الله ابن مالك الخزْرجي، فتمَّ له بذلك تجهيز الدولـة بإطار عـربي لا يقلُّ كفاءة ومقدرةً عن الذي يوجد في دولة الأغالبة بافريقية أو المَرْوَانيَّة بالأندلس .

وكان نزوع هذه الوفود العربية إلى ادريس عاملاً قوياً في دعم دولته وترجيح كفته على خصومه ، ودليلاً قاطعاً على استقرار حكم العلويين بالمغرب ، واستتباب أمره ، فلذلك مال ادريس إليهم وقدَّمهم لهذه المناصب السامية ، والمؤرخون يَعُدّون ذلك منابذة للمغاربة أهل البلاد ، وافتياتاً عليهم ، والأمر لا يَعْدُو أن يكون تدبيراً سياسياً يراد به صرف النظر إلى أول دولة علوية تنشأ في العالم الإسلامي بعد خلافة عليّ كرم الله وجهه، ويعلو شأنها ويعظم سلطانها ، من غير أن ينكر أحد ما كان للمغاربة من فضل في قيام هذه الدولة وحمايتها ، ولم يثبت عن ادريس أنه أبعد العنصر المغربي عن سياسة الدولـة وتولى أعمالها ، وتوظيف بضْعة أشخاص من العرب الوافدين عليه لا يعني

أبداً نفض يده من المغاربة الأصليين ، وانما هو في نظرنا استعانة بكفاءتهم على تعريب الجهاز الحكومي واعلان في الوقت نفسه عن الدولة الفتية التي قامت بدعوة العلويين واستحقت أن تَلْفت إليها الأنظار . ولهذا لم يحصل أي تمرد من المغاربة على هذه السياسة في أيام ادريس .

ولا يصح قطعاً أن يميل ادريس عن المغاربة الذين ناصروه وأيدوه وهم فوق ذلك أخواله وعشيرته الذين يجري دمهم في عروقه ، فهو في الحقيقة أول مغربي تبلورت فيه القومية العربية المغربية من وجهة النظر السلالية لامتزاج العنصرين فيه بالمصاهرة والولاء ، وهو لُحمة كلُحْمةِ النَّسَب ، كما في الحديث . فمراد ادريس من هذا التطعيم هو أن يلتحم العنصران ، ويصيرا أسرة واحدة ، وهو ما كان بعد ذلك ، فلا تجد في المغرب بيتاً لا يجري في عروق أبنائه الدم المغربي والعربي معاً ، ولقد تعرَّب المغاربة دماً وشعوراً حتى ان أقوى قبائلهم وأعظم ملوكهم ليضعون لأنفسهم مُشَجَّراتٍ تصل نسبهم بالأصول العربية ، أو بيت النبوة في بعض الأحيان ، وذلك إنما هو نتيجة سياسة ادريس هذه .

وضاقت بادريس وجيوشه عاصمة أبيه وَليلي ، ولم تعد ملائمة لتطور الدولة واتساع سلطانها ، ففكر في انشاء مدينة جديدة يجعلها عاصمته وينتقل إليها بديوانه وجيشه ورجال حكومته ، فخرج في جماعة من حاشيته يرتاد البقاع ويتخيَّر المواقع ، ولم يتوفق إلى المكان الصالح لبناء هذه المدينة إلا بعد عدة تجارب أخفقت كلها . وقيل ان الفضل في اختيار هذا المكان يرجع إلى وزيره

عُمَيْر بن مُصْعَب الذي أرسله ادريس بعدما أعياه الأمر ، فذهب يقُصّ الجهات ويرود الأماكن والتراب والمياه ، حتى وصل إلى المكان المطلوب وهو غَيْضَة بين جبلَيْن ملتفّة الأشجار مُطّردة العيون في طرف بسيط سايس على مقربة من الوادي الذي سيعرف باسم المدينة فيما بعد .

ورجع عمير إلى ادريس فأعلمه بالمكان الذي وقع عليه اختياره ، فرضيه ادريس ، وتملّكه وما حوله بالشراء مِنْ أصحابه ، وشرع في بناء مدينته التي أطلق عليها اسم مدينة فَاس في غرة ربيع الأول سنة ١٩٢ أي في نفس اليوم الذي بويع فيه قبل أربع سنوات . وسميت فاساً بفأس كبيرة وجدت عند حفر أساسها ، وكانت بحيث تلفت الأنظار ، طولها أربعة أشبار وعرضها شبر ، وزنتها ستون رطلاً فيما يقال ، فكثر التعجب منها ، وعرفت بها المدينة من يومئذ ، ويقال انه كانت هناك مدينة قديمة خربت قبل الإسلام تسمى ساف فسمّى ادريس مدينته باسمها هذا بعد قَلْبه .

وكان الذي اختطّ منها أولاً هو عُدْوة الأندلس الواقعة على الضفة اليمنى لوادي فاس وبنى بها المسجد المعروف بجامع الأشياخ ، ثم اختط عُدْوةَ القرويين على الضفة اليسرى للوادي ، وبنى بها جامع الأشراف وداره التي عُرفت بدار القَيْطُون ، والسوق وغيرها من المرافق ، وسوّغ للناس البناء وقال لهم من بنى موضعاً أو اغترسه قبل أن تُسوّر المدينة فهو له ، فبنى الناس واغترسوا كثيراً .

وهكذا نشأت مدينة فاس التي أصبحت منذ بنائها عاصمة المغرب وأهمّ

مدنه ومن كُبْرَيات حواضر العالم الإسلامي ذات التاريخ المجيد في العِلْم والمَدَنية .

ولما فرغ ادريس من بنائها وحضرت الجمعة الأولى خطب الناس ورفع يديه في آخر الخطبة فقال : « اللهم انك تعلم أني ما أردت ببناء هذه المدينة مباهاة ولا مفاخرة ، ولا رياء ولا سمعة ولا مكابرة ، وانما أردت أن تعبد بها ويتلى كتابك ، وتقام حدودك وشرائع دينك ، وسنة نبيك محمد صلى الله عليه وسلم ، ما بقيت الدنيا . اللهم وفق سكانها وقُطَّانها للخير وأعنهم عليه واكْفِهم مؤونة أعدائهم ، وأدرَّ عليهم الأرزاق ، وأغْمِدْ عنهم سيف الفتنة والشقاق انك على كل شيء قدير » .

وقد أثبت ادريس بهذا أنه رجل دولة من الطراز الأول ، فهو سياسي بارع وإداري محنك ، وصاحب سيف وقلم ، يحب العِمارة ويسعى في أسبابها من اقامة العدل ونشر الأمن وتعميم الرخاء ، فلم يزده ذلك إلا شهرة وبُعْدَ صيت ورِفْعة ذِكْر. وتتابع وصول الوفود إليه من افريقية والأندلس وغيرهما راغبين في الاقامة عنده والعيش في كنفه . وكان أكبر هذه الوفود هو وفد الأندلس من أهل رَبَض قرطبة الذين ثاروا على أميرها الحَكَم بن هشام الأموي فأجلاهم عنها ، وكانوا جمّاً غفيراً زهاء أربعة آلاف بيت ، فلما وفدوا على ادريس رحب بهم وأنزلهم من مدينة فاس بالعُدوة التي حملَتْ اسمهم فعُرفت بعُدوة الأندلس ، كما عُرفت العدوة الأخرى بعُدوة القَرَويين لنزول الوفود القادمين عليه من مدينة القيروان بها وكانوا ثلاثمائة بيت .

ومِن وفد أهل القيروان كانت السيدة أمّ البنين الفِهْرِيَّة التي بنت جامع القرويين بمالها الحلال الذي ورثته من أبيها ، وذلك في مدة حفيد ادريس يحيى بن محمد سنة ٢٤٥ فبارك الله في هذا المسجد حتى صار جامعة اسلامية عظيمة تشعّ بأنوار العلم والعرفان ، وهي اليوم أقدم جامعة في العالم كله .

ولم تزل مدينة فاس تنمو وتعظم ، وكلما تقدم بها الزمن أثبتت أنها مدينة المغرب العربي الأولى التي تحتضن حضارة الإسلام وعلمَه وأدبه في أقاليم الغرْب الإسلامي ، فهي إلى كونها مركز إشعاع فكري وثقافي بسبب وجود جامعة القرويين فيها ، مدينة الفنون والصنائع وملتقَى التجار ومختلف الأجناس من أهل المشرق وأوروبا والسوادين والصحراء، يتبادلون المصالح ويقتنون منها أنفس البضائع والطرف .

وهاك ما يقوله عبد الواحد المراكشي المؤرخ المعروف في وصفها وهو من أهل القرن السابع : « ومدينة فاس هي حاضرة المغرب في وقتنا هذا وموضع العلم منه ، اجتمع فيها علم القيروان وعلم قرطبة ، إذ كانت قرطبة حاضرة الأندلس كما كانت القيروان حاضرة المغرب ، فلما اضطرب أمر القيروان بعبَث العرب فيها ، واضطرب أمر قرطبة باختلاف بني أمية بعد موت ابن أبي عامر وابنه رحل من هذه وهذه من كان فيهما من العلماء والفضلاء من كل طبقة فراراً من الفتنة ، فنزل أكثرهم مدينة فاس ، فهي اليوم على غاية الحضارة . وأهلها في غاية الكَيْس ونهاية الظرف . ولغتهم أفصح اللغات في ذلك الاقليم . وما زِلْتُ أسمع المشائخ يدعونها بغداد المغرب وبحق ما قالوا

ذلك ، فإنه ليس بالمغرب شيء من أنواع الظرف واللباقة في كل معنى إلا وهو منسوب إليها وموجود فيها ومأخوذ منها ، لا يدفع هذا القول أحد من أهل المغرب .. وما أظن في الدنيا مدينة كمدينة فاس أكثر مرافق وأوسع معايش وأخصب جهات ، وذلك أنها مدينة يحفّها الماء والشجر من جميع جهاتها وتتخلل الأنهار أكثر دورها زائداً على نحو من أربعين عيْناً ينغلق عليها أبوابها ويحيط بها سورها ، وفي داخلها وتحت سورها نحو من ثلاثمائة طاحونة تطحن بالماء ، ولا أعلم بالمغرب مدينة لا تحتاج إلى شيء يُجلب إليها من غيرها إلا ما كان من العطر الهندي[1] سوى مدينة فاس هذه ، فإنها لا تحتاج إلى مدينة في شيء مما تدعو إليه الضرورة ، بل هي تُوسِع البلاد مرافق وتملؤها خيراً » .

ويقول كاتب أوروبي هو روجي لوتورنو في كتابه (فاس في عصر المرينيين[2]) وهو العصر الذي استكملت فيه نموها وازدِهارَها :

« لم تكن فاس يومها عاصمة مملكة المرينيين المستقرة فحسب ، بل كانت مركزاً مهماً للتجارة تربطها المصالح التجارية بالأقطار الأوروبية الواقعة على البحر الأبيض المتوسط ، وبلاد الشرق العربي وبلاد السودان فيما وراء الصحراء الكبرى . وكانت بالاضافة إلى ذلك مدينة علم ودين ، حيث كان يتوفر عدد كبير من الطلاب على دراسة اللغة والعلوم الإسلامية ، وحيث كان الكُتّاب يُبَرّزون في نظم الشعر وتدوين التاريخ والتأليف في الدين والشريعة ، وحيث

(١) يعني العود الهندي المستعمل في البخور .

(٢) ترجمة الدكتور نقولا زيادة .

كان يقوم المتصوفة إلى جانب علماء السنة ، بالحفاظ على شُعْلة قوية للحياة الروحية . ودليلنا على أن مدينة فاس لم تكن مدينة بازدهارها للمرينيين وحدهم ، هو ما كان عليه حالها في فترة الانحطاط الطويلة التي مرت بها دولتهم ، وحتى في أيام بني وطاس الضعفاء ، الذين خلفوا بني مرين ، والذين قُدّر لهم أن يقتصر سلطانهم على الأجزاء الشمالية من المغرب فقط ، فإن مدينة فاس لم تهن ، بل انها لم تتوقف عن الازدهار . والوصف الذي خلّفه لنا مؤلفو القرن العاشر (السادس عشر) المتفاوتون فيما بينهم مثل ليُون الافريقي (الْحَسَن الْوَزّان) ومارْمُول والأُسْقُف كليناردُوس يقدم لنا على ذلك الدليل الذي لا سبيل إلى انكاره » .

هذه فاس التي وضع لَبِنَتَها الأولى ادريس الأزهر كما يُلقّب ، فرْقاً بينه وبين أبيه ، ادريس الأكبر . وهذه قصة بنائها بما صاحبها من التفكير والتنفيذ ، حسبما رواها المؤرخون في شبه إجماع ، وتناقله الخلف عن السلف ، وجرى حتى على ألْسنةِ العامة من سكان المدينة وأهل المغرب قاطبة . ولكن المستشرق الفرنسي المعروف ليفي بروفنسال طلع علينا برأي غريب يقول ان مؤسس فاس وباني خطّتها الأولى أعني عُدوة الأندلس هو ادريس الأكبر ، وأن ابنه ادريس الأزهر إنما بنى الخطة الثانية وهي عُدوة القرويين وكَمُلَتْ المدينة بذلك بعد نحو عشرين سنة من ابتداء بنائها في عهد أبيه ، والحجة الوحيدة التي يقدمها على ذلك هي وجود قطعتين من العملة مضروبتين بفاس تحملان تاريخاً سابقاً للتاريخ الذي تقول الرواية إن ادريس الأزهر بنى فيه المدينة .. القطعة الأولى درهم محفوظ بالمكتبة الوطنية في باريس وهو بتاريخ ١٨٩ أي قبل التاريخ المتواتر لبناء فاس بثلاث سنوات . والثانية درهم كذلك ، محفوظ بمتحف مدينة خاركوف وتاريخه ١٨٥ أي في حياة ادريس الأكبر . وهـذا

الدليل الذي ينوه به ليفي بروفنسال لأنه دليل مادي كما يقول يمكن أن ينظر فيه باحتمال تزْييفه أو وقوع الغلط فيه ، فإنه إذا كان الغلط في مثل هذه الأشياء يقع في عصرنا هذا – وما قضية طابع البريد البريطاني المغلوط ببعيدة عنا – فأحرى في ذلك العصر البعيد . لا سيما والمستشرق الكبير نفسه يذكر أن هناك قطعاً أخرى من العملة ضربت في وَلِيلي وتُدْغة باسم ادريس الأزهر وتحمل التواريخ المتتابعة لسنوات ١٨١ و ١٨٢ و ١٨٣ أي في غير فاس التي ضربت فيها القطعتان السابقتان زعماً . ثم يشير إلى أن ما يوجد من العملة المضروبة باسمه بعد تأسيسه لمدينة فاس هي أربعة دراهم ضربت في مدينة العالية (١) بتاريخ ٢٠٤ و ٢٠٧ و ٢٠٨ و٢١٠ ذكرها لافوا *Lavoix* في كتابه عن العملة الإسلامية الموجودة بالمكتبة الوطنية في باريس . وزاد قائلاً انه هو شخصياً يملك منها أربعة تحمل تواريخ ١٩٨ و ٢٠٦ و ٢٠٩ و ٢١٤ واشتبه في هذا الأخير لأنه يحمل تاريخاً متأخراً عن وفاة صاحبه بسنة ، إذ من المعلوم أن ادريس الأزهر توفي سنة ٢١٣ .

فبهذا الاشتباه ننظر نحن في القطعتين المزعومتين ولا نقبل أن تردّ بهما أقوال المؤرخين المضبوطة المبنية على كثير من التحري والمحاولات لبناء مدينة فاس من طرف ادريس الأزهر .

واذن فابتداء ضرب الدراهم بفاس كان في أيام ادريس الأزهر ، بعد التاريخ المعروف لبنائها ، ثم هذه الدراهم في الأول انما كانت تحمل اسم العالية ، التي يراد بها عُدوةُ الأندلس ، أي خطة ادريس الأكبر فيما ادّعي أوْ فَاسُ الدّرهمَيْن اللذين جعلا دليلاً مادياً على سبق بناء المدينة عن تاريخها عندنا ، فلو كان هذا صحيحاً لاستمر ذكر اسم فاس في هذه الدراهم الجديدة .

وأما الدراهم التي ضربت في وَلِيلي وتُدْغة سنة ١٨١ و ١٨٢ و ١٨٣

---

(١) يراد بالعالية عدوة الاندلس ، فقد كان يطلق على كل عدوة مدينة ولم تعرف كل منهما بالاندلس والقرويين الا بعد استيطان مهاجرة الاندلس والقيروان فيهما .

فهي حجة ناطقة بأن فاس لم يكن لها وجود في هذه التواريخ لا باسمها هذا ولا باسم جزئها الذي هو العالية ، وإلا لوقع الضرب فيها .

بقيت بعض النقول التي استظهر بها صاحب هذا الرأي ، وهي عبارات وردت في تواريخ لم يكن وكدها ذكر فاس ولا التأريخ لها ، وانما جاءت عرضاً في الكلام على دولة الأدارسة أو المغرب وأصحابها ليسوا من المغاربة ، وبعضهم كالبكري معروف بعدم تثبته فيما يتحدث به عن الأدارسة[1] فهي بهذه الصفة لا تقاوم النصوص التاريخية المفصلة التي كتبها المؤرخون المختصون من أهل البلاد ، وأهل مكة كما يقولون أدرى بشعابها .

* * *

هذا ولما استقر ادريس بعاصمته الجديدة هو وحاشيته وأرباب دولته أقام بها إلى سنة ١٩٧ ، فخرج غازياً بلاد المصامدة أعني إقليم سوس فانتهى إليها واستولى عليها ودخل مدينة نَفِيس ومدينة أغْمات وعاد إلى فاس فأقام بها إلى سنة ١٩٩ فخرج في المحرم منها برسم غزو قبائل نَفْزَة من أهل المغرب الأوسط ومن بقي هناك على مذهب الخوارج فسار حتى غلب عليهم ودخل مدينة تلمسان فأقام بها يُدبّر أمرها وأمر ما إليها من الأعمال ثلاث سنوات ، ثم رجع إلى فاس فلم يخرج منها حتى توفي . وقد انتظم له ملك المغرب الأقصى والأوسط من وادي سوس إلى وادي شَلِف ، وقطع منه دعـــوة العباسيين كما فعل عبد الرحمن الداخل في الأندلس ، وأهم من ذلك أنه وحّد كلمته واستأصل شأفة الكفر والزندقة والخروج من بين المغاربة ، فأتمّ عمل والده في ذلك واستحق مثله الوصف بالإمامة ، ثم زاد على ذلك أنه قَعّـــد حاضرة فاس ووطّد أركان الدولة واشرك العنصر العربي في تدبير الشؤون وإدارة دفّة الحكم، فكان لذلك أحسن الأثر في إكمال تعريب المغرب وإلحاقه بالركب الحضاري العربي الإسلامي الذي كان يتعثّر في طريق اللّحاق به .

وفي ثاني جمادى الآخرة سنة ٢١٣ توفي رحمه الله شَرِقاً بحبّة عِنَب

(١) بل بمعاداته لهم حتى انه يطعن في نسبهم .

وعمره نحو ستّ وثلاثين سنة ، ودفن بمسجده بازاء الحائط الشرقي منه قاله ابن خلدون :

ومن محاسن ما يروى من جهاده وشجاعته ما حكاه داود بن القاسم بن جعفر الأوْرَبي قال : « شهدت مع ادريس بن ادريس بعض غزواته للخوارج الصُّفْرِيَّة من البربر فلقيناهم وهم ثلاثة أضعافنا . فلما تراءى الجمعان نزل ادريس فتوضأ وصلى ركعتين ودعا الله تعالى ، ثم ركب فرسه وتقدم للقتال ، فقاتلناهم قتالاً شديداً، فكان ادريس يضرب في هذا الجانب مرة، ثم يكرّ في الجانب الثاني ، فلم يزل كذلك حتى ارتفع النهار ، فرجع إلى رايته ، فوقف بازائها والناس يقاتلون بين يديه ، فطفقت أنظر إليه وأديم الالتفاتَ نحوه وهو تحت البنود يحرض الناس ويشجعهم ، فأعجبني ما رأيته من شجاعته وقوة بأسه . فالتفتَ نحوي وقال : يا داود ما لي أراك تديم النظر إليّ . قلت أيها الإمام انه أعجبني منك خصال لم أرها في غيرك . قال وما هي . قلت أولها ما أراه من حسنك وجمالك وثبات قلبك وطلاقة وجهك ، وما خُصِصْتَ به من البشر عند لقاء عدوك . قال ذلك بركة جدنا صلى الله عليه وسلم ودعاؤه لنا وصلاته علينا ، وإراثة عن أبينا علي بن أبي طالب .

قلت أيها الإمام : أراك تبصق بصاقاً مجتمعاً وأنا أطلب قليل الرّيق في فمي فلا أجده . قال يا داود : ذلك لاجتماع عقلي ورباطة جأشي عند الحرب ، وذهاب عقلك . وعدم الريق من فيك لطيش لبك وافتراق فكرك ولما خامرك من الرعب . قال داود : وأنا أتعجب أيضاً من كثرة تقلبك في سرجك وقلة قرارك في موضعك . قال : ذلك مني زَعَمْ للقتال وعزم وصرامة ، وهو أحسن في الحرب . فلا تظنه رُعْباً » .

وأنشأ يقول :

أليس أبونا هاشم شَدَّ أزْرَهُ ... وأوصى بنيه بالطّعان وبالضربِ
فلسنا نملّ الحربَ حتى تملّنا ... ولا نشتكي ممَّا يؤول إلى النصْبِ

المملكة المغربية الشريفة
وزارة المعارف
المكتبات المدرسية

ذكريات

مشاهير رجال المغرب

بقلم

عبد الله كنون

دار الكتاب اللبناني — دار الكتاب المصري
بيروت - لبنان القاهرة ج م ع

34

أبو عمران الفاسي

وزارة المعارف المكتبات المدرسية

طبع على مطابع دار الكتاب اللبناني
ماثر الشيخ - بيروت هاتف: ٢٥٨٧٠٠

ابو عمران الفاسي

أحد رجال العلم والاصلاح، بيته وأوليته ، فاس وطلبه للعلم بها . رحلته ومشائخه ، عودته إلى المغرب واستقراره في القيروان ، لماذا أزعج عن فاس ، شهرته والثناء عليه ، متانة دينه ، الآخذون عنه ، اتصال أمير صنهاجة به ، وما نشأ عن ذلك من قيام دولة المرابطين ، تآليفه ، جوابه عن أسئلة قاضي دانية ، دوره في الفتوى ، بعض فتاويه حديث من طريقه ، رحلة ثانية ، إيابه من رحلته ثم موته ، وما قاله عند موته .

هذا اسم من ألمع الأسماء في تاريخ المغرب العلمي والسياسي على السواء . فصاحبه من أعلام الفقه والحديث والدراسات الإسلامية العليا . وهو كذلك من رجال الاصلاح والتوجيه والمشاركة في الأحداث العامة ، حتى ان له يداً في قيام دولة المرابطين وصِبْغتها الدينية المعروفة ، وهو موسى بن عيسى بن أبي حاج ، واسمه يَحُجّ الغَفَجُومي نسبة إلى غَفَجُوم بفتح الغين والفاء ، فَخِذ من قبيلة زِنَاتة الشهيرة ، ولكنه لا يُعرف بهذه النسبة ، وانما يعرف بالفاسي نسبة إلى مدينة فاس التي سكنها سلفه ، وكان لهم بها شهرة ونباهة ، ولا شك أنه انما عرف بذلك في القيروان عند استيطانه بها . أما في فاس فإن بيتهم كان يعرف ببني أبي حاجّ، وإليهم ينسب درب بُوحَاجّ في حيّ الطَّالِعَة

من المدينة المذكورة .

قال في كتاب بيوتات فـاس المجهول المؤلف : « ومنهم بيت بني أبي حاجّ .. بيت حسب وثروة وفقه وعلم وعدالة ، ولهم زُقاق بفاس يقال لـه دَرْب أبي حاجّ . منهم الفقيه الإمام موسى بن أبي حاجّ .. المعروف بأبي عِمْران الفاسي » ولا نعرف عن نشأته شيئاً إلا أنه ولد سنة ٣٦٨ فيما نُقل عن ابن عبد البرّ ، وقال أبو عَمْرو الدّاني سنة ٣٦٥ وهو الموافق لما في المدارك والدّيباج من أنه مات سنة ٤٣٠ وهو ابن ٦٥ سنة .

ولا شك أنه درس أولاً ببلدة فاس فقد كانت مركزاً من مراكز العلم والفقه وما تزال قريبة العهد بمثل درّاس بن اسمعيل ، وأبي جيدة اليزناسني ، ناهيك بأن ابن أبي زيد القيرواني رحل إليها لزيـارة شيخه دراس .. فمدينة تحتوي على علَمَيْن من أعلام الفقه كهذين الشخصيتين الكبيرتين في الوقت الذي ولد فيه أبو عمران ، وقبله بقليل لا بد أن تكون وسطاً علمياً مزدهراً ومثابة للعديد من رجال الفقه والدين .

وبعد أن صلُب عُوده واشتد ساعده طمحت نفسه إلى الرحلة والأخذ عن مشائخ العلم ذوي الشهرة الكبيرة في العالم الإسلامي ، فرحل إلى القيروان وتفقه فيها على أبي الحسن القابسي وسمع من أبي بكر الزَّوِيلْي وعلي بن أحمد اللَّواتي السوسي ، ثم رحل إلى قرطبة فقرأ على أبي محمد الأصيلي وسمع من أبي عثمان بن نصْر وعبد الوارث بن سُفْيان وأحمد بن قاسم وغيرهم .

ورحل إلى المشرق فحج حِجَجاً كثيرة بمعنى أنه أقام فيه سنوات عديدة ، ودخل العراق فسمع من أبي الفتح بن أبي الفَوارس وأبي الحسن بن ابراهيم المُسْتَمْلي وأبي الحسن بن الخَضِر وأبي أحمد الفَرَضي وغيرهم ، ودرس الأصول على القاضي أبي بكر البَاقِلاَّني ، وكان يُعجِبه حفظه ويقول له لو اجتمعت في مدرستي أنت وعبد الوهاب بن نصر وكان إذ ذاك في الموصل لاجتمع عندي علمُ مالك ، أنت تحفظه وهو ينظره أي يُعلّلهُ وفي روايــة ينصرُه بالصاد أي يحتج له . والقاضي عبد الوهاب من أعلام مذهب مالك من البغداديين كما هو معلوم .

وكان دخوله إلى بغداد سنة ٣٩٩ وقد رجع منها إلى مكة ، وكان سمع بها من أبي ذَرّ الهَرَوِي ، وتمكنت المودة بينهما فوجده بسراة بني شَبَابَة خارج مكة وأراد أن يحقق بعض روايته عنه فطلب من خازنه أن يمكنه من كتبه فمنعه ، فبحكم دالّتِه على أبي ذَرّ غلبت الخازن عليها وأخذها دون رأيه، فقامت على أبي ذرّ من ذلك القيامة وأغلظ له في الكلام حتّى فسد ما بينهما، وبسبب ذلك ترك أبو عمران أن يُسميه فيما يرويه عنه وكان يُكنّيه ويقول سمعت أبا عيسى .

وممن سمع منهم بالحجاز أيضاً أبو الحسن بن فِراس وأبو القاسم السّقَطي وبمصر أبو الحسن بن أبي جِدّار اخذ عنه القراءات ، وأحمد بن ثَوْر القاضي وعبد الوهاب بن مُنير وغيرهم .

وبعد هذه الرحلة العلمية الواسعة عاد إلى القيروان واستوطنها فيما يقول مؤرخوه ، وذكر حاتم بن محمد أنـه لَقِيَه بالقيروان في رحلته إليها سنة ٤٠٢ ، وبذلك يظهر أنه لم يعد إلى بلده فاس بعد رحلته .

ولكنا نجد في كتاب بُيوتات فاس الذي تقدمت الاشارة إليه قولَه عنه « كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وبسبب ذلك أخرجه من فاس الطّغاة من أهْلِها العاملين عليها لِمَغْرَاوَة فاستقر بالقيروان إلى أن توفي » فهذه العبارة ذات أهمية كبيرة في معرفة السبب الذي هجَر من أجله موطنه الأصلي ومَسْقِط رأسه واستوطن القيروان .

وإذا تذكرنا الظروف السياسية وفوضى الحكم التي كان المغرب يخضع لها آنئذ واضطراب حبْل الأمن وتطاول جيران المغرب إلى الاستيلاء عليه ، عذَرْنا مُترجَمنا في الهجرة منه إلى القيروان واختيارها دار مُقام لا سيما مع التحرّش به ومَنْعه من أداء مُهِمّته ، التي هي مُهِمّة كل عالم ديني ، في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . لكن هذا فيما نظن لم يكن قبل رحلته العلمية وتَمَلّيه من الروايه ورسوخ قَدَمِه في الفقه واتّجاه أنظار الناس إليه وسمَاعِهم لقوله ، إن دراسته الأولى بفاس لم تكن كافية للتصدر والأمر والنهي ، ورحلته أولاً إلى القيروان ثم إلى قرطبة وبعد ذلك إلى المشرق قد استغرقت زمناً طويلاً من حياته ، خصوصاً وهو قد أقام بالمشرق عدة سنوات كما مرّ بنا آنفاً وحج حَجّات متكررة ، فبحكم ذلك يكون قد خرج من بلده في عنفوان شبابه وطراوة إهابه ، وهو لا يقصد إلا طلب العلم وزيادة

المعرفة، وليست حاله حينئذ مما يجعله آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر ولا مما يدفع بالطغاة من أهل بلده إلى إخْراجه منها .

نعم لما عاد من رحلته الطويلة وقد امتلأ وِعاؤه علماً وطارت سمعته في الأقطار وأقبل الناس عليه يأخذون عنه ويسمعون منه ويخدمونه ويُجِلّون قدره حينئذ ضاق الطغاة به ذرْعاً ولم يقبلوا انكاره عليهم فاضطهدوه وأخرجوه من بلده فاس ، فلجأ إلى القيروان التي تعرِفُه ويعرفها واستقرّ بها نهائياً إلى أن توفي .

فيكون رجوعه على هذا من رحلته المشرقية إلى فاس حيث أهْلُه وعشيرته وبيته الذي كان على ما ألمعنا إليه من قبل ، بيتاً شهيراً ونبيهاً ، فلما نبَتْ به فاس ولقي من مضايقة أهلها وَوُلاتِها ما لَقي ، خرج منها مهاجراً أو مبعداً فأمّ القيروان وتديّرها واستوطنها بقية حياته .

ولعل مما يُستأنس به لذلك ما رواه ابن فرحون في الديباج أنه أفتى في مسجد بُني بِجبَل فاس بمثل ما أفتى به في مسجد السَّبْت بالقيروان قبله يحيى بن عمر ، وكان مسجداً يجتمع فيه أهل الزهد والعبادة فيقرأون القرآن ويحكون حكايات الصالحين وينشدون الأشعار الرقيقة ، فقال يحيى هذه بِدْعة لم تكن في الزمن الأول ونهى عن حضوره ، واختلف العلماء في ذلك ، ولكن أبا الحسن القَابِسي أيَّد فتوى ابن عمر ، وأبو الحسن هو شيخ مترجَمنا الذي تفقه عليه في القيروان ، فمما لا ريب فيه أنه تأثر به في هذه الفتوى بالنسبة إلى المسجد

الذي بني بجبل فاس ، ولا يمكن أن يكون ذلك قبل رحلته ولقائه للقابسي وأخذه عنه فإذا كان هذا صحيحاً فإن فتواه هذه قد تكون مما أُخِذ عليه بفاس وجعلت القوم يأتمرون به ، وكانت أحد الأسباب في ازعاجه عنها .

ان هذا الموقف مما يدخل في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي قال صاحب كتاب بيوتات فاس انه السبب في اخراج أبي عمران من بلده ، وهو يدل على شدة في الدين واتباع لما كان عليه سلف الأمة وفقهاء المِلة من عدم التساهل في مقاومة البدع وانكار المحدثات فالانفراد عن أهل السنة والجماعة بمسجد خاصّ يرصد لغير الصلاة وقراءة للعلم كان هو مبدأ هذه الزوايا والخانقات التي فرّقت كلمة المسلمين وجعلت كلّ حزب بما لديهم مُتميّزين، ولذلك تصدّى له هؤلاء الفقهاء الأعلام بالنّكير والمُعارضة، وكان الحارث بن مسكين وهو من هو فقهاً وعلماً وديناً قد قضى قبلهم في مسجد من هذا القبيل بناه أحد الأعاجم بصحراء مصر بالهَدْم ، فعلى هذا السَنَن جرى صاحبنا أبو عمران وعلى نَهْج هؤلاء الأئمة سار ، منتصراً للسنة محارباً للبدعة ، وان أدى ذلك إلى تَغْريبه وابعاده عن وطنه .

وعلى أي حال فإن حياته العلمية انما توطّدت في القيروان بعد استيطانه بها . وشهرته انما طارت من هذا البلد العظيم الذي خلف فيه أساتذته الكبار وحصلت له رياسة العلم به ، فلم يكن يتقدمه أحد ولا يُعوّل الناس إلا على قوله ، ومنه انتشرت فتواه في الأقطار واستعلْنت مكانته الفقهية فأمّه الطلاب والدارسون من المغرب والأندلس للاخذ عنه ، والتفقه عليه واستجازه من

لم يرحل إليه ، وأصبح علماً يشار له بالبنان في كل بلاد الإسلام .

وكان يجلس للمذاكرة والسماع في داره من غَدْوة إلى الظهر فلا يتكلم بشيء إلا كتب عنه إلى أنْ مات قاله عياض .

وقال حاتم بن محمد : كان أبو عمران من أحفظ الناس وأعلمهم ، جمع حفظ المذْهَب المالكي إلى حديث النبي صلى الله عليه وسلم ومعرفة معانيه ، وكان يقرأ القرآن بالسَّبْع ويُجوِّده ، مع معرفته بالرجال وجَرْحهم وتَعْديلهم ولم ألق أحداً أوسع علماً منه ولا أكثر رواية .

وقال في المدارك قال ابن عمّار في رسالته : كان إماماً في كل علم نافذاً في علم الأصول مقطوعاً بفضله وإمامته . ولما دخل بغداد شاع أن فقيهاً من أهل المغرب مالكياً قدم فقال الناس لسنا نراه إلا عند القاضي أبي بكر الباقلاني ، وهو إذ ذاك شيخ المالكية بالعراق ، وامام الناس ، فنهض من أهل بغداد جماعة لمسجد أبي بكر ومعه أصحابه وأبو عمران فجرت مسائل أجاب أبو عمران عنها ، ثم سأل رجل شافعي عن مسألة من الاستحقاق ، فأجابه أبو عمران بجواب صحيح مُجرد عن الدليل ، فطلبه السائل بالحجة ، فأطرق الشيخ أبو عمران ، فقام شاب من أهل بغداد من المالكية، فقال للسائل : أصلحك الله ، هذا الشيخ من كبار شيوخنا ومن الجفاء أن تكلفه المناظرة من أول وهلة ، ولكن أخدمه أنا في نصرة هذه المسألة وأنوب عنه فيها . الدليل على صحة ما أجاب به الشيخ حفظه الله كذا وكذا . فاعترضه

الشافعي فيه ، ثم انفصل المالكي من اعتراضه حتى خلص الدليل . فلما أكمل الكلام على المسألة قام إليه الشافعي فقبل رأسه وقال أحسنت يا سيدي وحبيبي أنت والله شيخ المذهب حين نصرته ، وجرت في ذلك المجلس مسائل غيرها .

وهذه الحكاية تدل على أنه لما دخل بغداد كان يُعَدُّ من مشيخة العلم وكبار الفقهاء . وتقدم قول شيخه أبي بكر الباقلاّني فيه وفي القاضي عبد الوهاب لو اجتمعتما في مدرستي لاجتمع علم مالك أنت تحفظه وهو ينظره ويروى أنه زاد قائلاً : ولو رءاكما مالك لَسُرَّ بكما . وإحجام أبي عمران عن مناظرة السائل الشافعي انما هو لكونه فَهِم منه أنه أراد تَعْنيتَه كما أشار لذلك الشاب الذي تولى الاجابة عنه ، لا لعجز كما لا يخفى .

وكان أبو بكر بن عبد الرحمن الخوْلاني فقيهَ القيروان وإمامَ الناس بها قبل قدوم أبي عمران إليها ، فلما وردها أبو عمران وجلس بها وبان علمه ، قال كبار أصحاب أبي بكر نسير إليه ، وقالوا انه يعز على شيخنا ذلك ، وترددوا في الحضور عنده ثم عزموا على ذلك ، وقالوا انه لا يحل لنا التخلف عن مثله ، فأسخطوا شيخهم حتى يحكى أنه دعا عليهم وهجرَهم . ومِن ثم فسد ما بين العالمين الجليلين ، حتى طمع بذلك صاحب افريقية وظن أنه يجد به الحجة على العامة إذ كانت طوْعَهما ، فلما اختبرهما لم يجد عندهما ما يوافقه ، ووجد دينَهما أمتن مما كان يظن . واستمر هذا الخلاف واشتهر بين الناس حتى إن الكاتب أبا العباس أحمد بن رشيق الأندلسي ، وكان يميل إلى الفقه ورواية الحديث ، كتب إليهما رسالة شهيرة عندهم في الاصلاح

بينهما ، ومع أن هذه الخصومة لم يكن له فيها يد كالتي نشبت بينه وبين شيخه أبي ذرّ ، فإنه كان يلزم فيها جانب التعقل ولا يفتح الباب فيها للمستغلين كما رأينا .

وكان تلامذة أبي عمران الذين تفقهوا به وأخذوا عنه جماعة من الفاسيين والسّبْتيين والأندلسيين فضلاً عن القيروانيين كأبي القاسم بن مُحْرِز ، وأبي اسحاق التونسي ، وأبي القاسم السيّوري وأبي حفص العطّار ، وابن سعدون وعبد الحق الصِّقلّي ، وعتيق السوسي ، وأبي محمد الفحصلي ، ومحمد ابن طاهر بن طاوس ، وسواهم .

ومن تلاميذه وَجّاج بن زلُو الشهير الذي كان أحد المؤسسين للدولة المرابطية ، أخذ عنه بفاس قبل هجرته إلى القيروان ، كما في كتاب بيوتات فاس ، والذي في كتاب مفاخر البربر وغيره أنه رحل إلى القيروان وقرأ عليه بها . ويمكن الجمع بينهما بأنه قرأ عليه أولا بفاس ولم يُشبِع نَهْمَتَه منه ، ولما كانت اقامة أبي عمران بفاس بعد رجوعه من رحلة قصيرة ، فإن صاحبنا وجّاجاً رحل إليه لتجديد العهد به واكمال دراسته عليه .

وكان هذا التلميذ قد تشبّع بروح استاذه الاصلاحية والعلمية ، فلما رجع إلى بلده سوس بنى داراً لطلبة العلم وبها تخرج عليه عبدالله بن ياسين المؤسس المباشر لدولة المرابطين .

وكان ذلك فيما يروي المؤرخون لما اجتمع يحيى بن ابراهيم الكدالي زعيم

صنهاجة وهو عائد من الحج ، بمتَرجمنا أبي عمران الفاسي في القيروان فسأله أن يبعث معه أحد طلبته لتعليم أبنائه وأبناء قبيلته كتاب الله وقواعد الإسلام فبعث أبو عمران معه بكتاب إلى تلميذه وجاج يقول فيه : « أما بعد إذا وصلك حامل كتابي هذا وهو يحيى بن ابراهيم الكدالي ، فابعث معه إلى بلاده من طلبتك من تثق بدينه وورعه وكثرة علمه وسياسته ، ليعلمهم القرآن وشرائع الإسلام ويفقههم في دينهم ، وله ولك في ذلك الثواب والأجر العظيم ، والله لا يضيّع أجر من أحسن عملا والسلام » .

وقد وقع اختيار وجاج على تلميذه عبدالله بن ياسين الذي نعرف من أمره في القيام بدولة المرابطين وحربه لأهل الضلال وقضائه على الفتنة والفساد وصبغه للدولة بصبغة الدين التي لم تفارقها حتى انقرضت ، ما يَضيق المقام عن تفصيله وانما المهم أن نشير إلى يد أبي عمران في ذلك وهي إن لم تكن خطة رسمها للزعيم الصنهاجي عند اجتماعه به في القيروان ، فعلى الأقل كانت ارشاداً وتوجيهاً وتأثيراً فيه مباشراً أو بواسطة تلميذه وجّاج وتلميذ تلميذه عبدالله بن ياسين أي تطبيقاً للدعوة الاصلاحية التي بثّتْها مدرسة أبي عمران ونشرت مبادئها في المغرب وافريقية ، وكان أول ما ظهر منها الثورة على الواقع المؤلم والوضع الفاسد في فاس من أبي عمران نفسه مما أدى به إلى النفي والتشريد .

وهكذا يظهر لنا أبو عمران رجل اصلاح وسياسة وتدبير ، إلى كونه رجل علم وفقه وحديث .. وقد نجح في كلتا المهمتين وقَرْطَس الهدف في كل من الغرضين وقلما تجد عالماً ذا شهرة وذكر عالٍ إلا وهو ممن أرْصد

عِلْمَه لتغيير مـــا بِقَوْمِه واصلاح أحوالهم ، ولم يقتصر على العلم دون العمل .

ولم يؤلف مترجمنا كتباً كثيرة ، فكل ما ذكروا له ، أنه ألف كتاب التعاليق على المدونة، وهو كتاب جليل ، إلا أنه لم يكمله ، وخرج عوالي حديثه في نحو مائة ورقة ويوجد في مكتبة الاسكوريال باسبانيا منسوباً إليه ، مخطوط يسمى كتاب الأحكام وذكر صديقنا الأستاذ عبد السلام ابن سودة في كتابه دليل مؤرخ المغرب أن له فهرسة أي برنامجاً لرواياته ومشيخته ، ولعله هو الكتاب الثاني الـــذي ذكرناه سُمّي بالفهرسة لمناسبة موضوعه ، وينقـــل القاضي عياض في المدارك عما يسميه أحياناً التعليق لأبي عمران ، وأحياناً أخرى يقول وجدت بخط أبي عمران ، وذلك في تراجم بعض الأفراد وتواريخهم ، فهل هذا كتاب آخر له ، أو انما هو تقييد مما ظفر به القاضي عياض من آثار أبي عمران . وفي الحق أن هذه الكتب ولو ثبتت كلّها ليست على قدر علم الرجل وتحصيله واتساع روايته ومشاركته في العلوم ، فإن غيره ممن يعد في تلامذته له عشراتُ الكتب والمؤلفات ،ولكن التأليف موهبة ، كما أن الاشتغال بالدرس وهو ما كان أبو عمران مُنكبّاً عليه إلى أن مات، يعوق عن الكتابة ويستنفد مجهود العالم . ومع ذلك فإن علم أبي عمران وفقهه متفرق في الكتب ومُسجّل في فتاواه التي تضم كتب النوازل والمسائل الشيء الكثير منها .

ومما يذكر في هذا الصدد أن أبا عمر بن حسيْن قاضي دانية قَدِم إلى القيروان برسالة من الموفّق صاحب دانية إلى المُعِزّ صاحب افريقية ، وجرت

ه بالقيروان أخبار وأمور ،فكتب إلى علمائها بمائة سؤال عن فنون العلم
أجاب عنها كلها أبو عمران الفاسي . وهذا عمل يدل علـى مقدرته التامة
و تصرفه الكامل كما يدل على تصدره وكفايته لعلماء العاصمة الافريقية الكبيرة.

ونحن اليوم لا نستطيع أن نقدرالدور الذي كان يقوم به المفتي في المجتمع
الإسلامي الذي يخضع لأحكام الشرع فيجميع الشؤون، لبُعدِنا عن الحياة
الدينية الصحيحة ، ولكن يكفي لتصوره في الجملة، أن نتذكر ما كان للناس
من تشبث عظيم بتعاليم الدين ، وحرص شديد على عدم مخالفتها في الصغير
والكبير من أعمالهم فهم يلجأون دائماً إلى العلماء يستفتونهم ، وإذا اختلفوا
فإنهم يعتمدون من ثبت لديهم ورعُه ونزاهته وعدم مجاراته للحكام في أهوائهم ؛
انه لم يكن هناك افتاء رسمي ولا خطة حكومية له ، فالدولة نفسها تستفتي
لعلماء وكثيراً ما يعارضون أغراضها ولا يوافقون عليها . وذلك هـو الذي
يرفع مقامهم عند العامة ويجعلهم بمثابة الزعماء السياسيين الذين ينتقدون الحكومة
في أنظمة الحكم العصرية، ويعارضون سياستها وربما أسقطوها فمن هذا نعرف
مهمة المفتي وخطورتها بالنسبة للفرد والجماعة في الوطن الإسلامـي ،ومنه
نعرف مشاغل أبي عمران ومسؤوليته في عاصمة اسلامية كالقيروان تموج
بالمذاهب والأهواء والاضطرابات السياسية التي خلص منها خلوص الذهب
لابريز، ولم يتأثر موقفه بشيء منها وانمابقي ذلك العالم السنّي النصوح
لمخلص ملْجأ المسلمين فيما يعرض لهم من الشبه والمشاكل وأب الجميع.

وكان على ما تتبعنا من أقواله وفتاويه يجنح إلى التسامح والرفق وعدم التشديد

إلا مع الولاة والمتسلطين حين يريدون أن يعبثوا بأحكام الشرع ويصلوا إلى مرادهم من الناس كما سبقت الإشارة إلى ذلك . ونسوق هنا فتوى من فتاويه أنقذت رجلاً من الموت بتأويل حسن ونظر متسامح مع ما كان لعامة الشعب فيه من ثقة كاملة .. وذلك أنه كان في القيروان رجل ادعى أنه خير البَرِيّة ، فلبّب وهمّتْ به العامة ، فحمل إلى شيخنا أبي عمران ،فسكّن العامة ثم قال : كيف قلت فقال انه خير البرية . فقال له أنت مؤمن أو قال مسلم . قال نعم . قال تصوم وتصلي وتفعل الخير ، قال نعم . قال اذهب بسلام ، قال الله تعالى « ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية » . فانقبض الناس عنه .

ومن تسهيلاته في الفتوى أنه كان يقول فيمن حلف بالايمان اللازمة تكفيه طلقة واحدة .

ومما يدل على تأنيه وحسن نظره في المسائل وتأنّيه لها أنه جرت بالقيروان مسألة في الكفار هل يعرفون الله أم لا . فوقع فيها نزاع عظيم بين العلماء ، وتجاوز ذلك إلى العامة وكثر التنازع بينهم فيها حتى كاد يقوم بعضهم على بعض في الأسواق ويخرجون عن حد الاعتدال إلى القتال . وكان القائم بذلك رجلاً مؤدباً يركب حماره ويذهب من واحد إلى آخر ، فلا يترك متكلماً ولا فقيهاً إلا سأله فيها وناظره . فقال قائل : لو ذهبتم إلى الشيخ أبي عمران لشفانا من هذه المسألة ، فقام أهل السوق بجماعتهم حتى أتوا باب داره واستأذنوا عليه ، فأذن لهم ، فقالوا له :انك تعلم ان العامة إذا حدث بها

حادث انما تفزع إلى علمائها ، وهذه المسألة قد جرى فيها ما بلغك ، وما لنا في الأسواق شغل إلا الكلام فيها .

فقال لهم ان أنصتم وأحسنتم الاستماع أخبركم بما عندي . فقالوا له : ما نحب إلا جواباً بيناً على قدر أفهامنا . فقال لهم : بالله التوفيق .ثم أطرق ساعة وقال لا يكلمني إلا واحد ويسمع الباقون ، فقصد واحدا منهم فقال له :

أرأيت لو لقيت رجلاً فقلت له أتعرف أبا عمران الفاسي . فقال أعرفه فقلت صِفْه لي . فقال هو رجل يبيع البَقْل والحنطة والزيت في سوق ابن هشام ويسكن صبرة ، أكان يعرفني . قال لا . قال : فلو لقيت آخر فقلت له أتعرف الشيخ أبا عمران؟ فقال نعم . فقلت صفه لي. فقال هو رجل يدرس العلم ويفتي الناس ، ويسكن بقرب السماط ، أكان يعرفني . قال نعم . قال: والأول ما كان يعرفني . قال لا قال لهم الشيخ : فكذلك الكافر إذا قال لمعبوده صاحبة وولد وأنه جسم ، وقصد بعبادته من هذه صفته ، فلم يعرف الله ولم يصفه بصفته ، بخلاف المؤمن الذي يقول ان معبوده الله الأحد ، الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفؤاً أحد . فهذا قد عرف الله ووصفه بصفته وقصد بعبادته من يستحق الربوبية سبحانه وتعالى .

فقامت الجماعة وقالوا له : جزاك الله خيراً من عالم فقد شفيت ما بنفوسنا ، ودعوا له ، ولم يخوضوا في المسألة بعد هذا المجلس .

ومما يدل على غيرته وتعظيمه للحرمات وعدم إسلاس قيادته لذوي الأمر

ما حكي أن المعزّ بن باديس بعث إليه ابن عطاء اليهودي طبيبه وخاصته يستفتيه في مسألة فلما دخل على الشيخ ، في داره ظنه بعض رجال الدولة إلى أن نبهه بعض الحاضرين بقوله : أكرمك الله انه من خيار أهل مِلّته . فقال الشيخ وما مِلّته . فقال : هذا ابن عطاء اليهودي ، فغضب أبو عمران وقال لابن عطاء : أما علمت أن داري كمسجد ، فكيف اجترأت على دخولها . وأمره بالخروج . فخرج وهو يرعُد . وكان غير مُعَلَم ، فأمر الشيخ بصبغ طرف عمامته لشهرته . وقال انصرف إلى مُرسِلك ، فقل له يبعث لي برجل من المسلمين يأخذ جواب مسألته ، فاني لاستحيي أن أحمّلك أسماء الله وحكماً من أحكامه . .

فلما دخل اليهودي على المعز ذكر له القضية وقال : والله يا سيدي ما ظننت أن بافريقية ملكاً غيرك ، إلا يومي هذا . ولقد وقفت بين يديك في حال غضبك الشديد فما أدركني فزع ، ولا أصابني من الرعب ما أصابني في يومي هذا . فقال له المعزّ : انما فعلت ذلك لأريك عزّ الإسلام وهيبة علماء المسلمين ، وما ألبسهم الله من شعائر الأولياء ، لعلك تُسْلم .

ومهما يكن في هذا الموقف من الشدة ، وفي روايته من المبالغة ، فإنه من أعظم الأدلة على علو مقام أبي عمران وشدته في دينه وكونه لا تأخذه في الله لومة لائم ، ولئن كان المعزّ أخطأ في ارسال اليهودي إلى الشيخ مستفتياً في أمر ديني أو استهتر به ، فلقد أحسن الاعتذار بعد ذلك حين قال لرسوله انما فعلت ذلك لأريك عز الإسلام وهيبة علماء المسلمين .

وأخيراً هذا حديث شريف من طريقه ، ولعله أن يكون من عوالي حديثه ، نقله ابن بشكوال في الصلة عن خط أبي مروان الطبّني قال أخبرني الشيخ الجليل

أبو حفص محمد بن زاهر وكتبته من خطه قال أنا أبو عمران موسى بن عيسى ابن أبي حاج الفاسي الفقيه في داره بالقيروان قال أنا أبو الحسن الفقيه ابن القابسي رحمه الله قال لنا حمزة بن محمد الكناني حين دخلت عليه أنا وأبو موسى عيسى بن سعادة وأبو محمد الأصيلي ووافقناه نازلاً في الدرج ، درج مسجد يقال انه مسجد ابن لَهيعة في حضرموت : من هؤلاء ؟ فقيل له قوم مغاربة . فوقف فسلمنا عليه ، ثم رجع فنظر في وجوهنا وقال : ما أرى إلا خيراً . حدثونا عن محمد بن كثير عن سفيان الثوري عن عمر بن قيْس المُلائي عن عطية العوفي عن أبي سعيد الخُدْري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: احذرُوا فِراسة المؤمن ، فإنه ينظر بنور الله ، وتلا : ان في ذلك لآيات للمتوسمين.

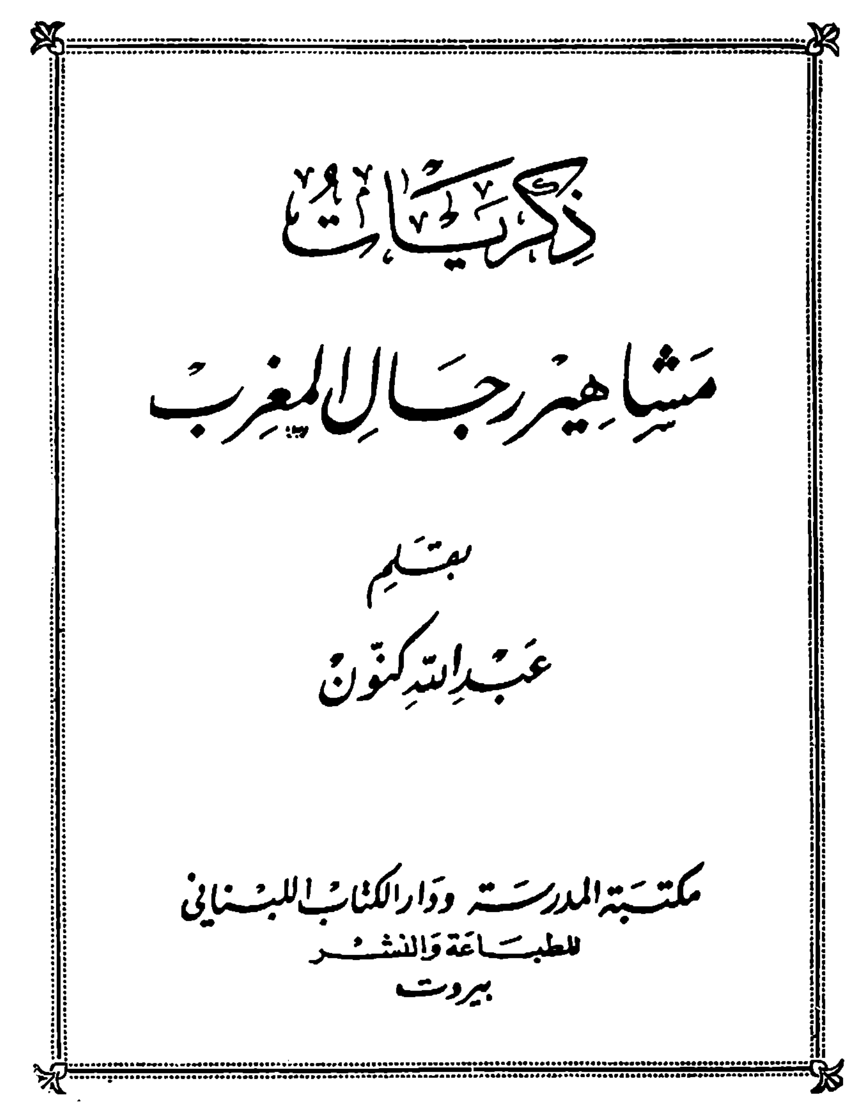
وبقي أبو عمران بالقيروان على حاله من الاشتغال بالعلم والافتاء والنصيحة والعناية الكاملة إلى أن جد له الشوق إلى الرحلة للمشرق مرة ثانية سنة ٤٢٦ فحج ولقي بمكة عبد الله بن أحمد الهروي فأخذ عنه . ثم قدم إلى القيروان ، ولم ينشب أن مرض ومات .

ولما حضرته الوفاة جعلت زوجته تمرغ خديها على رجليه ، فقال لها : مرغي والله ما مشيت بهما إلى معصية قط . وهذا من كمال دينه وتقواه لله عز وجل . وحكي أنها قالت : واشماتة أعداء عيسى بعيسى (تعني به ولد أبي عمران) فقال لها الشيخ : قولي : لاعداء عيسى لا يموتون .

وقيل انه توفي عن غير عقِب ذكر وعصّبه بيت المال والعلم لله .

وكانت وفاته في ١٣ رمضان سنة ٤٣٠ ودفن ببيته ، وقبره معروف بالقيروان إلى اليوم رحمه الله رحمة واسعة .

المملكة العربية السعودية
وزارة المعارف
المكتبات المدرسية



ذكريات

مشاهير رجال المغرب

بقلم

عبد الله كنون

مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني
للطباعة والنشر
بيروت

35

السلطان محمد بن عبد الله

وزارة المعارف الكتابات المدرسية

طبع على مطابع دار الكتاب اللبناني
رأس النبع - بيروت - هاتف: ٢٥٨٧٠٠

عرض وتعليق

الدكتور نقولا زيادة

كتب الأستاذ الدكتور نقولا زيادة أستاذ التاريخ الحديث بالجامعة الامريكية بيروت في مجلة العالم البيروتية (العدد الثالث ، السنة العاشرة) في باب الكتب الحديثة ، عن هذه السلسلة ما يلي :

يعتبر الاستاذ عبد الله كنون كبير مؤرخي الأدب المغربي ومن أنشط العاملين في سبيله ، والذين اهتموا بالنتاج الفكري المغربي يشعرون بفضل الاستاذ كنون وجهوده الكثيرة في هذه الأمور .

وقد أراد الأديب الكبير ان يحيي ذكريات مشاهير رجال المغرب من أهل العلم والأدب والسياسة ، فبدأ قبل سنوات بنشر رسائل مقتضبة عنهم ، ظهر له منها خمس وعشرون ، ولكنه اضطر إلى التوقف سنة ١٣٦٩ بسبب مرض اعتراه ، وقد استأنف العمل الآن ، فصدرت من الذكريات ثلاث ، هي عبد المهيمن الحضرمي وأبو العباس العزفي وعبد الواحد المراكشي (أرقام ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨) ..

وقد قال الاستاذ كنون في تقديمه للرسالة الأولى « على اننا لا نعد بكتابة تراجم علمية لهؤلاء الأشخاص قائمة على التحليل ومستوفية للاغراض الواجبة في هذا الصدد ، لأن المصادر تعوزنا كثيراً . وما جمعناه من الاخبار والآثار

على كونه أكثر مما جمعه ، أي ديوان عن هؤلاء الأفراد – ومنهم من لم يكن أحد يعرف انه مغربي أصلاً فـإنه لا يكفي لكتابة حياةٍ لواحد منهم ، ولهذا السبب دعونا هذا الكتاب ذكريات مشاهير رجال المغرب ولم ندعه تراجم » .

ومع ذلك فإن المؤلف وفّى كلاً من هؤلاء الرجال حقه في حدود ما رسم لنفسه من خطة . والمخطط العام لهذه الرسائل هو انهـا تتناول حياة الرجل واختباره وتجاربه واعماله ، باسلوب طلي وعبارة سلسة واعتدال في الحكم . ثم تعرض لمؤلفاته ان كان من أهل القلم ، وتقدم إلى القارىء مختارات من نثره أو شعره ان كان من اهلهما .

والرجال الثلاثة الذين نعرض لهم هنا منهم عبد المهيمن الحضرمي من أهل القرنين السابع والثامن (الثالث عشر والرابع عشر م) وقد ولد في سبتة وكتب لمحمد الثالث من بني الأحمر في غرناطة وبني مرين بعد ذلك ، ثم استقر في تونس وكان من تلاميذه فيها ابن خلدون المؤرخ المشهور . أما أبو العباس العزفي فهو معاصر للحضرمي ومن أهل سبتة أيضاً ، إلا ان العزفي كان من بيت رياسة للمدينة ، فقد كان أخوه وأبوه وجده رؤساء سبتة حتّى انتزعها منهم محمد الثالث من بني الأحمر ، ونقل العزفيين إلى غرناطة . وثالث هؤلاء هو عبد الواحد المراكشي وقد سبقهم في الزمن ، ولعله اخلدهم أثرا إذ ان كتابه « المعجب في تاريخ المغرب » من أثمن ما وصل إلينا . وقد قال الاستاذ كنون عنه ما يلي « هذا رجل من رجالات المغرب ، كان له شأن وبال مدة حياته ، ثم طواه الاهمـال والنسيان حتّى بُعِث في عالم الاستشراق حديثاً ،

فإذا هو أكثر أهمية بالنسبة إلى تاريخنا السياسي والأدبي مما كان عليه قيد الحياة، لم يؤرخ له أحـــد في مغرب ولا مشرق ، وان كـــان هو قد كتب تاريخ المغرب للمشرق . وكأنه كان يعرف ما سيؤول إليه أمره من جحود ونكران ، فكتب هذه السطور القليلة التي يتحدث فيها عن نفسه في تاريخه المعجب ، ولولاها لما علمنا من حاله شيئاً » .

عن مثل هؤلاء الرجال يكتب عبد الله كنون في ذكريات مشاهير رجال المغرب فجازاه الله عنهم خيراً ، وأحسن إليه بقدر ما أحسن إلينا إذ عرفنا بهم في تراجم مقتضبة ، ومختارات من الشعر والنثر جميلة ، وتحليل ، وان انكره هو ، فإننا واجدوه فيما يكتب .

السلطان محمد بن عبد الله

ملك عبقري ، ولادته ونشأته ، خلافته عن والده بمراكش ، مبايعته ، الوضع الذي وجد عليه البلاد ، مساعيه لاقرار الوحدة الوطنية ، تنظيم المالية ، علائقه مع الدول الأجنبية ، مع الدولة العثمانية ، تقوية الجيش ، الاهتمام بالعمران ، أعمال الاصلاح ، في ميدان السياسة الاسلامية ، في ميدان العدل ، في ميدان العلم ، وفاته ، شعر في مدحه .

في تاريخ المغرب على اختلاف الدول التي تعاقبت عليه ، ملوك لم يقتصروا على حكم البلاد وضبط أطرافها والدفاع عن حوزتها ونصب ميزان العدل بين الرعية وبسط الامن وتعميم الرخـاء ، ممـا هو مهمة الملوك ومناط بيعتهم ، ولكنهم تميزوا فوق ذلك بأفكار عبقرية ومبادرات اصلاحية عظيمة الأثر في تطور المجتمع وحياة الأمة .

ومن هؤلاء الملوك في الدولة العلوية الشريفة السلطان العظيم سيدي محمد بن عبد الله . انه كان مفكراً حراً ، ومصلحاً اجتماعياً ودينياً ، وداعياً من دعاة الوحدة الإسلامية ، فضلاً عن كونه ملكاً اضطلع بسياسة البلاد وقيادتها نحو التقدم والازدهار ، فكان النجاح حليفه في كل أعماله ومآتيه

وهو السلطان محمد الثالث بن السلطان عبد الله بن السلطان اسماعيل بن

الشريف بن علي العلوي الحسني ، فقد تولى قبله من أسرته ممن اسمه محمد : اثنان ، الأول محمد بن الشريف والثاني عمه محمد بن اسماعيل المعروف بابن عربيّة .

وكانت ولادته بمكناس عاصمة جده مولاي اسماعيل سنة ١١٣٤ فنشأ في حضن الصيانة والدين ، وربّي تربية الملوك برعاية جدته السيدة خناثة بنت بكّار والدة أبيه ، وناهيك بها عقلاً ونبلاً وعلماً وفضلا ، وقد صحبها في رحلتها إلى الحج سنة ١١٤٣ وهو ابن عشر سنين ، وكانت رحلتها هذه حديث الركبان بما أضفى عليها ولدها السلطان مولاي عبد الله من العناية وهيّأه لها من أسباب الراحة ؛ فمن أخبية عظيمة وأمتعة رفيعة وهدايا وأموال طائلة . إلى عبيد وحشم وحراس شداد فضلاً عن ركب الحاج المغربي الذي سار في معيّتها وكانت تقتبل رسمياً من ولاة البلاد والاقاليم الّتي تمر بها وبلغ مـا زودها به ولدها السلطان من المال الناضّ بقصد العطايا والهبات لاهل الحرمين الشريفين مائة ألف دينار ، ومما لا شك فيه أن هذه الرحلة فتحت أعين الأمير الشاب على أشياء كثيرة ما كان ليعرفها لولاها . وأثّرت في نفسه تأثيراً بليغاً ظهرت آثاره أيام ولايته وتقلده لمنصب الحكم بحيث جعلته يرى في البلاد الإسلامية وطنَه الكبير الذي لن يكون المغرب إلا جزءاً منه، يتقاسمُ وايّاه السعادة والشقاء والخير والشر ، وهذا إلى الدروس العلمية الّتي كان يتلقاها عن أساتذةٍ أكفاء رتبهم له والده منذ حداثته وما كان يخلو مجلسه من واحد منهم حتّى بقي ذلك ديدنه وعادته في مصاحبة العلماء ومجالستهم طوال حياته .

ولمّا صلُب عوده واكتمل شبابه استخلفه والده على مدينة مراكش سنة ١١٥٩ وكان له من العمر حينئذ خمس وعشرون سنة ، فأظهر من حسن السياسة وكمال النجدة ، وجوْدة الرأي والمعرفة بتدبير الأمور ، ما هو جدير بمن نشأ نشأته وتربى تربيته ، وكان ما مرّ على مراكش من الأحداث والفتَن قد خرّب عُمرانها . وغيّر مَعالمها ، فجدّد واجتهد في تجديد مغانيها ، واحياء مآثرها ، وامتدّ نظره إلى نواحيها فضبطها وساسها بحكمة وبصيرة مما جعل الأنظار تتشوف إليه والآمال تتعلق به ، وهكذا أراد دُعاةُ الفوضى والذين ألفُوا أن يصطادوا في الماء العكِر من جيش العبيد والقبائل المشاغبة تمثيل الدور الذي طالما مثلوه مع غيره ببيعته واظهار النزوع إليه . والخروج على والده ، فأبى ذلك وامتنع عليهم ، وترَضّاهم وتوسط لهم مع والده حتى عادت المياه إلى مجاريها ، وحُسِم الداءُ على يده . وعُدّ ذلك من تمام عقله واستقامته .

فلما توفي والده سنة ١١٧١ كانت سمعته قد طبّقتْ أرجاءَ المغرب فلم يتلَكّأ أحد عن مبايعته ، ومن لم يطعه رغبةً اطاعه رهبةً ، والحق أن الناس كانوا قد سئموا حياة الهَرْج والفتن وأعياهم الخوف واضطراب حبل الأمن ، فمنذ وفاة السلطان مولاي اسماعيل والفوضى ضاربة أطنابها على المغرب ، بسبب تنازع ابنائه على الملك وانقسام الرعية على نفسها بداعي مناصرة هذا الأمير أو ذاك ، حتى انهار صرح تلك المملكة العظيمة التي شادها مولاي اسماعيل بهمته وعزيمته في ظرف خمسين سنة أو تزيد من ولايته ، فما إنْ

وجد المقتضي بجلوس سيدي محمد بن عبد الله على العرش حتى أجمعت كلمة أهل الحل والعقد من العلماء والاشراف وكبار القوم على تقديمه لذلك والدخول في طاعته ، وقصْر النظر عليه ، وصرفه عمن سواه .

* * *

وبويع أولاً بمراكش ثم حمَل إليه أهل فاس بيعتهم ، وما لبث أن شخَص إلى فاس فقطع المغرب من جنوبه إلى شماله ، ثم عرّج على الثغور متفقداً أحوالها ، ورأى ان التركة التي آلت إليه ليس من السهل الاستحواذ عليها ولا الاحتفاظ بها ، فالحِمْلُ إذنْ ثقيل والمهمة من أصعب ما يكون ، ولكنّ الرجال ذوي العزائم لا تقف في وجههم العقبات ولا تثنيهم الصعاب عن مرادهم ، فشمّر عن ساعده ووطّن نفسه على الاضطلاع بمسؤوليته مهما يكن الأمر .

* * *

وكان يُعْوِزُه المال وكانت عدّةُ مناطق في الجنوب والشمال والوسط تتمتع باستقلال ذاتي ، ولا تخضع للسلطة العليا إلا اسْمِياً ، وكان جيش العبيد الذي ألّفَهُ جده السلطان اسماعيل وجعل منه قوة عتيدة لحماية البلاد والدفاع عن وحدتها قد آل إلى عصابات شريرة تتلاعب بمصير المملكة ومقدّراتها وكذلك كثير من القبائل الأطْلَسِيّة ذات العصبية والمنعة استحالت إلى عناصر مشاغبة وجموع متمردة على الدولة ، وقُلْ مثل ذلكَ في بقية الأجناس الذين تتكون منهم الحاميات الدائمة للسّلْطة أمثال الْوَدايا والعَرَب وغيرهم .

فلم يزل يقلّمُ اظفار أهل البغي والفساد ، ويضرب على أيدي الخوارجِ والعابثين بأمن البلاد ، حتى استقامت له قناتهم ولانت صفاتهم ، وكان يُزاوِج بين الشدة واللين ، في عقاب المتمردين إلا إذا كثر شرّهم واستَشْرى داؤهم وظهر تعدّيهم على الرعية وتطاولهم على الضعفاء فإنه حينئذ يضربهم الضربة القاضية ولا تأخذه بهم رأفة ولا رحمة ، وهكذا وبعد مطاولةٍ وامتحان شديدين استكان جيش العبيد إلى الخضوع والطاعة ولم تعد نفس الودايا تحدّثُهم بالعبث والطغيان ، وعاد إلى حظيرة الوطن كلّ من مدينة سَلاَ وتِطْوان وطَنْجة واقليم سُوس التي كانت تستبد بها سلطات محلية وتحاول أن تجعلها تعيش خارج الوحدة الوطنية .

ان الجهود التي بذلها السلطان سيدي محمد بن عبد الله في اعادة الوحدة الوطنية إلى نصابها وسيادة السلطة الشرعية على البلاد جهود كبيرة وشاقّة ، لم تَخْلُ من العنف و التضحيات ، ولكنها كانت لازمة وضرورية للحفاظ على كرامة الوطن وأمن السكان وسُمْعة الدولة في الداخل والخارج ، وكل ما بُذِل فيها من نفوس ونفيس يرخص أمامَ ما كانت تتعرض له البلاد من حروب داخلية ومصير مجهول ، لا سيما والأفراد والجماعات الذين كانوا يثيرون تلك الفتن ويُؤَرّثُون نارَ هاتيك المِحَن فيذهبون ضيحتها ، ما هُمْ إلا طائفة من المغامرين أهل الحرابة الذين حكم الشرع فيهم بما حَكَم ، فلو لم تُستأصل شأفتهم وتُجْتَثّ جُرثومتُهم لما عرفت البلاد استقراراً ولا ذاق الشعب طعْم راحة .

واقترنت عمليات إقرار السلم وتأديب العصاة بمدة ولاية السلطان فانه ما كان يرقع خرقاً حتى يجدَ نفسه أمام خرْق آخر ، ونحن لم نذكرها على حسب الوقوع وتاريخ حدوثها لاننا في هذه الترجمة انما نعنى بالنتائج التي تبرزُ شخصية المترجم ، وأما اليوميات أو الحوْليّات وتسلْسلُ الحوادث فإن مكانها التاريخ العامّ وهي لا تهمّ القارىء بقدر ما تهمه النتائج المذكورة .

وشخصية السلطان القوية وحسن تدبيره كان لهما الأثر الفعّال في توفير المال اللازم للدولة وتنمية موارد البلاد حتى أصبح المغرب يرفل في حُلـل الرفاهية والعيش الرغيد ، وأول ما ظهر من حزمه في ذلك انه عند شخوصه لفاس بإثر مبايعته وقف على متخلف والده من ناطقٍ وصامتٍ ، منقولٍ وثابتٍ ، وسلاح وخيْل وغير ذلك ، فأحصاه وجعله إلى نظر حاجبه ، وكان والده من شدّة احتياطه على مال الدولة ونظراً لظروف الهرج التي كان يعيش فيها ، يحمل ما لديه من مال ناضّ على ظهور الدواب ويسير به معه اينما سار ، وكان الموَكّلون به كلما نزل الجيش وضربت الأخبْية ، يرفعون ما معهم إلى سرادق السلطـان ، فيكون بيتُ مالِ الدولة في حمايته وتحت الحراسة التي تحرس السلطان نفسه .

وقد تسلم سيدي محمد بن عبد الله هذا المَصْرِف المُتنقّل من الوَزَعَـة الذين كان في كفالتهم ، وكان به ألف خرُْج ، في كل واحد منها ألفا دينار ذهب بالتثنية ، ومائة رَحىً من الذهب الخالص كقُرْصِ الشمع في كل رَحىً وزنُ أربعة آلاف ريال ، إلى ثلاثمائة ألف ريال أخرى مَسْكُوكة ،

كل ذلك أدّاه أولئك الوزعة بمنتهى الأمانة متأثرين بشخصية السلطان القوية وقد كان من المحتمل جداً ان يتقاعدوا عليه أو على بعضه لوْ كان غيره هو المطالب به ، كما وقع فعلاً فضاعت ثرْواتٌ عظيمة في فترة التنازع بين أولاد السلطان مولاي اسماعيل .

ثم انه تقدم بضبط مداخيل الدولة ، ولمّا رأى انها ضئيلة لا تكفي لمتطلبات الحكم والنهوض بالبلاد أحضر العلماء وشاورَهم في ذلك ، فأفتوا بجواز فرْض بعض الضرائب على الرعية لتقوية الجيش ونشر العمران وكان ذلك من حسن تدبيره ، إذ لو اقدم على هذا الأمر قبل أخذ موافقة العلماء لكثُر القيل والقال ولزعم بعضهم ان ذلك من المكس المُحرّم ، ولما استقام له عمل ، وبسبب ذلك نمتْ مداخيل الدولة وتحسّن الوضع المالي للحكومة وأصبح بمقدورها مواجهة المطالب العديدة التي تقتضيها مشروعات التجهيز والتنظيم المقترحة من قبل السلطان .

ونظر في التجارة الخارجية تصديراً وايراداً بعين المصلحة العامة كما فعل من قبل في آسفي لمّا كان خليفةً لوالده على مراكش ، فسرّح الوَسْق من مراسي المغرب إلى أقطار أوربا وشجّع التجار الأجانب على التعامل مع المغرب واقامةوكالاتٍ لهم بمختلف المدن الداخلية والعواصم ، فازدهر هذا القطاع من اقتصاديات الوطن وأدَرّ على الحكومة والسكان خيراً كثيراً .

ودعاه ذلك إلى عقد معاهدات دَوْلية لتنظيم العلاقات بين المغرب ومختلف البلاد وخصوصاً الأوربية منها ، وقد ذكر النقيب مولاي عبد الرحمن بن

زيدان في ترجمته من تاريخ مكناس تفاصيل مهمة عن علائقه السياسية مع كل من فرنسا والسويد والدانمارك والبرتغال واسبانيا ومالطا ونابولي فضلاً عن الدولة العثمانية ، وأورد نصوص بعض المعاهدات التي عقدها مع هذه الدول . وهي تقوم أساساً على التبادل التجاري واستيراد المعدّات الحربية والذخيرة والأدوات التي يستعين بها على تنمية الأسطول المغربي وما إلى ذلك. وكانت هذه المعاهدات في بعض الأحيان تنصّ على إلغاء بعض الامتيازات التي حصلت عليها احدى هذه الدول في فترة الضعف كما نبه على ذلك المؤرخ الناصري في الاستقصا بخصوص معاهدة الدانمارك ، وفي أحيان أخرى قد تُؤسّسُ امتيازاً جديداً كما في المعاهدة الفرنسية التي انتقدها المؤرخ المذكور ، وإن مال اخيراً إلى اعتبار ذلك من مُرُونة الديبلوماسية المغربية .

واشتهر من سياسته الخارجية أنه كان أول من اعترف باستقلال الولايات المتحدة الامريكية ، وهذا نزُوعٌ منه إلى مقاومة الاستعمار ومناصرة حرية الشعوب ، وبذلك استوجب ان تفكر هذه الدولة العظيمة في اقامة نصب تذكاري له في عاصمتها واشنطون ، وتدلُّ رسالةُ الرئيس واشنطون التي أجاب بها السلطان على اثر الاعتراف المذكور أن المغرب كان يحظى بتقدير كبير في الأوساط الدولية نظراً لقوته وتقدمه وسياسته السلمية الرشيدة .

ومن الغايات النبيلة التي كان يتوخاها في سياسته الخارجية بعد إقرار السلام وتنمية الاقتصاد الوطني ، فَكَاكُ الأسْرَى الذين كانت تَعِجّ بهم بعضُ دول البحر الأبيض المتوسط نتيجةً لنشاط حركة القُرْصَان وخَرْق قانون

حرية الملاحة في حوض هذا البحر من لدن عصابات المغامرين الدّوْليين ، فقد بلغ عدد ما افتداهُ من الأسرى المغاربة والجزائريين والأتراك أو تسبب في فدائهم ما يناهز ٥٠،٠٠٠ أسير ، بعث في ذلك السفارات المهمة إلى اسبانيا مراراً وإلى مالطة ، ونابولي وغيرها وانفق فيه الأموال الطائلة حتى لم يبق أسيرٌ بيد أجنبي في هذه الدول ، ومما كتبه في هذا الصدد إلى ملك اسبانيا : « انه لا يسعنا في ديننا اهمالُ الأسرى وتركهم في يد الاسْر ، ولا حُجَّة في التغافل عنهم لمن ولاه الله الامر ، وفيما نَظنّ انه لا يسَعُكم ذلك في دينكم أيضاً » وهذه روح عالية وانسانية رفيعة كانت تُلْقي الدروس القوْلية والعملية في الحرية والحضارة لدول أروبا آنذاك ، وما بِالعَهْد من قِدَم .

وإذا كانت هذه هي علائقه السياسية مع مختلف الدول ، فإن علاقته مع دولة الخلافة العثمانية تكتسي صبغة الود والصداقة والتأييد المستمر بحيث يسالم من سالمها ويُحارب من حاربها حتى ليُمْكِن عدّ البلدين بلداً واحدا والدولتين كذلك دولة واحدة في التآزر والتعاضد ، ولقد كان وُلاة الجزائر كثيراً ما يُثيرونه بتصرّفاتهم غير الودية فلا يزيد على أن يشكوهم إلى الخليفة العثماني الذي كان يكبح من جِمَاحهم ويأمرهم أن يعاملوا السلطان بما يعاملونه هو من التعظيم والاحترام ، وكانت الرسل والسفارات لا تفتأ تتردد بينه وبين عاصمة الخلافة الإسلامية مصحوبة بالهدايا والتحف والمساعدات المالية بالمبالغ الضخمة وخصوصاً في أثناء حروب الدولة العلية ، وبالمثل كان خلفاء استنبول يمدونه بالمعونة الفنية والمادية في مشاريعه الحربية وبناء اسطوله مما هو مبين

في التواريخ العامَّة ورِحلات سُفرائه ، وبلغ من تضامنه مع دولة العثمانيين انه لم يقبل سفير روسيا في بلاده ولم يُقِم علاقات سياسية مع قياصرة موسكو إذ كانوا في حرب دائمة مع الأتراك .

والغاية في هذا الباب أنه كان ذات مرة في جوْلة من جوْلاته بالمملكة فأدركه عيد الأضحى في الطريق فصلَّى صلاة العيد وخطب في الناس بنفسه ودعا للخليفة عبد الحميد الأول ، حيث كان الخطباء يدعون له بالنصر والتأييد ، فكان ذلك ايذاناً بــأن الدولة واحدة وان التضامن الإسلامي حقيقة لا تقبل التشكيك .

وفي هذا الاطار قامت المُصاهَرة بينه وبين الشريف سرور أمير مكة في كريمته التي زَفَّها إلى الشريف المذكور في موكب عظيم بصحبة ولديه الاميرين مولاي علي وشقيقه مولاي عبد السلام ومرافقة ركب الحاج المغربي ، وأرسل معهما هدايا لامير طرابلس وأمير مصر والشام ولاهل الحرمين الشريفين من أشراف وعلماء ، وذوي الحيثيات المختلفة ، وكانت هذه المصاهرة حدثاً تاريخياً ومظاهرة كبرى على صعيد الجامعة الإسلامية ووحْدةِ بلاد الخلافة .

وظهرت نتيجة العمل الجدي الذي لم يفتأ يقوم به لتقوية الجيش وتجهيزه بالمعدَّات الحربية اللازمة واحياء الاسطول الحربي وتنميته ، في الحمْلة التي شنَّها على مدينة الجديدة براً وبحراً والحصار الذي ضربه عليها حتى استسلمت وردَّها إلى حظيرة الوطن بالقوة ، بعد أن كان مَيْؤوساً منها ، وكانت بيد البرتغال منذ عهد بعيد ولم يتأتَّ لجده السلطان مولاي اسماعيل استرجاعها في جُمْلة ما استرجعه من المدن الإسلامية التي كان الأجانب قد احتلوها في

فترات الضعف التي مرت على المغرب .

كما ظهرت نتيجة اهتمامه بتنظيم المالية وتنمية موارد الدولة ، في الأعمال العمرانية التي قام بها في مختلف أنحاء المغرب ، واعظمها بناءُ مدينة الصَّويرة التي جعلها ميناءً لعاصمة مراكش على المحيط الأطلسي ، وقد تخيَّر موقعها واختطها بحيث جاءت مَرْفأً طبيعياً للسفن سالماً من الآفات ، فنشطت بها الحركة التجارية والمواصلات البحرية حتى عطلت ثغر أكادير ومرساه الذي كان الثوار يتداولونه ويسرحون منه وسْقَ السِّلَع افتياتاً على الدولة ، وهذا إلى ما عمَّرها به من البنايات العامة كالحصون والمساجد والأسواق ومختلف المرافق، فلم تلبث ان صارت من مدن المغرب الحافلة بالسكان والدور والقصور والبساتين والرياض وسائر المنشآت التي تتقرَّى بها القرى وتتحضَّرُ الحواضر .

وأما عاصمة مراكش فمنذ كان بها خليفة عن والده وهو يجدد معالمها ويحيي مآثرها وقد بنى بها من المساجد والمدارس والمشاهد والحمامات والقصور والحصون والأبراج الشيء الكثير ومثلها رباط الفتح عاصمة المغرب اليوم وسَلا ومَكْناس وفَاس وطنجة والعرائش وتازة والدار البيضاء وغيرها ، فكلها له فيها مآثر خالدة من مساجد ومدارس وأبراج وقناطر وتحصينات دفاعية عظيمة لا سيما المدن الساحلية منها وتتبع ذلك يطول .

على ان عظمة السلطان سيدي محمد بن عبدالله لا تظهر في هذه الأعمال بقَدْر ما تظهر في مبادراته الاصلاحية في حقل التعليم والعدل والشؤون الاجتماعية بِعَامَّة .

إن صيانة الملك لمملكته وقَمْعَ الثوار وتنمية المداخيل المالية ونشر العمران ، كل ذلك من طبيعة عمله السياسي وتدبير ملكه ، فالملك الذي لا يضطلع بهذه الأمور يكون فاشلاً ، بل لا يكون فيه من معنى الملك شيء ، فأما إذا تجاوز ذلك إلى التفكير في النهوض بالمجتمع ورفْع مستوى شعبه المادي والمعنوي وضمان الحياة الكريمة له ، فإنّ هذا يكون ملكاً عبقرياً تصلح به رعيته وتتقدم بلاده وتنال الإنسانية على يده خيراً كثيراً ، وقد كان محمد بن عبد الله العلوي من هذا الطِّراز من الملوك .

وتتوزع مخطَّطاتُه الاصلاحية بين ثلاثة ميادين :

الأول — ميدان السياسة الإسلامية التي هي بحاجة دائماً إلى توحيد صف المسلمين وتحديد هدفهم لئلا يطمع فيهم عدوهم أو يزيغوا عن طريق العمل لاعلاء كلمة الله ، وخاصة بعد ان انتثر عقد الخلافة الإسلامية واستقلَّ كثيرٌ من الاقاليم فأصبح بعضها يناوئ بعضاً .

وإن العمل الذي قام به سيدي محمد بن عبدالله في هذا السبيل والخطة الحكيمة التي سلكها لتوحيد الكلمة في العالم الإسلامي على عهده لمـمَّا يبعث على الاعجاب ويجعلنا نجثو مطأطئي الرؤوس أمام شخصيته الكبيرة التي ارتفعت بالتواضع واعتزت بنُكْران الذات من حيث يريد آخرون ان يرتفعوا بالكبرياء ويتعزَّزُوا بالأنانية فلا يزيدهم ذلك إلا حقارةً وذلاً ، ولقد رأينا كيف كان على صلة دائمة بدولة الخلافة العثمانية يتودد إليها ويصلها ويناصرها ويعادي من عاداها وكيف كان يخطب ودَّ امراء المسلمين في الشرق والغرب حتى صاهر أمير

مكة على ابنته وكيف انه لم يُسْلِس قَطّ الحبْلَ للخلافات التي كانت تنشأ بينه وبين ولاة الجزائر ، وحين كان يتعذر عليه الأمر يلجأ إلى الخليفة العثماني طالباً تدخله حتى ينتهي أمر الخلاف بسلام .. وأخيراً فقد رأينا كيف خطب هو نفسه باسم الخليفة العثماني عبد الحميد الأول ، فكان ذلك بمثابة المبايعة له مع انه لم تُلجِئْه إلى ذلك ضرورة ، اللهم إلاّ رغبته في وحدة بلاد الإسلام ، والقضاءِ على جميع أسباب الخلاف بين أئمة المسلمين ، وهذا الفعل شبيه بما فعله يوسف بن تاشفين الذي بايع للخليفة العباسي مع استغنائه عنه وقوة سلطانه الذي لا يقاس به سلطان الخليفة الضعيف المضروب على يده . فهما حادثان فريدان في تاريخ الإسلام ولو أن السياسة العليا للمسلمين سارت على هذا المنوال لكان واقع المسلمين اليوم غير ما هو .

الثاني ــ ميدان العدل ، فلقد اهتم بمسألة الاحكام القضائية والقوانين الفقهية ، وكانت التفريعات والنظريات المذهبية قد طغت على أقوال الفقهاء ومداركهم في الفتوى والتشريع ، فتشعّبت بذلك الدعاوى وضاعت الحقوق ، ومرجَ أمر القضاء والتوثيق ما بين الانسياق في حبْل الخلافات الفقهية والأقوال الضعيفة وبين التلاعب بالمساطر والعقود ولم يكن الفقهاء ليدركوا خطر ذلك على اختلال ميزان العدل وتعطيل الشريعة الإسلامية التي جاءت بالحق والقسطاس لانهم يعتقدون أنّ عملهم هو في صميم القواعد والنصوص ، فلم يكن من السلطان سيدي محمد بن عبد الله إلا أن يردّهم إلى الصواب ويصدر تعليماته بوجوب التزام الجادّة والأخذ بلبّ الفقه وعدم الميْل مع الشذوذ والمذاهب

المرجوحة ومنع الفتوى من كتب المتأخرين التي لا سند لها إلا تمحلات المتفقهة وابحاث المتنطعين ، ونص بالخصوص على كتب الاجاهرة اعني الشيخ علي الأجهوري من متأخري فقهاء مصر وتلامذته كالزرقاني والخرشي ، وكانت هذه الكتب تحظى بتقدير كبير من علماء المغرب ، فمنع الرجوع إليها والاعتماد عليها إلا فيما وافق قول العلماء الاقدمين ، وهدد المخالف بالعقاب الصارم سواء كان مفتياً أو قاضياً ، وكذا شدد على العدول والموثقين في تحرير الشهادات والتحري فيها ما أمكن ، وأمر بعدم الاخذ بشهاداتهم في كثير من المسائل التي تلوح عليها امارات البطلان ويحوم حولها الشك إلا ان تكون تلقيت بمحضر القاضي وموافقته ، لما كان يظهر على الشهود من الاستهتار بحقوق الناس والمقايضة عليها حتى قيل إنه أمر بأن يكتب في سماط العدول (١) بالخط العريض حيث يرى ذلك كل الناس ، هذا البيت :

لقد طلبت هيناً موجودا ابهتاً تريد أم فنودا

وكل ذلك كان زجراً لهم وتقويماً لاعوجاجهم وأخذاً للبريء بتهمة المجرم كي يستقيموا جميعاً على الطريقة ويؤدوا الشهادة على وجهها .

ولقد كان له في هذا الباب اختيارات وانظار تقوم على الاحتياط لحقوق الناس واقامة ميزان العدل بينهم ، ولا سيما في الأحوال الشخصية كعقد الزواج بالفاتحة وعدم الحكم بالطلاق إلا بعد التحري من وقوعه فعلاً مما يهدف إلى صيانة العلاقة الزوجية من التلاعب والمحافظة على بناء الاسرة من الانهيار ، وهذه التقنينات حرية ان تخص بالدراسة ، وتناولها هنا مما يضيق عنه المقام .

(١) يطلق سماط العدول في المغرب ويراد به الشارع الذي يحتوي مكاتبهم .

الثالث – ميدان التعليم . وكلنا يعلم ما كانت عليه الحياة العلمية في بلاد الإسلام عموماً على عهد السلطان من الضعف والركود ، وما ذلك إلا للارتكاس الذي أصاب طرق التعليم ومناهجه والجمود على المخلفات سواء كانت نافعة أم ضارّة بحيث لا يفكر أحد في التطور الذي حصل في العالم في ميادين الصناعة والفنون ولا يحاول أحد ان يأتي بجديد يُلقّحُ به القديم ، فيصل الحاضر بالماضي الذي كان يزخر بالعبقريات المنتجة والمبتكرة في كل مجال ، وفكر السلطان في علاج هذا الوضع ، وعلاجه هو علاج القرويين التي كانت الجامعة الوحيدة في بلاده والمرْكز المختص بتكوين العلماء والهيمنة على شؤون الفكر باختلاف مناحيه . وكانت الخطوة التي خطاها في هذا الباب هي وضع منهاج جديد للدراسة في القرويين وسائر المعاهد التابعة لها ، ألزَم به العلماءَ والمدرّسين وتوعد على مخالفته ، فكان أول تنظيم رسمي للدراسة في هذه الجامعة الإسلامية الكبرى وربما سبق كل تنظيم آخر من نوعه في أية جامعة إسلامية أخرى .

ويتلخص هذا المنهاج في الأمر باحياء الدراسات الأصْلية من الكتاب والسنة وعدم الاعتماد في الدراسات الفقهية إلاّ على كتب الأقدمين مثل المدونة لابن القاسم والبيان والتحصيل لابن رشد وغيرهما وترْك دراسة المختصرات وكتب المتأخرين كمختصر الشيخ خليل الجُنْدي المصري وشروحه للاجاهرة الذين نهى عن الاعتماد عليهم في الاحكام والفتوى على ما سبق . وكان هذا المختصر قد استأثر باهتمام الاساتذة والطلبة على السواء وقصروا نظرهم عليه وعلى شروحه المذكورة حتى لم يبق لهم التفات إلى كتب الأمهات ، ولا إلى كتب

الحديث والتفسير إلا نادراً جداً . وهذا فضلاً عن أنهم يستغرقون السنين الطوال في دراسته ولا يتأتّى للطالب ان يَمُرَّ فيه كلّه ويختمه ولو مرة واحدة إلا إذا لفّق بين دروس عدد من العلماء التي يُلقُونها حوْلَه ، وذلك من كثرة الابحاث اللفظية والمماحكات القليلة الجدوى ، فأمر من يريد أن يُدرّسه ان لا يستعمل إلا شروحه المبسوطة المحرَّرة كشرح الحطّاب والموّاق وان يختمه في أقرب وقت ممكن ، وكذا أمر بالحرص على ختم الكتب المقررة في بقية العلوم من نحو ولغة وبلاغة وأدب ، وعيّن كتبها المفضّلة وحدّد زمن قراءتها ، وفي علم الكلام نهى عن تدريس كتب الاشاعرة والاخذ بمذهبهم وحض على مذهب السلف وعقيدتهم ، وأمر في ذلك بالاقتصار على عقيدة ابن أبي زَيْد القَيْرواني الواردة في رسالته المشهورة ، وهدد المخالف بالعقاب كما حظَر الاشتغال بكتب الفلسفة والمنطق والتصوف ولم يُجوّز لأحد ان يتدارس هذه العلوم إلا في بيْته .

ومن المهم معرفة ان السلطان محمد بن عبد الله كان له ميل شديد إلى مذهب أهل الحديث والعمل بالسنة فقهاً واعتقاداً وهو في ذلك شبيه بيعقوب المنصور الموحدي إلا أنه لم يغلُ غلوَّ يعقوب فيأمر بحرق كتب الفقه ، وسمّى مسجده العظيم الذي بناه بالرباط **جامع السنّة** وهو لا يزال يحمل هذا الاسم وكان له مجلس من أهل العلم يسردون له كتب الحديث ويخوضون في معانيها ويؤلفون له ما يستخرجه منها على مقتضى اشارته ، فمن مؤلفاته كتاب الفتوحات الالهية في أحاديث خير البرية مجلد جمع فيه ما اتفق عليه الأئمة أبو حنيفة والشافعي

وأحمد والبخاري ومسلم ومالك ، ثم ما اتفق عليه اكثرهم إلى ان ينفردوا ، ومنها كتاب الجامع الصحيح الاسانيد المستخرج من ستة مسانيد ، وهي المذكورة قبله رتّبه على أبواب الفقه ، ومنها اختصار شرح الحطاب على مختصر خليل ، وهذه الكتب تدل على علو همته، وعظيم شغفه بالحديث النبوي وتمسكه بالسنة ، وذلك هو ما يُفسّر لنا قِلّةَ احتفاله بالعلوم العقلية والتصوف حتّى استبعدهما عن منهاجه وأمر أن لا تدرس في القرويين والمعاهد العلمية الأخرى ، متأثراً بما عرف من عزوف علماء الحديث وأهل الأثر عموماً عن هذه العلوم وتحذيرهم من الاشتغال بها .

وعلى كل حال فالمنهاج وان لم يُدخِلْ عِلْماً جديداً في الدراسات القروية بل استبعد بعض ما كان موجوداً فيها ، فإنه كان محاولة لتجديد أساليب التعليم واحياء التراث الإسلامي وطيّ مراحل التحصيل التي كانت تستنفد الأعمار من غير كبير فائدة ، ويا ليته استمر العمل به وجُدّد من حين لآخر ، إذنْ لكان آتى أُكْلَه واعطى نتائجه ، ولكن العلماء كانوا غير مؤمنين به فلم يخلصوا في تطبيقه وما ان توفي السلطان وخلفه من خلفه حتّى أذِن لهم بالرجوع إلى ما كانوا عليه ، وكل يعمل على شاكلته .

لقد نجح السلطان سيدي محمد بن عبد الله في كل ما قام به من منجزات وأعمال لصالح الدين والوطن لأنه كان ذا فكر عبقري وهمة عالية وكان في جميع أعماله يحدوه الاخلاص والنصح للرعية فأتم الله عليه نعمته بالتوفيق والتسديد ، والشيء الوحيد الذي لم يسرْ حسب رغبته هو مخالفة ولده مولاي

اليزيد عن نهجه في السياسة والاصلاح ، ولذلك فإنه لما توفي بعده لم يُبْق على ما بناه والده وتضعضع كيان الدولة من جديد بعد ما كان قد أرساه هذا السلطان المصلح على قواعد راسخة .

وتوفي سيدي محمد بن عبد الله في طريقه إلى الشّمال بقصد استصلاح حال ابنه اليزيد ، وكان عند خروجه من مراكش قد أصابه مرض خفيف ، فتحمل المشقة وجد في السير فغلبه المرض وتوفي بالقرب من رباط الفتح في ٢٤رجب ١٢٠٤ فحُمِل إلى الرباط ودفن بها في داخل قصره المعروف،رحمه الله ، وقد كان له من العمر حين توفي سبعون سنة وقضى في الملك ثلاثاً وثلاثين سنة .

ومما مُدِح به قول صاحب الشمَقْمَقِيَّة :

مُذْ كان طفلاً والسماحُ دابُه	وغيرَ مأخذ الثنا لم يعشَق
نشأ في حجر الخلافة ومُذ	شبَّ فتىً بغيرها لم يعْلَق
فبايعته الناس طرّاً دفعةً	لم يكُ فيها أحدٌ بالأسبق
وأُعطيت قوس العُلا مَن قد برى	أعوادَها رعاية للأليق
فصار فَيْءُ العدل في زمانه	منتشراً مثل انتشار الشرَق
وشاد ركنَ الدين بالسيف وقد	حاز بتقواه رضى الموفّق
وقد رقَى في مُلكه معارجاً	لم يك غيره إليها يرتقي

ذكريات

مشاهير رجال المغرب

بقلم

عبد الله كنون

دار الكتاب اللبناني — دار الكتاب المصري
بيروت - لبنان — القاهرة ج م ع

طبع على مطابع دار الكتاب اللبناني
رأس النبع - بيروت هاتف: ٢٥٨٧٠٠

الاصيلى

36

وزارة المعارف المكتبات المدرسية

الاصيلي

اسمه ونسبه ، مغربيته ، والده ، نشأته العلمية ، رحلته ، مشائخه وتوسعه في الرواية ، ثناء الناس عليه ، رئاسته بقرطبة ، بعض أوصافه ، بعض من فتاواه ، تآليفه ، روايته للبخاري ، حديث من طريقه ، وفاته وما قاله عند احتضاره .

هو الامام الفقيه المحدث ، أبو محمد عبدالله بن إبراهيم بن محمد بن عبدالله ابن جعفر الأموي الأصيلي نسبة إلى مدينة أصِيلا المعروفة بالمغرب، الواقعة على المحيط غَرْبيّ مدينة طنجة ، وهي من المدن القديمة كجارتها طنجة .

ذكره بالنسب الأموي أبو عبدالله الحُمَيْدي في جذوة المقتبس وتبعه على ذلك أبو جعفر الضَّبِّي في بُغية الملتمس ، ونَقَلَ القاضي عياض في المدارك عن ابن الحذاء أن جده كان من مسلمة أهل الذمّة ، وإذا صحّ هذا فإن نسبه في بني أُمية يكون بطريق الولاء .

* * *

وتشكك قوم في مغربيته ، وزعم آخرون أن أصله من الأندلس ورحل به أبوه إلى أصِيلا .

ففي معجم البلدان لياقوت تحت اسم أصيل ما يلي: بلد بالأندلس قال سعد

الخير ربما كان من أعمال طليطلة .. ينسب إليه أبو محمد عبدالله بن ابراهيم الأصيلي ... وذكر هذا البلد أيضاً في القاموس وزاد شارحه قائلاً : كما في العباب ومعجم ياقوت ، ثم نقل قول سعد الخير في نسبة الأصيلي اليه .

وأنكر العلامة ابن الطيب الشّرْقي مُحشّي القاموس وشيخ مُرتضى الزّبِيدي شارحِه أن يكون هناك بلد اسمه أصيل لا في الأندلس ولا في المغرب ، وإنما المعروف أصيلا وهي بلدة في المغرب ، ويقال لها أزِيلا بالزاي ، ومنها الأصيلي راوية البخاري وغيره . لكن الزبيدي تعقبه بأن ياقوت والصّاغاني أثْبتاه وهما حجة ، فكيف يصح إنكاره ، هذا بالنسبة إلى البلد الأندلسي المسمى أصِيل وأما بالنسبة إلى المترجم وأنه من أصِيلا المغربية فإنّه أيّد قول شيخه ابن الطيب .

ويمكن أن نعلّـق على قولِ الزبيدي بأن اثبات ياقوت والصاغاني وحدهما لا يكفي ، لأنهما مشرقيان بعيدان عن بلاد الأندلس والمغرب ، فربما اشتبه عليهما الأمر وظنّا أصِيلا من الأندلس وقرآها أصِيلاً بلام منصوبة وهي أصيلا بلام ألف . ويدل على ذلك أن من نسب المترجم إلى الأندلس من الأندلسيين أنفسِهم، وهم غيرُ واحدٍ ، لم يذكروا أصِيلاً هذا ، وإنما ذكروا أصيلا المغربية وأن أباه رحلَ به إليها وهو صغير فنُسِب إليها . ولو كان هناك بلد يسمى أصِيلاً بلام منصوبة لما عدَلُوا به عنه ، لا سيما مع ما عُرِف من تعصّبهم في هذا الباب حتى لقد قال قائل منهم مرة في أحد الأعلام: انه ممن يُبْخَلُ به على العُدْوة [1] ...

والبَكْري وهو من أعلامهم والمُعتَمد عليهم في هذا الشأن ، لم يذكر

---

(١) يعني المغرب .

بلدَ أصيل الأندلسي وإنما ذكر مدينة أصِيلا المغربية ، كما نقل ذلك عنه ياقوت نفسه ، واستدل به فيما استدل على كون الأصيلي مغربياً .

فإنه بعد كلام سعد الخير المتقدم قال : وذكره أبو الوليد بن الفـَرَضي في الغـُرباء الطارئين على الأندلس ، ونقل كلامه ، ثم قال في نهايته : ويحقق قولَ ابن الوليد أن الأصيلي من الغـُرباء لا مِن الأندلس كما زعم سعد الخير ما ذكره أبو عبيد البكري في كتابه المسالك عند ذكره بلاد البربر بالعُدوة بالبـَرِّ الأعظم فقال : ومدينة أصيلة أولُ مدينة مما يلي الغـَرب وهي في سهلة من الأرض حولها رَوابٍ لِطاف ، والبحر بِغـَرْبِـها وجَنوبها ، وكان عليها سور ، ولها خمسة أبوابٍ فإذا ارتجّ البحر بلغَ الموجُ حائطَ الجامع وسوقها حافلة يوم الجمعة ، وماء آبار المدينة شَرُوب وبخارجها آبار عذبة ، وهي الآن خـَراب ، وهي بغـَرْبِيِّ طنجة بينهما مرحلة .

إنتهى كلام البكري بنقل ياقوت . وهو أعظم حجة في شؤون المغرب والأندلس من ياقوت والصاغاني كما لا يخفى . والغريب أن وصفه لأصيلا ما يزال منطبقاً عليها حتى الآن ، إلاّ في قوله أنها خراب فقد عمرت بعد ذلك وعادت إلى ما كانت عليه ، وإلاّ في أن سُوقها يوم الجمعة فقد صار يوم الخميس ، ولعله إنما نُقل من أجل التفرغ لصلاة الجمعة . فإن أهل أصيلا من التدين بمكان .

ولما نَقـَل مُرتَضى كلامَ ياقوت هذا كتب بعده «فتأمل» . ولعله لم يستَبِن الحجةَ فيه على كون الأصيلي مغربياً كما قال ياقوت : إنه مما يحقق كلامَ ابن الفـَرَضي . والحجةُ هي أنه لو كان هناك بلد أندلسي باسْم أصِيل لذَكـَرَه البكري وفرّقَ بينه وبين أصيلا المغربية ، فسكوتـُه عنه دليل على

عدم وجوده ، وهو مما يصحح كلام ابن الطيب شيخ مرتضى في أنه لا يُعرف في المغرب ولا في الأندلس بلد بهذا الاسم ، وإنما المعروفِ أصِيلا في المغرب .

ونزيد على هذا فنقول ان سعدَ الخير نفسَه الذي زعم أن الأصيلي من الأندلس من البلد المسمى بأصيل ، لم يحقق مَوْضِعَ هذا البلد وإنما قال فيه : ربما كان من أعمالِ طُلَيْطِلة (وربما) هنا دليل على العدم لا سيما مع تفرد قائلها بذلك وعدم موافقة أحد له عليه .

* * *

ولنستمع إلى ما قاله الذين نسبوه إلى الأندلس . قال ابن مفرج كما في المدارك أصله من كُورة شذونة . وقال ابن الحذّاء أصله من الجزيرة الخضراء ، وكان جده من مُسْلِمَة أهل الذمّة ، ورحل به أبوه إلى أصيلا من بلاد العُدوة . فسكنها ونشأ أبو محمد بها ، وطلب العلم بالآفاق ، ويقال بل وُلدَ بأصيلا فيما قاله ابن عائِذ .

فهؤلاء ثلاثة من الأعلام كلّهم أعْرَفُ بالأصيلي وبَلَده المغرب والأندلس ممن ذكر مرتضى ، وكل منهم تبنّاه للأندلس بطريقةٍ أو بأخرى ، ولكنهم في الأخير يُرجعونَ نسبَه الذي اشتهر به إلى أصيلا المغرب ، ولا يُعرّجون على شيء اسمه أصِيل قيل انه بلد بالأندلس .

ولعل في هذا ما يكفي لاثبات مغربية الأصيلي جزماً لا شكاً ، وإن كان أمر وجود بلَدِ أصِيل في الأندلس غيرَ مُهم بالنسبة إلى هذه الحقيقة التاريخية .

* * *

ورحلةُ ابراهيم والد المُترجَم من الأندلس إلى أصيلا غريبة ، فالمعهود

كان في ذلك الابان هو رحلة المغاربة إلى الأندلس لطلب العلم والجاه والمال ، لا العكس وحتى لو رحل أحد الأندلسيين إلى المغرب لَقَصدَ المدن الكبيرة كطنجة وفاس لا مدينة صغيرة كأصِيلا ، إلا أن يكون ذلك لِمُوجب خاص كوجود بعض العائلة بها وحينئذ يحتمل أن أصله الأصيل من المغرب ، وأن رجوعه كان إلى الأصل ، لأن رحلته إلى الأندلس كانت عارضة .

وفيما نعرف من حاله أنه كان أديباً شاعراً على ما ذكره المؤرخون ، ما يعضد هذا الاحتمال ، فلعله إنما كان يقيم في الألدلس لعمله بها . وحكى عياض عن ابن الحذّاء أنه كان ورّاقاً للحكَم . وهو الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر خليفةُ قرطبة الشهير ، كانت له مكتبة تَعُدُّ أربعمائة ألف مجلد فيما قيل ، فعمَلُ ابراهيم كان في هذه المكتبة إذن . وقد ولي الحكم الخلافة بعد وفاة أبيه سنة ٣٥٠ وفيما يذكرون عن المترجم أن قُدومه إلى قرطبة كان سنة ٣٤٢ فهل سبق أباه إليها أو أن أباه كان هناك من قبل ؟

وتقول رواية أخرى عن ابن عائذ : أنه تفقه بقرطبة منذ صباه ، وابن عائذ هذا هو الذي قال ان المترجم ولد بأصيلا كما تقدم ، فيكون دخوله إلى قرطبة في السنة المذكورة وهو ما يزال فتيّ السن ، بل صبياً كما عبّر ابنُ عائذ ، وإن كان في ذلك مبالغة على ما سنشير اليه فيما بعد . ومع ذلك فلا ندري أدخلها في صحبة أبيه أم وحده . وعلى كل فإن المغرب آنذاك كان في حكم التبَعيّة للأندلس ، والمصالحُ العامة ، فضلاً عن الخِدمة ، تستدعي التنقل كثيراً بين العُدوتَيْن [1]، فلا جرَم أن نرى الأصيلي ووالده موزّعيْن بين المغرب والأندلس في فترات مُتقاربة ، الوالدُ للعمَل والولدُ للطلَب .

---

(١) الأندلس والمغرب .

ولعلّ ذلك هو السرّ في توجيه ابراهيم ولدَه إلى قرطبة للتعلم منذ صباه ، وعدم توجيهه إلى فاس كما جرت العادة ، فإنه في قرطبة يتمكن من مُراقبة ابنِه وتتبع مراحل دراسته ، ولا كذلك في فاس . على أن ابراهيم لم يكن حَسَنَ الرأي في فاس ، وربما قصدَها لغرض تعليم ابنِه فيها أولاً ، ولكنه لم يحمَد قصدَه فقال فيها هذين البيتين من الشعر يذمّها :

دخلتُ فاساً وبي شوقٌ إلى فاسِ والحَيْنُ يأخذ بالعينين والراس
فلستُ أدخل فاساً ما حَيِيتُ ولو أُعطِيتُ فاساً بمَنْ فيها منَ الناس

ولسنا ندري ما وقع لصاحِبنا في فاس حتّى قال فيها مقالتَه هذه بعد ما كان متشوقاً اليها ، وإنما المهم أن لا تُؤْخذ كلمتُه دليلاً على أندلُسيته ، لِمَا عُلِم من سوء رأي أدباء الأندلس في المغرب ، لأنه ان كان هجا فاساً فقد مدح بلدَه أصيلا ، ولم نسمع أنه قال شيئاً في الأندلس .

وهذا قوله في أصيلا ، من قصيدة له :

سقَى غرْبِيّ أرضِ بني زياد سحائبُ ما يجفّ لها غروب
ولا زال النعيم يعُمّ قوماً إزاءهم من الشّرْقِ الكثيب

قال ابن عَذاري ، وهو يصف أصيلا : «وحولها من القبائل لَواتَة في القبْلة ومن هَوّارة قوم يعرفون ببني زياد ، بينهم كُدْيَةٌ رمل عالية .. فهذا ما يقصِدُه ابراهيم في شعره .

* * *

ولعلنا وقد عرفنا مكانة هذا الوالد الأدبية ، نُقدّر ما كان له من يد في تربية ولده وحسن تنشئته على طلب العلم منذ صغره ، فبعدما حفظ

القرآن وشدا طرفاً من أوّليات المعارف في بلده أصيلا على ما يظهر ، توجه إلى قرطبة وهو ابن ثمانيَ عشْرَةَ سنة ، فقد ذكر ابنُ الفَرَضي أنه توفي عن ٦٢ سنة ودخوله لقرطبة كما علمنا كان سنة ٣٤٢ فيكون عمرُه حينئذ ١٨ عاماً تقريباً . فتفقّه فيها بِشَيْخيها اللؤلؤي وأبي ابراهيم وسمع أحمد بن حزْم وابن المشّاط والقاضي ابن السّليم وابن الأحمر وأبّان بن عيسى بن دينار الأصغر ونظائرهم ، وهو بعدُ شاب يافع كما سبق عن ابن عائذ ، ولم يقتصر في الأخذ على علماء قرطبة فتوجّه إلى وادي الحِجَارة وأخذ عن ابن مسَرّة الحِجاري ، وإلى بجانة فأخذ بها عن ابن فَحْلُون كما في المدارك ، وربما أخذ عن غير هؤلاء بغير هذه المدن من بلاد الأندلس .

ونظنّ أن والده الأديب إنما وجّهه هذه الوجهة الفقهية لِمَا كان يراه للفقهاء وعلماء الشرع بالأندلس من مكانة سامية عند الناس وذَوي الأمر ، وقد صدق حَدْسُه فأدركَ ولدُه بعد ذلك من شفوف المنزلة وعلو القدر ما ما لم يُعهَد إلا لكبار العلماء في ذلك العهد .

* * *

وبعد تقصّيه في طلب العلم بالأندلس ، رحل إلى المشرق سنة إحدى وخمسين أو اثنين وخمسين ، فلقي شيوخ افريقية كأبي العباس الإبْياني التونسي ، وأبي العرب التميمي ، وعلي بن مسرور ، وعبدالله بن أبي زيد القيرواني ، وكتب عنه ابنُ أبي زيد بعضَ ما أخذه عن شيوخه الأندلسيين ، وهي أول ما بدا من تصدّره وناهيك بها .

ولقي بمصر القاضي أبا الطاهر البغدادي ، وابن رشيق وحمزة الحافظ ، وأبا اسحق بن شعبان ومحمد بن عبدالله بن زكرياء النيسابوري ، وأبا أحمد

ابن المُفسّر وغيرهم .

وحج سنة ثلاث وخمسين فلقي بمكة أبا زيد المَرْوَزي ، سَمِعَ منه البخاري ، وأبا بكر الآجُرّي . وبالمدينة قاضيَها أبا مروان المالكي .

وسار إلى العراق فلقي بها الأبْهَرِيّ رئيسَ المالكية ، وأخذ عنه الأبْهَرِيّ أيضاً وسمع من الدارَقُطْني ، وسمع منه الدارقطني أيضاً ، وقد حدث عنه كثيراً في كتابه في الرواة عن مالك . وسمِعَ بها كذلك من أحمد بن يوسف ابن خلاّد وأبي علي الصوّاف وأبي بكر الشافعي وغيرِ واحد من تلك الطبقة وممن يليها ببغداد وبالكوفة والبصرة وواسط . واضطرب بالمشرق مدّة طويلة وأكثر الجَمْع والرواية . قال ابنُ الحذّاء : أقام بالمشرق نحو ثلاثة عشر عاماً . وسمع ببغداد عرْضتَه الثانية في البخاري من المَرْوَزي وسمعه أيضاً من أبي أحمد الجُرْجَاني ، وهما شيخاه في البخاري وعليهما يعتمد .

هذه جماعة من شيوخه ذكرهم القاضي عياض وغيرُه . ونَرى أن فيهم من الأكابر مَن أخذ عنه وتدبّج وإياه ، مِمّا يدُلّ على جلالة قدره وأنه في رحلته العلمية كان بمثَابَة من يأخذ ويُعطي لاستكمال تحصيله وسعة روايته .

وقد أخذ عنه الجَمّاءُ الغَفير منهم أبو عِمْران الفاسي وابنُ الحذّاء والمُهَلّبُ وأخوه محمد وعيسي بنُ سعادة وأبو المُطَرّف الأنصاري وهشام ابن أكْدر وأبو محمد الطُلَيْطِلي وعلي بن أحمد وغيرهم ، وأثنى عليه المَشْيَخة الثناءَ العاطر ، قال ابن الحذّاء : لم ألق مثله في علمه بالحديث ومعانيه وعِلَلِه ورجاله . وقال المهلب وذكر مشيختَه فأجلّهُمْ علماً وفقهاً وأثبتُهم نقلاً وأصحّهُم ضبطاً وأرفعُهم حالاً وأعدلهم قَوْلاً أبو محمد الأصيلي . وقال ابنُ حيّان : كان أبو محمد في حفظ الحديث ومعرفة الرجال ، والاتقان

للنقل والبصر بالنقد والحفظ للأصول والحذق برأي أهل المدينة والقيام بمذهب المالكية والجدل فيه على أصول البغداديين فرداً لا نظير له في زمانه ، بلغني من غير واحد أنه وُجِد في كتاب الدارقطني : وحدثني أبو محمد الأصيلي ولم أرَ مثله . وقال غيره ، كما في المدارك: كان الأصيلي من حفاظ رأي مالك، والمتكلمين على الأصول وترك التقليد ، من أعلم الناس بالحديث وأبصرهم بعلله ورجاله ، ويحضّ أصحابَه عليه ، ولا يرى أن مَن خلا من علمه يُعد فقيهاً على حال . ولما ورد أبو يحيى بن الأشَجّ من المشرق ، وكان قد روَى كتاب البخاري سُئِل إسْماعَه ، فقال : لا يَراني اللهُ أُحدّثُ به والأصيلي حيٌّ أبداً ، فلما مات الأصيلي أسْعَف . قال ابن الوليد : لما دخلتُ القيروان أتيت أبا محمد بن أبي زيد فقال لي ما حاجتك ؟ قلت الأخذُ عنك . فقال لي ألمْ يقدم عليكم الأصيلي ؟ قلت بلى . قال لي: تركت واللهِ العلمَ وراءَك ، فكيف حالُه مع أهل بلده ؟ فأخبرته بظلمهم له . فقال : جهِلوا ما أتَى به ، وأتيتُ القَابِسي فجرى لي معه مثل ذلك ..

قالوا : وسمع به الحَكَم وهو في المشرق ، يعنون سمِع بعلمه ورسُوخ قدمه في الفقه والحديث ، فلعله استدعاه إلى قرطبة ، فلما وصل إلى المَرِيَّة مات الحكم فانعكس أملُ الأصيلي ، وبقي حائراً لا يدري ما يفعل .

وعبارة الخبر فيها غموض ، فإنها لم تفصح باستدعاء الحكم له ، ولكنه مفهوم من السياق ، ويظهر أنه أبطأ في تلبية الدعوة لأن الحكم سمع به من مدة طويلة كما جاء في رواية هذا الخبر ، وهو لم يُسرِع في العودة إلى الأندلس. والحكَمُ لا يغيب عنه خبر صاحبنا وأبوه إبراهيم ورّاقُه ، وهو يراه كل يوم في مكتبته التي كانت تأخذ من وقته حصة مهمة . والأب مَشُوق إلى

ابنه لا أحَبَّ إليه من أن يعود إلى بلده بالحالة التي تَسُرُّ قلبَه وتُقِرُّ عينَه فيلقَى من تقدير الحكَم وإقبال الناس عليه ما هو أهل له .

على أننا لا نجزم بأنه لما عاد كان والده ما يزال حياً ، فالمصادر التي نرجع إليها في ترجمته تسكتُ عن هذا ومثلِه ، ونحن انما نفرِض ونقدّر ما يحتمل أن يكون ولا يبعد وقوعه .

وعلى كل حال فقد سار صاحبنا إلى قرطبة ونشر بها علمه فطار ذكره وعُرِفَ مكانه وشَرِق به فقهاؤها وتضايقُوا منه ، فغضّوا من قَدْره وتحاملُوا عليه حتى ندم على رجوعه وهمّ بالانصراف إلى المشرق ، فعلِم المنصور ابن أبي عامر بحاله وهو الذي تولى أمرَ الدولة بعد وفاة الحكم ، فقرَّبه ونوَّه به ، وأجرى عليه من الرزق ما كفاه .

ثم ارتقى شأنه بتقليده الشّورى ، وأخذ الناس عنه ، وأدرك جاهاً عظيماً بإقبال ابن أبي عامر عليه وتعظيمه له . قال أبو اسحاق الشّيرازي : وممن انتهى إليه هذا الأمر من المالكية بالأندلس أبو محمد الأصيلي ، يعني رياسةَ العلم ، وقال ابن عفيف رحل وتفقه فاحتوى على علم عظيم، وقدِمَ الأندلس ولا نظير له فيها في الفهم والنبل . وقال الضَّبي في البُغْية : «أكثر الجمع والرواية ورجع إلى الأندلس فساد في ذلك ولم يكن ينافسه إلا القاضي ابن زَرْب ، فنشأت بينه وبين أصحابه مُشَاحنَة ، أثارتْها المنافَسة وعلُوّ كَعْب الأصيلي في العلم ، فأراد ابن أبي عامر صلاح حالهم بتفريقهم فقلّد الأصيليّ قضاءَ سَرَقُسْطة ، فدارت بينه وبين واليها مُناقشة في أمور أنكرها عليه الأصيلي ، فحلَف الوالي أن لا يَلِيَ معه ، فصرَفه ابن أبي عامر عن القضاء صرْفاً جميلاً أراه حاجتَه إليه بالحضرة ، فأقام على حاله الأولى رأساً في أهل

الشّورى بقُرْطُبَة لا سيما بعد وفاة قاضيها ابن زَرْب فإنه استكملتْ رياستُه، حتى صار بالأندلس نظيرَ ابن أبي زيد بالقيروان وعلى هَدْيه .

ويذكرون أنه كانت في خُلُقه زَعارة أي شراسة تُخرِجه أوقاتَ الغيظ عن حدّ الاعتدال ، وأنه أُبلِغَ عن القاضي ابن زرب رحمه الله يوماً كلاماً عرّض به فيه فساءه ذلك وحرك من ضجَره ما شقّ صدرَه غضباً وتمثّل :

لبستُم ثياب الحَزّ لمّـــا كُفيتُمُ ومِن قبلُ ما تدرون من فَتح القُرى
وُقُوفاً بأطراف الفِجاج وخيلُنــا تَساقى كؤوسَ الموت تدعون بالقَنا
فلما أكلتُم قتلنا بسِلاحنــــا تحدّثَ مكفِيّ بعَيْب الذي كفَى

ويحكى أنه ناظرَ ابنَ أبي زيد يوماً في مسألة ، فاحمرّ وجهه واحتَدّ مزاجه ، فقال له ابن أبي زيد : قال بخلاف قَوْلك فلانٌ ، فقال لو قالها فلانٌ مــا صدقتُه أو لكان خطأ أو نحو هذا الكلام مما أسرف فيه ، وعلا بفَرْط حرَجه ، فانتدب له البَرادِعي وتولاه ووجد للمقال سبيلاً وأنكر عليه كلّ مَــن حضر ، ولكن البَرادِعي هو الذي تولى ذلك بفرط حرَجٍ منه أيضاً . فخرج الأصيلي . فكان ذلك سبب مقاطعته مجلِسَ ابن أبي زيد فيُقال ان ابن أبي زيد قال للبرادِعي : لقد حرَمْتنا فوائدَ الشيخ بإسرافك في الرد عليه .

ومن هذا النحو ما ذكره بعضهم أنه هنأه بالشورى حين تقلدها ، فقال : لعن الله الشورى ان لم أرفعها ، ولعنني ان رفعتني .

ومع ذلك فإنه كان في فتواه غير متشدد ولا متعصب ، وأحضره ابن أبي عامر في جملة الفقهاء فاستشارهم في أرض موقوفة على بعض كنائس أهل الذمة أراد شراءها فمنعه جماعة الفقهاء منها ، غيرَ الأصيلي وحده ، فإنه

أفتاه بجوازه ، واحتج لذلك فرجع ابن صاعد منهم إلى قوله .

وأفتى لابن عامر أيضاً بجواز الصلاة في العَمَّارية ، وهي مركبة كالهودج، كان يلزم الركوب فيها في أسفاره ، واباحة ذلك في الفريضة ، دون النزول بالأرض إذْ كانت صلاتُه إيماءً ، للوَجع الذي كان أصاب قدميْه من علة النِّقْرِس ، وهي إحدى روايتي ابن القاسم عن مالك في المدونة ولم ير غيره هذه الفتيا ومنع ذلك حتى يباشر الأرض .

وكان يُخطىءُ القول بنبوة مريم أم عيسى عليهما السلام ، ويقول هي صِدّيقة . وكان يُنكِر الغُلُوّ في كرامات الأولياء ، ويثبت منها ما صح سنده أو كان بدعاء الصالحين .

ووقعت له في هذه المسألة حكاية مع القَبْري فإن هذا كان لتعلقه بالعلوم النظرية قد تعصب عليه الفقهاء وأهل الحديث ولا سيما ابن عون الله شيخ المحدثين وتلميذه أبو عُمر الطَّلَمَنْكِي ، وجرت بينه وبينهم قصص ومجاوبات في مسألة الكرامات ، وكان القبري يذهب فيها مذهب شيخه ابن أبي زيد في انكار الغلو فيها وكان أولئك يُجوِّزُونها ويتَّسِعون في رواية أشياء كثيرة منها ، فلما تفاقم الأمر بَينهم تدخل ابن أبي عامر فتدارك المسألة بتسيير جماعة من الطائفتين عن الأندلس إلى أرض العُدوة فيهم القَبْري فأقام بها مدة أخذ عنه فيها جماعة ، ثم تراجع خُفْيَةً إلى الأندلس . فورد قرطبة متستّراً ورمى بنفسه على الأصيلي ، وكان من حِزْبه ، ففزِع الأصيلي لذلك لسطوة ابن أبي عامر فوبَّخه القبري وقال له : افعل ما بدا لك ، فأنا متوكل على الله . فاعلم الأصيلي ابن أبي عامر ، وأنه لم يشعُر به حتى ورد عليه فعفا ابن أبي عامر عنه .

وكان الأصيلي أيضاً يعمل بالمزارعة على الثلث والربع ، ويرى ذلك ولا يقول بمنعها في المذهب . ويقول : هي ألْيَنُ مسائلنا وأضعفُها . وحجتُه حديث معاملة النبي (ص) أهلَ خيبر ، فإنه (ص) عاملهم على أن يزرعوها ويعملوا فيها ، ولهم شَطْرُ ما يخرج منها وما حُكِيَ عن عُمر وجماعة من أهل المدينة في ذلك .

فهذه مسائل مما كان الأصيلي يُفتي به ويذهب إليه ، وهي تدل على تساهله وفهمه لروح الشريعة السمحة ، فيما يمكن فيه التساهل ، وان كان في مسألة كرامات الأولياء قد أخذ بالاحتياط وراعى الأصل الذي انْبَنَتْ عليه الدعوة الإسلامية من تصحيح العقيدة وعدم شَوْبِها بما يؤدي إلى الانحلال . إلا أنه في بعض الأحيان كان يأخذ بالعزيمة كباقي فقهاء عصره ، ولا يترخص مثلما وقع منه في قضية المسجد الذي بناه ابن أبي عامر في مدينتِهِ الزّاهِرة بِطرَف قُرطبة الشَّرْقي ، وأراد التجميع فيه ، فمنعه الفقهاء من ذلك ، ذهاباً منهم إلى عدم تعدّد الجمعة في المِصْر الواحد وكان أصبغُ الفقيه ممن وقف في ذلك موقفاً شديداً فألزمه ابن أبي عامر بالصلاة فيه والخطبة فامتنع ،فسَخِط عليه وأسقطه من الفتوى والقضاء كما سَخِط على آخرين وعاملَهم بنفس المعاملة إلا الأصيلي وابن المَكْوي وابن الصفَّار وبعض الفقهاء الآخرين فإنه تغافل عنهم وان كانوا ممن أفتى بالمنع .

وفي رواية أخرى أنهم كانوا يصلون معه في هذا المسجد بإمامة ابن العطّار الذي انفرد بالافتاء له بالجواز ، ثم يعيدون الصلاة في بيوتهم مُجانبةً لحِقْد ابن أبي عامر عليهم . وإن صحّ هذا فنرى أن الأصيلي رجَع عن رأيه في المنع ، وهو الأوفق به وبسلوكه .

* * *

وألّف الأصيلي كتاباً في اختلاف مالك والشافعي وأبي حنيفة ، سماه كتاب الدلائل على أمّهات المسائل ، وهو أكبر كُتبه وأشهرُها لم يقصّرْ فيه عن حجة واجتهاد ، وعلى حسب ما في (كتاب الدّيباج) فإنه وضعه على المُوطّإ للامام مالك ، وقال ابن الفَرَضي : وقد حُفِظت عليه فيه أشياء وقف عليها أصحابنا وعرفوها . ولعل ذلك كان من أخْذِه أخْذَ العراقيين من أصحاب مالك على ما ألمع اليه الضبّي في البُغْية . وعلى كتابه هذا اقتصر جلّ من ترجموه ، ولكن القاضي عياضاً ذكر له أيضاً كتباً أخرى منها نوادرُ حديثه في خمسة أجزاء ، وكتاب سماه الانتصار ، ورسالة الردّ على ما شذّ فيه الأندلسيون ، وقد تكون في هذه المسائل التي حفِظها عليه مَن أشار لهم ابنُ الفَرَضِي ، ورسالة المواعد المنتجزة من الله تعالى في كتابه لرسوله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين ، وهذه الرسالة ذكرها ابن خير في فهرسته ورواها بسنده إلى الأصيلي .

ومما يذكر في أعماله العلمية روايته لصحيح البخاري عن أبي زيد المَرْوَزِي عن الفِرَبْرِي عن البُخاري ، وهي رواية حظيت بعناية كبيرة من العلماء وحفاظ البُخاري ، ويجد المرء أثرها فيما كتب على (الجامع الصحيح) من شروح وحواش إذ يقع التنبيه على اختلاف نُسَخِه ورواياته في بعض الكلمات والأسماء والتراجم بحسب ما رواه النّقَلَةُ والحفاظ عن مؤلفه ، فلا تخلو تلك الشروح والحواشي من الاشارة إلى الأصيلي وما جاء في روايته من ذلك، وهو أمر يدل على تقدير العلماء والمُحدّثين له واعتمادهم عليه لتثبته وحفظه وضبطه . وبذلك عُدّ من رُواةِ البخاري الأولين الموثّقين .

وقد كان ممن رواه عنه في الأندلس تلميذه وصهره المُهلّب بنُ أبي صفْرة،

وأخوه محمد والمهلّب من شُرّاح البخاري كما هو معلوم ... قال أبو الأصبغ ابن سهل القاضي عنهما : كان أبو القاسم وأبو محمد من كبار أصحاب الأصيلي ، وبأبي القاسم حَيّا كتاب البخاري بالأندلس ، لأنه قرىء عليه تفقهاً أيام حياته ، وشرَحه واختصرَه ، وله في البخاري اختصار مشهور سماه كتاب النّصيحِ في اختصار الصحيح ، وعلق عليه تعليقاً في شرحه مفيداً . وما دام السياق سياق روايته وحديثه ، فإننا نذكر في خاتمة ترجمته حديثاً من روايته في رحلته التي بلغ بها إلى حضْرَموْتَ كما يفيده الخبر على حسب ما جاء في المدارك عن أبي الحسن القابسي قال : قال لنا حمزةُ بن محمد الكِناني حين دخلتُ عليه أنا وأبو موسى عيسى بن سعادة وأبو محمد الأصيلي ووافقناه نازلاً في الدّرَج ، دَرج مسجد يقال انه مسجد ابن لَهيعة في حضرموت : مَن هؤلاء ؟ فقيل له قوم مغاربة . فوقف فسلمنا عليه ، ثم رجع فنظر في وجوهنا وقال : ما أرى إلا خيراً . حدّثونا عن محمد بن كثير عن سفيان الثوري عن عمرو بن قيس المُلائي عن عَطية العوْفي عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: احذَرُوا فِراسةَ المؤْمن ، فإنه ينظرُ بنور الله . وتلا: « إنّ في ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ » .

* * *

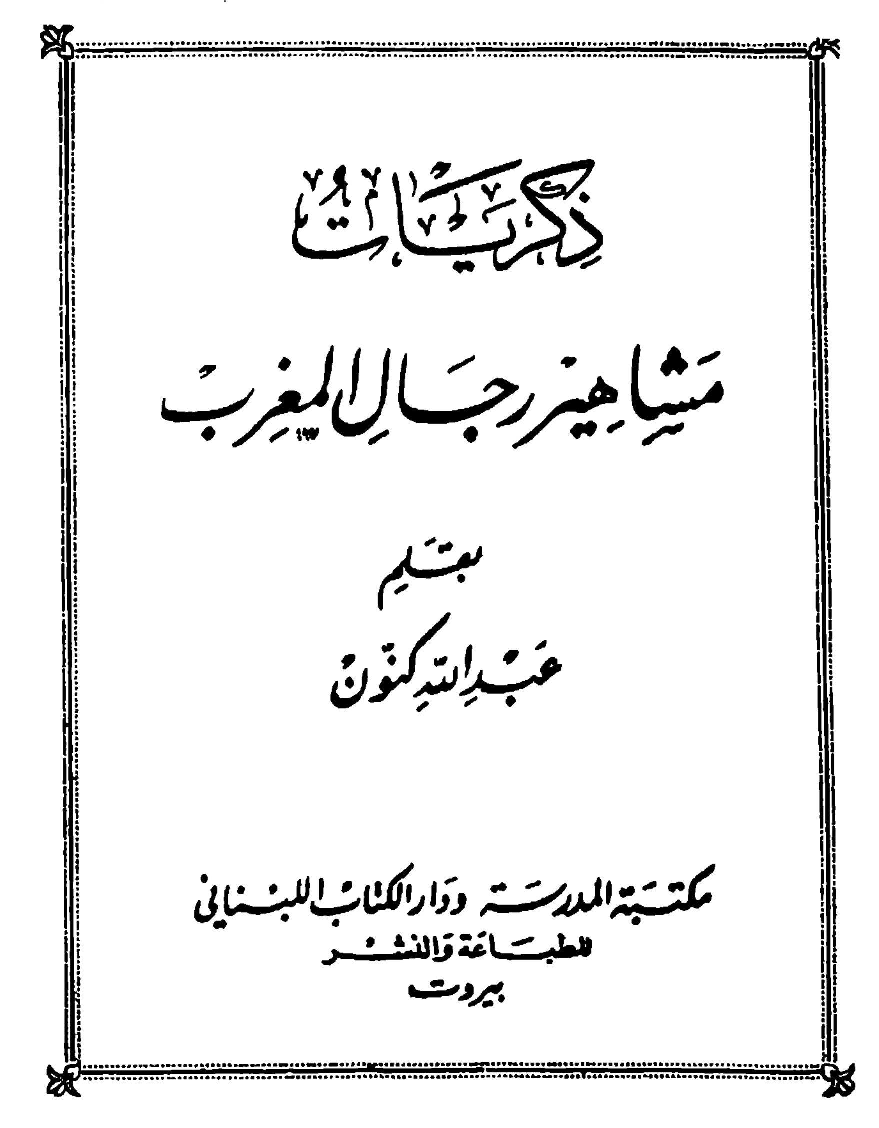
هذا وبقي الأصيلي على ما عُهِدَ منه من نشاط في نشر العلم والقيام بمَهامّه الدينية إلى سنة ٣٩٢ ، فتُوفي في ذي الحجة منها ليلةَ الخميس ، لإحْدى عشْرَةَ ليْلَةً بقيت من الشهر آخر السنة ودُفن يوم الخميس عند صلاة العصر بمقبرة الرّصافَةِ بقرطبة وصلى عليه القاضي أحمد بن عبدالله . قال ابن الفرضي وهو ابن ثمانٍ وستين سنة فيما بلغني .

وقال عياض في المدارك : وكان جمعه مشهوداً ، وجهّزه المظفّرُ ابن أبي عامر على عادته للفقهاء . وبعث إلى ابنه أكفاناً له وحُنوطاً من عنده ، رعايةً لمكانه من أبيه المنصور فقبل ابنُه كرامتَه . وجهّز أباه فيما كان أعَدّه لنفسه . وكان أراد أن يدفنه ليلاً ولا يُعلِم بجنازته ، فردّه عن ذلك صهرُه ابن أبي صُفْرة ، وأوصى أن يدفن في خمسة أثواب ، وكان آخر ما سمع منه لما احتُضِرَ: «اللهم إنّك قد وعدْتَ بالجزاء عند كل مصيبة، ولا مصيبةَ عليّ أعظم من نفسي ، فأحْسِنْ جزائي عنها يا أرحم الراحمين» . ثم خفَتَ.. وهي كلمة حكيمةٌ ومؤثرة .

وكان قد أعدّ قبره لنفسه ، يقف عليه ويتعظ به .. وكان كثيراً ما يتخوف من سنة أربعمائة ، وما يجري فيها من الفتن . فذكر يوماً شأنها في مجلسه ودعا الله تعالى أن يتوفاه قبلها ، وابنَه محمداً ، وسأل من حضَر التأمين ، وأن ابنه محمداً حاضرٌ كارِهٌ ، ففعل من حضر ذلك ، وأجيب دعاؤه ، فتوفي عما قريب كما ذكرنا . وتوفي ابنه بعده بأعوام رحمهما الله .

قال عياض : وكانت سنة أربعمائة ، فكان فيها من الفتن وخراب الأندلس ما كان .

المملكة العربية السعودية
وزارة المعارف
المكتبات المدرسية



ذكريات
مشاهير رجال المغرب

بقلم
عبد الله كنون

مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني
للطباعة والنشر
بيروت

عبد الله كنون

37



مُؤسِّس دولة المُرابِطين

عبدالله بن ياسين

أحد الفاتحين، مصلح بسط نفوذه على المغرب والاندلس، منشأه وطلبه للعلم ، المدرسة التي خرجته ، دخوله الى الصحراء معلماً وداعيا ، يحيى بن ابراهيم رب مثواه وحاميه، الوضع الديني في صنهاجة تنكر الصحراويين له، انقطاعه للعبادة في رباط ناء ، افاءة الناس اليه من جديد ، تربية المرابطين ، الخروج من الرباط وبدء الدعوة ، تطويعه لقبائل صنهاجة ، خضوع الصحراء كلها له ، اقامته لأحكام الشرع واستمالته لوجوه الناس ، زيادة تبيان للوضع الديني وسير الدعوة ، الأحكام الشاذة التي تنسب اليه، وفاة يحيى بن ابراهيم وتقديم يحيى بن عمر ، زيادة نفوذه الروحي ، الجهاد في السودان ، دخوله الى المغرب ومحاربته لدولة زناتة ، وفاة يحيى بن عمر وتوليته لإخيه أبي بكر ، محاربة الطوائف الضالة ، برغواطة ودينهم الفاسد ، اعمال عبدالله الاصلاحية ، وفاته .

* * *

هذا الرجل مؤسس دولة المرابطين ، ومُرْسِي قواعدِ الدين في بلاد المغرب ، ولا سيما في قبائل الجنوب والصحراء، انه ثالث ثلاثة رفعوا منار الاسلام في هذه الأرض ، وفتحوا القلوب والضمائر بعد فتح المدن والقرى ألاَ وهُمْ عُقْبَةُ بنُ نافع ، وادريسُ بن عبدالله ، وصاحبُنا عبد الله بنُ ياسِين هذا . فلقد أشبَه عمله عملَهما وعلى الأصح أتَمّ ما بدآ بِه ،

وكانت الفتن وعموم الضلالات المنتشرة بعد تقلص ظل الدولة الادريسية قد كادت تُطبق على البلاد وتُعفّي مَعالمَ الرشد ، فلولا ظهوره وقيادته لحركة المرابطين لتَعثّر سيرُ الاصلاح الكبير الذي أتى به الاسلام ، بل لتوقف واتخذ المغرب اتجاها أخر غيرَ ما هو عليه من التزام السنة والطريقة والارتباط بالأمة العربية إلى الأبد .

وكان أساس الخطة التي سار عليها موضوعا بعلم ومعرفة ، وعلى يد اقطاب من رجال المغرب ، كما سنرى ، أي إنها كانت انتفاضةً اصلاحية شعبية مُخلِصة ضد ذوي الأغراض والمطامع ، والمُغامِرين من أتباع المذاهب الزائغة والدعوات الفاشلة ، فلذلك كُتِب لها النجاح ، وبُسِط ظلها على المغرب كله وعلى أقطار أخرى في افريقيا وعلى الأندلس .

ونحن إذا أردنا أن نتحدث عن نشأة هذا الرجل وأوليته ، قبل قيامه بدعوة المرابطين ، لَمْ نجد بيدنا أيَّ خبر عنه ، ولا اشارة ولو إلى تاريخ مولده ، فلنكتف بما وصلنا من أنبائه بعد أن اسْتَوَى طالباً للعلم يرحل في تحصيله إلى الأندلس ، وينقطع هناك للطلب سبع سنين على ما عند ابن عذارى وصاحب الحُلل المَوْشِية .

وعلى كل حال فانتماؤه إلى جزُولَة وهي احدى قبائل اقليم سُوس بالجنوب المغربي ، وإلى قَصبتها تَمنارت بالتَّعيين هو مما لا ريب فيه ، وقد كانت جزولة من بين قبائل ذلك الاقليم قبيلةً مُنجِبة يحتفظ لنا التاريخ بأسماء عدد غير قليل من أبنائها النوابغ ورجالها اللاَّمعين . وكانت قَصبتُها تَمَنارت مركزَ ذاك الإنتاج الخِصْب ، حتى انه ليصدق فيها معنى اسمِها الذي نظن أنهُ محوَّل عن العربية أي المَنار . وحقا إنها لمَنارٌ مُشِع بالعلم والعرفان .

وكان دخوله إلى الاندلس فيما يذكر المصدَران السابقان على عهد ملوك الطوائف ، يعني في اوائل المائة الرابعة . ونظن أنه لم يُشبِع نَهمته من العلم لاضطراب أحوال الأندلس حينذاك ، وخصوصا في قرطبة دار العلم ومَهْوَى أفئدة طلابه ، بدليل أننا نجده فيما بعدُ ملازما مجلسَ وجَّاج بن زلّو أو رِباطَه الذي اتخذه ببلاد نفّيس في اقليم سوس كذلك، لتعليم القرآن ونشر العلم . وذلك حين ورد على وجّاج كتابُ الفقيه أبي عمران الفاسي من مدينة القيروان مع يحيى بن ابراهيم الكدّالي زعيم صنهاجة ، الذي اتصل بالفقيه الكبير في القيروان ، أثناء عودته من الحج ، وحضر مجلسه العلمي ، فطلب منه أن يبعث معه أحد طلبته لتعليم أبنائه وأبناء قبيلته كتاب الله وقواعد العلم ، فانتدب تلاميذه لذلك فلم ينتدب أحد لبعد الشقة والاشفاق من دخول الصحراء .

وكتب أبو عمران إلى تلميذه وَجّاج يوصيه أن يبعث مع يحيى إلى بلاده طالبا من طلبته ، يُوثق بدينه وورعه وعلمه ، ليعلمهم القرآن وشرائع الاسلام ويفقههم في الدين . ولما أوصل يحيى كتاب أبي عمران إلى وجاج جمع تلاميذه وقرأ عليهم الكتاب وندبهم لما أمره به الشيخ أبو عمران فانتدب لذلك مُترجمنا هذا ، وكان كما تقول الرواية من حذاق الطلبة الأذكياء النبهاء النبلاء ، وأهل الدين والفضل والتقى والورع والفقه والأدب والسياسة مُشارِكاً في العلوم الخ . .

ونحن نُزكّي هذه الأوصاف لأنا نعلم أن اقليم سوس كان ولا يزال مأرزَ الخير والدين والنباهة ، ولأن مدرسةَ وجّاج أو رِباطَه المُشار اليه كان يبث تعاليم أبي عمران الفاسي ، وهو إمام من أيمة الاصلاح الديني فضلا عن رسوخ قَدَمه في الفقه والحديث ، وقد ملأ بلاد المغرب علما ، وأخذ عنه أهل افريقية والأندلس ، وكان خروجه من فاس بَلَدِه إلى

القيروان واستقرارُه بها ، بسبب مُناهضةِ الولاةِ له ؛ لأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر ودعوته إلى السنة وعمَلِه بها .

فلا غرو أن يلتحق صاحبُنا عبدالله بن ياسين بهذه المدرسة ويرتسم في عِدَاد طلابها ؛ بعد أن كان يدرس في الأندلس ، لأن كثيراً من مَشْيخة الأندلسيين هم من تلامذة أبي عمران ؛ فليس لهم فضل على وجاج صاحبِ المدرسة الذي كان من خاصة تلامذة هذا الشيخ . ولا غرو كذلك أن يأتي من عبدالله هذا العالم العامل المجاهد المخلص ، الذي كلُّ أعماله انما كانت لاعلاء كلمة الله ونُصْرة دينه ؛ فان الدر من معدنه ؛ وهذا الوردُ من تلك الأغصان .

وتَتوالى فصول الرواية ، فيصحَب عبدُالله يحيى بنَ ابراهيم ويخرُج معه إلى بلاد كُدَالة من صنهاجة ، وهم إخْوةُ لَمْتُونة يجتمعون معهم في أب واحد، وكانوا يسكنون آخر بلاد الاسلام ويحاربون السودان ، يَليهم من جهة المغرب البحرُ المحيط ؛ حسْبَ ما جاء في القِرْطاس . ويعني بآخر بلاد الاسلام الصحراءَ الكبرى ، فقد كانت غايةَ ما انتهت اليه الدعوة الاسلامية اذ ذاك ، ثم بلغت بفضْل جهود المُرابطين إلى ما وراء التخوم الصحراوية من افريقيا السوداء ، وان كان أكثرُ أبناء هذه الأقطار يذكرون أن دخول الاسلام إلى بلادهم أقدمُ من ذلك .

ولما وصل عبد الله مع يحيى بن ابراهيم إلى بلاد كدالة فرح به أهلها وأكرموه وعظموه ، لِمَا ذكر لهم يحيى عنه من العلم والفضل والدين . وكان يحيى قد أنزله معه في بيته ، وهذا طبيعي ، الا أن المؤرخين يتزيّدُون في الكلام فيصفون من جهل الصنهاجيين ورِقّة دينهم الشيء الكثير . ويقولون ان عبدالله وجَد عند يحيى بن ابراهيم تِسْعَ نِسْوة فسأله عنهن فأخبره أنهن زوجاته . ولما أنكر عليه عبدالله ذلك وقال له انه

أمر لا يجوز في الاسلام ، قال له يحيى ان جميع الرؤساء من كدالة ولمتونة على مثل حالي .

والظاهر أن هذا من مُبالغات الروّاة التي يثبتها المؤرخون على علاّتها فان رجلا مثلَ يحيى يخرُجِ من أقاصي المغرب قاصداً بلاد المشرقَ لأداء فريضة الحج ، ثم هو يُعرج على الأقطار الاسلامية للاتصال والاطلاع ويحضُر مجالس العلم كما رأينا منه في القيروان ، لا يبلُغ به الجهل إلى هذ الحد فيرتكِبَ أمرا معروفا تحْريمه من الدين بالضرورة ، وإلاّ فَفِيم حجه ورغبتُه في نشر العام ببلاده ؟ وإذا جاز وقوع هذا بالنسبة لبعض رؤساء صنهاجة فهو غير جائز بالنسبة لجميعهم وخاصة الرئيس يحيى - علِماً بأن الاسلام دخل إلى هذه القبائل التي تتكون منها صنهاجة مع الفاتحين الأولين ، فلا بد أن تتوطد أركانه وتنتشر تعاليمه خلال المدة الطويلة ، التي قضتْها في حَظِيرته وهي تتجاوز ثلاثةَ قرون من الزمن ، فإنْ يكُن هناك من انحراف عن سبيله القويم ، فهو في العامة وفي الكبار المؤثِرين لهوى النفس ، وهو أيضا في الطوائف التي استهواها الدعاة من الروافض والخوارج وأتباع النحلة البرغْوَاطِية التي سيُحارِبُها عبدالله بن ياسين بكل قواه .

وأياً ما كان الأمر ، فقد خاطب عبدُالله وبِمعِيته يحيى ، جميعَ الرؤساء واتصل بعامة الناس ، منكراً عليهم ما لا يُقرُّه الشرع . وانتصب لتعليمهم أحكام دينهم ، وهدايتهم إلى الصراط المستقيم ، فلم يفتأ يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويأخذهم بعزائم الأمور ، وهو يؤمل أن تسلُس له مقادتُهم فيستقيموا على الطريقة ، ويكُونوا من أنفسهم ذلك المجتمع الفاضل الذي نادى به الاسلام ، وأتت به رسالته السامية ، لكنه لم يأنس منهم استجابة لِمَا يدعوهم اليه ، وكان كلما أمعن

في نصحهم وارشادهم نفروا منه وهجروه . ولما لم يزيدوا مع الأيام الا منابذة له واعراضا عنه ، فكـّر في الهجرة إلى مكان آخر أو الرجوع إلى بلده ، فطالع بذلك حاميـَه يحيى بن ابراهيم فلم يتركه ينصرفُ لحال سبيله ، وقال له انما أتيت بك لأنتفع بعلمك في ديني وخاصة نفسي ، وما عَليّ فيمن ضل من قومي .

وفي رواية لابن عذارى انهم هجموا عليه وهدموا داره فخرج خائفا منهم وتوجه إلى شيخه وجـّاج . وقيل لم يتوجه اليه بنفسه وانما كتب اليه يعلمه بما جرى له ، فشق على الشيخ وجـّاج ما بلغه من ذلك وكتب إلى بعض رؤساء كدالة يعاتبهم على ما صدر منهم في حق عبدالله ويُعلِمهم أن من خالفه خرج عن جماعة المسلمين ، فاعتذروا اليه وتراجعوا عما كانوا عليه .

وهذه الرواية معقولةُ المعنى ولو في جملتها ، اذ لا يصح أن يحصل لعبدالله ما حصل من مقاطعة القوم له ، ولا يتصل بشيخه الذي بعثه اليهم ، بل لا يصح أن تنقطع الصلة بين وجاج وعبدالله مهما كان الأمر ، لا سيما وعمَلُه انما هو بحسب التبَعِية له ، أو قُلْ هو فرع من مدرسة وجاج الاصليـّة التي كان لها — ولا شك — نفوذ عظيم في تلك النواحي ، نظرا لمكانة صاحبها في النفوس. ألاَ تـَرى إلى رجوع رؤساء كدالة واعتذارهم عما فرط منهم لمـّا كتب اليهم ؟

ويظهر أنه في هذه الفترة ، بعد أن قرر مواصلة مُهمتهفي الصحراء ، بـَنـَى رِباطـَه باتفاق مع يحيى بن ابراهيم ، وربما باشارة من وجـّاج أيضا وجعله عِوَضاً من داره المهدومة ، وذلك في مكان ناءٍ منالصحراء ، اختـُلِف في تعيينه ، فقيل انه على ساحل المحيط ، وهوَ جزيرة ينحسِرُ

عنها الماء ، في حالة الجَزْر فيُمشَى اليها على الأقدام ، وقيل بل هو في حدود السنيكال على مصبِّ نهرها . والمُهِمُّ أنه مكان منقطع عن العمارة بعيد عن مجتمع أهل البطالة والمشاغبين الذين تألَّبوا عليه من قبل .

وقد أقام فيه هو وأصحابه الذين أخلصوا له وبقوا على عهده ، يعبدون الله تعالى ويقيمون شعائر الدين . فتسامع بهم الناس ، وأقبلوا عليهم من كل جِنْس وقَبيل . فأخذ عبد الله يُقرِئُهم القرآن ويعلمهم السنة ويستميلهم إلى الآخرة ويُرغِّبهم في ثواب الله عز وجل فلم تمرَّ مده يسيرة حتى اجتمع له من تلاميذه نحوُ ألف رجل من أشراف صنهاجة ، فسماهم المرابطين أو سماهم الناس كذلك لِلُزومهم الرباط المذكور . وكان هو أحسن اسم يُطلَق عليهِمْ لذَوَبان انتماءاتهم القبَلِية فيه ، وهي انتماءات طالما فرقت بينهم وجعلت بعضهم عدواً لبعض . انهم الآن يجمع بينهم عقيدة وسلوك ولم يعودوا يخضعون للنزعات القبَلية العُنصرية ، لقد نجح عبد الله في اعداد هذه الفئة المؤمنة وتربيتها على التعاليم الاسلامية الصميمة ، وهو الآن بصدد الاستفادة منها في نشر دعوته الاصلاحية ، وحمْل القبائل المغربية التي تنتمي اليها على الجادَّة ، بالموعظة والتذكير ، وبالسيف إن أبَتْ . وها هو يقف فيهم خطيبا ، فيعظهم ويشوقهم إلى الجنة ، ويخوفهم من النار ، ويأمرهم بتقوى الله ، وأن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر ، ويخبرهم بما في ذلك من عظيم الثواب والأجر ، ثم يدعوهم إلى جهاد من خالفهم من قبائل صنهاجة قائلا : « يا معشر المرابطين ، انكم جمع كثير ، وأنتم وجوه قبائلكم ورؤساء عشائركم . وقد أصلحكم الله تعالى وهداكم إلى صراطه المستقيم ، فوجب عليكم أن تشكروا نعمته عليكم ، وتأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر ، وتجاهدوا في سبيل الله حق جهاده » فقالوا « أيها

الشيخ المبارك : مُرْنا بما شئت تجدْنا سامعين مطيعين ، ولو أمرتنا بقتال آبائنا لفعلنا » . فقال لهم « اخرجوا على بركة الله ، وأنذروا قومكم ، وخوفوهم عقاب الله ، وأبلغوهم حجته ، فان تابوا ورجعوا إلى الحق وأقلعوا عما هم عليه ، فخلوا سبيلهم ، وان أبوا من ذلك وتمادوْا في غيهم ولجوا في طغيانهم استعنا بالله تعالى عليهم ، وجاهدناهم حتى يحكم الله بيننا ، وهو خير الحاكمين » .

فسار كل رجل منهم إلى قومه وعشيرته ، فوعظهم وأنذرهم ودعاهم إلى الاقلاع عما هم بسبيله ، فلم يكن منهم من يقبل ويرجع . وخرج عبدُ الله نفسُه إلى أشياخ القبائل ورؤسائهم فحذرهم وأقام عليهم الحجة . وكان هذا اللقاء الجديد بينه وبينهم بعد القطيعة السابقة ، إبلاغاً في النصح وقطعاً للمعذرة ، حتى اذا أنفد الجهد في الدعوة ولم يستجب له أحد منهم ، قال لأصحابه ، قد أبلَغْنا في الإعذار للقوم ، وقد وجب علينا الآن جهادهم فاغزُوهم على بركة الله .

وبدأوا أولا بقبيلة كُدَالة ، فغزاهم في ثلاثة الاف من المرابطين فانهزموا بين يديه . وراجعوا بصيرتهم فأعلنوا بالتوبة وأدَّوْا ما يلزمهم من جميع ما فرض الله عليهم . وذلك في صفر سنة ٤٣٤ .

ثم سار إلى لَمْتُونة فنزل بهم وقاتلهم حتى ظهر عليهم ، وأذعنوا إلى الطاعة والتوبة . وبايعوه على اقامة الكتاب والسنة . ثم سار إلى مَسُوفَة فقاتلهم حتى أذعنوا له وبايعوه على ما بايعته لمتونة وكدالة . فلما رأى ذلك باقي قبائل صنهاجة سارعوا إلى التوبة وأقروا له بالسمع والطاعة ، فقبل منهم ، وجعل يعلمهم القرآن وشرائع الاسلام ، ويأمرهم بالصلاة والزكاة واخراج العشر . وأنشأ لذلك بيت مال يجمعه فيه ، وينفق منه على الجيش ويشتري السلاح ، وهو في أثناء ذلك يوالي الغزو والجهاد حتى ملك جميع بلاد الصحراء واستولى على قبائلها .

وكان يُنَفِّل أنصاره من المرابطين أسلابَ المقتولين ، ويقسم الفيء بينهم بمقتضى أحكام الشرع .

وبعث بمال عظيم مما اجتمع عنده من الزكوات والاعشار والأخماس إلى طلبة بلاد المَصامِدة وقُضاتها ، فاستمالهم بذلك وصاروا يتشوفون اليه .

واشتهر أمره في جميع بلاد الصحراء والقبلة والمصامدة وسائر بلاد المغرب ،وتحدث الجميع أنه قام رجل بكدالة يدعو إلى الله وإلى طريق مستقيم ، ويحكم بما أنزل الله ، وهو متواضع زاهد في الدنيا ، كما اشتهر ذلك ، وتحدث الناس به أيضا في بلاد السودان .

هكذا سار أمر عبد الله بن ياسين من لدن بنائه للرباط ، إلى أن ظهر على مسرح السياسة بصفته زعيما دينيا وقائدا مظفرا قد ألقَى النَّاس اليه بالمقاليد وقد اعتمدنا في هذا الاستعراض على رواية القِرْطاس وسياقه ، ونقلنا الكثير منه بلفظه من غير تبديل له ، لاطمئناننا إلى خبره ،ولانسجام حوادثه مع التحركات الطبيعية التي لا يُمكِنُ لعبد الله أن يتجاوزها في هذه المرحلة من نشاطه .

وبمقتضى ما ذكر يتبين لنا :

(أولا) أنهذهالقبائل كانت على الاسلام . لأن دخولها فيه قد سبق بأكثر من ثلاثة قرون ، الا أنها كانت قد انحرفت عن سبيله الأقوم ، بسبب انتشار الجهل في عَوامِّها وغلبة الهوى على رؤسائها ، ولكن ذلك لم يبلغ إلى الحد الذي يصفه المؤرخون من جهل القوم حتى بما عُلِم من الدين وجوبه بالضرورة . ولذلك يُعَبِّر هؤلاء المؤرخون في حقهم ،

ومنهم مُعتمَدُنا صاحب القرطاس ، بانهم كانوا يعلِنون بالرجوع والتوبة عندما ينتصر عليهم عبد الله .

(ثانيا) ان عبد الله سلك في دعوة القوم سبيل السنة ، فذكّرهم وأنذرهم ولم يبادئهم بالقتال حتى أعذر اليهم . وأما قتالهُ لهم ، وهم مسلمون فعلى سنة الصديق (رض) الذي قاتل مانعي الزكاة كما قاتل المرتدين ، لا سيما ومن هؤلاء من كان يضيع فرض الصلاة كما يمنع الزكاة ، ومنهم من كان يجمع بين أكثر من أربع نسوة ، وان كان ذلك على ما قدمنا لا يمكن أن يكون من جميعهم ، وهو إلى ذلك ليس جهلا منهم بحكم الاسلام في الغالب بل اتباعا لهوى النفس وتحللا من الواجبات الدينية .

(ثالثا) ان حركة عبدالله هذه جاءت في الإبّان ، وان الناس كانوا بحاجة اليها بدليل ما تُلُقّيتْ به من قبول ومُناصرة ، وما طار له من سمعة وذكر في قبائل المصامدة وغيرهم ، حتى ان الناس صاروا يتحدثون بفضائله ويستبشرون بقيامه . وهو أمر يدل على أن البلاد كانت تتخبط في فوضى اجتماعية وسياسية ، وتنتظر القائد المُلْهَم الذي ينقذها مما هي فيه ، ولم تكن ضلت عن السبيل ولا ضيعت إيمانها بالدين الحق ، فلما جاء من دلها على الرشد ، وقادها بزمام الشرع المطاع ، انصاعت له وعرفت أن ما يدعوها اليه هو الحق والهدى الصحيح .

وفي هذه النقطة بالذات نُثير اشكالا حول ما ردده غير واحد من المؤرخين وذكَره صاحبُ القرطاس كذلك في الفذلكة التي نقلناها عنه آنفا ولكنا حذَفْناه منها لنخصه بالنظر وندرسه على حِدَة ، وهو ما كان عبد الله يأخذ به تلاميذه وأتباعه من شدة وقسوة ، حتى انه ليضربهم

بالسياط على المخالفات البسيطة ، ويضربهم فيما لم يأت به شرع ، فمَن تخلَّف عن صلاة الجماعة ضربه عشرين سوطا ، ومن فاتته ركعة ضربه خمسة أسواط أو عشرة وربما ألزم بعضهم بصلاة أربع ركعات قبل الظهر وقبل غيره من الصلوات ؛ وكل من أتى اليه تائبا طهره بضربه مائة سوط ، وهكذا ؛ مما يستغرب جدا من منهجه التّربوي الجاد .

وقد قيل في الزامهم بصلاة الجماعة وعقابهم على التخلف عنها انه كان من رأيه أنهم لا تصح لهم صلاة الا مأمومين لجهلهم بالقراءة في الصلاة . ولعل هذا انما كان بالنسبة لبعضهم ، مِمَّن غلبت عليه الأمية والعُجمة ، ومع ذلك فهو اجتهاد غير صائب خصوصا مع اقترانه بالضرب . وأما الزامهم بصلاة أربع ركعات قبل الفريضة فقد عللوه بأنه كان يراه بمثابة قضاء للفوائت ، وأنه كان يقول للشخص انك لا بد قد فرطت في سالف عمرك فاقض ذلك . وصلاة أربع قبل الفريضة هو مما رغب الشارع فيه الا أن ايجابه وجعله بمثابة قضاء للفوائت هو مما لا يقوم عليه دليل . ونظن أنه كان يندبُهم اليه ويذكر لهم ما ورد فيه من الثواب ، ويُذكّرهم بما فرطوا فيه من الصلوات الواجبة ، فربط الرواة بين القول والعمل ، وجعلوا ذلك من أمره وتعليله . وأما تطهير التائب بضربه مائة سوط فانا نرى أنه لم يكن أمرا عاما ، وانما ارتكبه في حق بعض الرؤساء ممن خالفوا عليه في المرحلة الأولى للدعوة ، ونابذوه وهدموا داره ان صح ذلك ، ونأخذ دليلا عليه قولَ القرطاس نفسه ، فانه لما ذكر غزوه لقبائل كدالة ولمتونة ومَسُوفة وانتصارَه عليهم قال : « فلما رأى ذلك قبائل صنهاجة ولمتونة سارعوا إلى التوبة وإلى مبايعته ، وأقروا له بالسمع والطاعة ، فكل من أقبل اليه تائبا منهم طهره بأن يضربه مائة سوط » . وظاهر أنه من غير الممكن أن يضرب الآلاف من

رجال القبائل المذكورة فوجب أن يحمل هذا الكلام على بعض رؤوس الفتنة وأصحاب الشغب الذين اضطروه من قبل إلى الهجرة وبناء الرباط وانقطاعه فيه . وعقاب هؤلاء بالضرب هو مما يسوغ شرعا فان للامام أن يُعزِّر على معصية الله بما يراه من أنواع التعْزِير ومنها الضرب .

ان هذه الجزُئيِـة التي انتقُـدت من عمل عبد الله بن ياسين ، لا تعدم توجيها من قبل النظر الفقهي كما رأينا ، ومع ذلك فلا بد أن نستحضر الظروف والملابَسات التي صاحبَتْها ، وربما البواعث النفسية والاجتماعية أيضا ، وهي مما لا علم لنا بأكثره لِـنُوافق عبد الله أو نُخالِـفه في أخذه القوم بتلك الشدة وحكمه بذلك الحكم القاسي ، إنما اذا كنا نعلم رأي الفقهاء في الحدود واختلافهم في هل هي كفارات أو زواجِر لم يصعُب علينا أن نجد تفسيرا لعمل عبد الله هذا ، حين يعتبره تارة تطهيرا ، وحين يعتبره زجرا تارة أخرى . فلا يكون بذلك خارجا عن نطاق القواعد الفقهية وأحكام الشريعة الغراء (ولِـكُـل وِجْهة هو مُولـِّيها) .

هذا ولم نُعَرِّجْ على الروايات المبالَغ فيها والقائلة بأن مما شذّ فيه من الأحكام أخْذَه الثلث من الأموال المختلطة لتطييبها ، واقامته للحدود المختلفة على التائب كحد الزنا والقذف والشرب ، بل والقتل إذا علِم أنه قتل شخصا من قبل ، لاعتقادنا أن هذه الأقوال من تَزيُّدات الرواة وتشنيع خصومه ، فايُّ شخص يمكن أن يُقبِل تائبا عليه ، وهو يعلم أنه سيُشَهِّر به ويجعله زانيا مفتريا شاربا للخمر ، وربما لم يُقارِفْ شيئاً من ذلك في حياته فيعرِّض نفسه للسمعة السيئة وللأذى الذي قد يصيبه من توالي الضرب والحدود التي تُقام عليه . لَعَمْري ان هذا أحرى بأن يُنفِّر منه الناس ولا يجعل أحدا يدخل في دعوته ويتوب بهذا الشرط .

أما وأن الأمر كان بالعكس ، وان الناس والتوابين كانوا يتواردون عليه أفواجا أفواجا فذلك دليل على بطلان هذه الأقوال وسقوط رواياتها .

وفيما يخص تطهير المال المختلط بأخذ الثلث منه ، نعتقد اذا ثبت ذلك من فعله ، أنه فتوى خاصة صدرت منه في بعض الأموال التي اقتضت ذلك فعمَّم النقَلَةُ القول به وجعلوه حكما شاملا للأموال المختلطة على الاطلاق وهي لا يطهرها الا رد ما عُلِم أو قُدِّر أنه مشبوه كُلاً أو بعضا لا خصوص الثلث وهذا أمر مُسلَّم لا جدال فيه ، فكيف يتجاوزه عبد الله بن ياسين مع ما علم من تشدده وعدم ترخصه في شيء . ان ذلك لا يتوافق وخطته في التحري والورع الذي أخذ بها نفسَه وحمَل عليها الناس فلم يَعْدُ أن يكون من التقول والتشنيع عليه .

* * *

وإلى هنا والأمرُ قد استتبَّ لعبد الله في جميع بلاد الصحراء ، وقبائلُ صنهاجة قد أطاعته طاعة مطلقة ، وحاميه وشريكُه في الأمر الزعيم الكدالي يحيى بن ابراهيم قد توفي لا ندري متى ؟ ولكن في هذه الأثناء قطعا ، خلافاً لما قيل من أنه توفي قبل دخول عبد الله إلى الرباط ، وكذا شيخُه وَجاَّج الذي انقطع عنا خبره ، نجد أن شخصية الزعيم الديني المصلح تتبلور في صاحبنا عبد الله بن ياسين بكيفية واضحة لا مجال للشك فيها ، فيبرهن على أنه لا قصد له الا الاصلاح ، وأنه لا غرض له في الحكم ، ويتصرف تصرف الرجل الحكيم ، البعيد النظر ، فيؤَمِّرُ على الجماعة يحيى بن عمر اللَّمْتوني ، وكان من أهل الدين المتين والفضل والصلاح ، فينقلُ الأمر من كدالة إلى لمتونة ، لأنها كانت من أكثر قبائل صنهاجة طاعة لله وتمسكا بشرعه ، كما كانت من أكثرها عدة

وعددا ، وأقواها جهادا في سبيل الله ونصرة لدينه . قال في القرطاس « وذلك لما أراد الله من ظهور أمرهم وتملكهم على المغرب والأندلس ».
إنّ ترفع عبد الله عن تولي الحكم ، بعد وفاة يحيى بن ابراهيم ونزاهة قصده في تولية يحيى بن عمر ، مما زاده قوة ونفوذا ورفعة شأن عند قبائل صنهاجة عموما ، فانه ظهر بمظهر الرجل الحريص على المصلحة والساعي في خير الجميع والذي ليس للعصبيات ولا للمنافع الشخصية عليه من تأثير ، وفي الواقع كان هو الأمير على الحقيقة ، لأنه هو الذي يأمر وينهى ويعطي ويأخذ ، فاذا كان الأمير الذي قدمه عليهم يتولى النظر في أمر حروبهم ، فعبد الله ينظر في ديانتهم وأحكامهم ويأخذ زكاتهم وأعشارهم ، ويتحكم من هذه الناحية حتى في الأمير نفسه .

وقد حكى صاحبُ القِرطاس أن يحيى بن عمر هذا كان شديد الانقياد لعبد الله ، كثير الطاعة له فيما يأمره به وينهاه عنه ، فَمِن حُسْن طاعته له أنه قال له يوما : لقد وجب عليك أدب . فقال له فِيمَ يا سيدي ؟ قال لا أُعرِّفُك به حتى أخُذَه منك . فكشف له عن بَشَرتهِ ، فضربه عشرين سوطا ثم قال له : انما ضربتُك لأنك باشرتَ القتال بنفسك ، وذلك خطأ منك ، فان الأمير لا يقاتل وانما يقف ويحرض الناس ويقوي نفوسهم ، فان حياة الأمير حياة عسكره وموته فناء جيوشه .

واذا كانت مهمة عبد الله التي من أجلها دخل الصحراء مع يحيى بن ابراهيم ، قد انتهت ، فيما سبق ، إلى غايتها ، فاستقام أمرُ قبائل صنهاجة على الدين القويم ، واجتمع شملهم وتوحدت كلمتهم ، وأصبحوا فوق ذلك جنودا للاسلام يُعلُون رايتَه ويدافعون عن حِماه ، فان الدور الذي وجد نفسه مؤهّلا للقيام به الآن ، هو الجهاد من أجل

نشر الاسلام في بلاد السودان بين القبائل الوثنية ، ومواصلة عمل الفاتحين الأولين في هذا السبيل ، وذلك بدافع الحماس الديني الذي وُجِد في المرابطين نتيجةً للتربية الاسلامية التي أخذهم ويأخُذهم بها منذ اليوم الأول الذي دخل فيه بلادهم وبطلب ، فيما يُحتَمل ، من مسلمي الأقطار السودانية المجاورة لديار صنهاجة في الصحراء ، فقد سبق لنا أن أشرنا إلى ما كان من صدىً بعيد لحركة عبد الله في السودان وتحدُّث الناس هناك بقيام رجل صالح في كدالة يدعو إلى الله وإلى صراط مستقيم . فغيرُ بعيد أن يكون المسلمون في السينكال هم الذين دعوه لنصرة الدين في تلك البلاد وكفٍّ عادية الرؤساء الوثنيين عنهم .

وقد دخل يحيى بن عمر بأمر من عبد الله إلى السودان غازيا ، وقاد عدة حمَلات ضد الوثنيين كُتِب له فيها النصر كما يؤكد ذلك المؤرخون وان كانوا لم يعطونا تفاصيل عن تحركاته هذه ، ولا بيانا مضبوطا عن الجهات التي قصد اليها . كما أننا لا نعلم هل دخل عبد الله معه إلى السودان أم لا . لأن المصادر تَسْكُتُ عن ذلك،والمفهوم من الأخبار أنه لم يكن معه في غزْوه للسودان . إن هذه الحملة كانت لنصرة المسلمين هناك ، وربما لحماية ظَهْر القبائل الصنهاجية ، ولعلها قد استنفدت الغرض منها من دون حاجة إلى مشاركة عبد الله وجُموع المرابطين ، ومما لا شك فيه أن الانتصارات الباهرة التي حصل عليها عبد الله وجيش المرابطين ، والسمعة الطيبة التي انتشرت له في داخل البلاد المغربية ، وتَوجه الأنظار اليه من مختلف الأقاليم . كلّ ذلك جعل اهتمامه يتحول ناحيةَ الشمال ، لا سيما وقد أخذت الوفود تتوارد عليه من هذه الناحية متظلمة مستنكرة ما هي فيه تحت حكم مَغْراوَة من تسخير وارهاق .

ان المغرب الأقصى في هذا العهد ، كان يخضع لدولة منقسمة على نفسها تنتمي إلى زِنَاتَة العظمى ، وتتولى السلطَة فيه قبيلتان منها هما مَغْراوَة وبَنُو يَفْرن . وكان النزاع بينهما على أشدِّه ، فانعدم الاستقرار ، وتضرر الرعايا من سوء الحكم وانتشار الفساد . وكان الناس لا يفتأون متطلعين إلى مَن تصلُح الأحوال عل يده ، وقد تعلقت آمالهم بعبد الله بن ياسين وأنصارِه من المرابطين ، وهذا ما تؤكده الروايات المختلفة ، والأخبار التي تناقلها المؤرخون ، ونحن نُفضل منها دائما ما عند صاحب القرطاس فلنستمع إلى ما يقوله :

« فلما كان في سنة سبع وأربعين وأربعمائة ، اجتمع فقهاء سِجِلْماسَة وفقهاء دَرْعَة وصلحاؤهم ، فكتبوا إلى الفقيه عبد الله بن ياسين ، وإلى الأمير يحيى بن عمر وأشياخ المرابطين كتابا يرغبون منهم الوصول لبلادهم ليطهروها مما هي فيه من المنكرات وشدة العسف والجور ، وعرَّفُوهم بما فيه أهلُ العلم والدين وسائرُ المسلمين من الذل والصَّغار مع أميرهم الزِّناتي المَغْراوي ، فلما وصل الكتاب لعبد الله بن ياسين جمع رؤساء المرابطين وقرأ عليهم الكتاب وشاورهم في الأمر ، فقالوا له أيها الشيخ هذا مما يلزمك ويلزمنا ، فَسِرْ بنا على بركة الله اليهم . فأمرهم بالجهاز ، وخرج في الموفِّي عشرين لِصَفَر لسنة سبع وأربعين وأربعمائة في جيش عظيم من المرابطين . فسار حتى وصل بلاد درعة فامتلكها وأخرج منها عاملها . ولما علم بذلك أمير سجلماسةِ المغراوي جمع جيوشه وخرج نحوهم ، فالتقى الجمعان في حروب عظيمة انتصر فيها المرابطون وقُتِل أمير سجلماسة وأكثر جيشه وفر الباقون . ودخل عبد الله سجلماسة فهدَّنها وأصلح أحوالها وغيَّر ما وجد بها من المنكرات ، وقطع المزامير وأحرق الديار التي كانت تُباع بها الخمر ، وأزال المكوس وأسقط

المغارم الأميرية ، وترك ما أوجب الكتاب والسنة أخذَه ، وقدَّم عليهم عاملا من المرابطين وانصرف إلى الصحراء » .

هذا بتصرف قليل سياقُ الخبر في القرطاس عن تحرك عبد الله نحو المغرب الأقصى ، وهو التحرك الذي فتح الباب على مصراعيه في وجه المرابطين للاستيلاء على الحكم في البلاد وتأسيس دولتهم الكبرى . ونرى فيه تجاوب الطبقة الواعية من الفقهاء وأهل الغيرة الدينية والصلاح مع المرابطين ، كما كان الشأن في قيام دعوتهم من أول يوم . وبذلك نعلم أن البلاد لم تكن في وقت ما خاليةً من هذه الطبقة الخيِّرة من الناس ، كما يصورها المؤرخون وان ما ينسب لعبد الله بن ياسين من أحكام شاذة لا يخلو من مبالغة ، كما قدمنا ، وإلاَّ لَـما كان أهل العلم والفضل يستنجدون به ويسارعون إلى الدخول في دعوته فانهم بذلك يعلنون عن موافقتهم التامة له في خطته وأعماله .

وأكبرُ حادث وقع في صفوف المرابطين أثناء هذه المدة ، هو وفاة الأمير يحيى بن عمر اللمتوني في جهاد كان له ببـلاد السودان ، كمـا يقول ابنُ أبي زَرْع في القـرطاس ، وهذا ربما يُفهَـم منه أنه كان غائبا عن تحرك عبد الله إلى المغرب ، لا سيما معَ ما جاء في الخبر أن عبدالله لمـا وصله كتاب أهل سجلماسة ودرعة ، جمع رؤساء المرابطين وعرَضه عليهم ، ولم يجيء في الخبر ذكر ليحيى ، فلو كان حاضراً لكان أول من يُذْكر ، خصوصا وأن الكتاب موجه إلى عبد الله والأمير يحيى وأشياخ المرابطين . . فهل بقي يحيى في السودان ، منذ دخوله اليه غازيا حتى توفي في أواخر سنة ٤٤٧ التي دخل فيها عبد الله إلى المغرب .

أما ما يعطيه سياق الخبر في ابن عذارى والحلل الموشية فهو مشاركة

يحيى في الحملة المغربية ووفاته أثناءها لا في السودان ، مما يُستبعَد معه حتى القول باحتمال دخول يحيى إلى السودان ثانيا بعد رجوعه من المغرب لتصحيح وفاته هناك كما ذكر القرطاس .

ومهما يكن من أمر فقد قدم عبد الله على المرابطين مكان يحيى : أخاه أبا بكر بن عمر اللمتوني في مفتتح سنة ٤٤٨ فاثبت مرة أخرى أنه لا رغبة له في الامارة وأن مهمته روحية تعلو على الأغراض المادية : كما ثَبَّتَ الأمرَ في لمتونة بصفة قاطعة ؛ فرشحها بذلك لقيادة المرابطين والتقدم على قبائل صنهاجة جمعاء على الدوام .

وكان أبو بكر رجلا صالحا متورعا كأخيه ، ناهيك بمن يختاره عبد الله بن ياسين في الوقت الذي أصبحت الدعوة فيه تزحف على أقطار المغرب ، وتُنازِلُ جموعاً مختلفة من أرباب السلطة وأصحاب الأهواء كما سيذكر . وهكذا فانه لم يكد يتسلم زمام الأمر في البلاد التي خضعت للمرابطين وينظر في أحوالها ، حتى ندبه عبد الله إلى غزو السوس وبلاد المصامدة فخرج اليها في جيوش عظيمة . وذلك في شهر ربيع الثاني سنة ٤٤٨ ، وقد أطاعته تلك البلاد كلها ولم تُبدِ مقاومة تذكر : الا ما كان من تارودانت فقدَ كان فيها قوم من الروافض يقال لهم البَجَلية منسوبين إلى عبد الله البَجَلِي الرافضي (١) ، كان دخل إلى السوس حين قدم عبيد الله الشيعي إلى افريقية ، فأشاع هنالك مذهبه فورثوه بعده

---

(١) في ابن ابي الحديد شرح نهج البلاغة ان البجلية قوم من الغلاة يقولون ان عليا كرم الله وجهه لو شاء لأحيا عادا وثمود وقرونا بين ذلك كثيرا في اشباه لهذا الهذيان .

جيلا بعد جيل ، فقاتلهم المرابطون حتّى فتحوا مدينتهم وقُتل بها من الروافض خلق كثير ، فرجع من بقي منهم إلى السنة ، وهذه أول مرة يواجه فيها عبد الله وجيش المرابطين قوما من أتباع المذاهب التي تخالف ما عليه أكثرية المغاربة ، فيقاومهم أشد المقاومة كما فعل ادريس الأول وابنُه من قبل ، حتّى يعيد إلى المغرب وحدتَه السياسية والمذهبية .

واهتم عبد الله بتنظيم البلاد المفتوحة ، على عادته ، فنصب عُمّاله على نواحيها ، وأمرهم باقامة العدل واظهار السنة فيها ، واستخلاص الزكاة والعشر واسقاط ما سوى ذلك من المغارم، وفي أثناء ذلك كانت وفود القبائل والأقاليم تتوارد عليه مقدمة طاعتها معلنة بمبايعته ، وهو يُعلِّم ويرشد ويأخذ العهد على الجميع باقامة شعائر الدين والمحافظة على ناموس الشرع .

وبعد أن سقطت بلاد نفّيس وما حَوَالَيْها في يده خرج قاصدا مدينة أغْمات ، فنزل عليها وقاتل أميرها المغراوي أشد القتال حتّى اضطره إلى إسلامها والفرار عنها ليلا ، فدخلها المرابطون ، وذلك في سنة ٤٤٩ وأقام بها عبدالله يمهد أمرها ويستصلح أحوالها نحو الشهرين. ثم ارتحل إلى بلاد تادلا وكانت خاضعة لبني يَفْرن من زناتة الذين كانوا يتقاسمون السلطة مع بني عمهم المغراويين، وكانت قاعدةُ امارتهم مدينةَ سَلاَ ، واليهم فرَّ أميرُ أغمات ، ففتحها عبدالله وظفر بمن فيها ، ثم سار إلى بلاد تَامَسْنا وهي المعروفة اليوم بالشاوية فامتلكها وأُخبر أن بساحلها قبائل بَرَغْواطَة في عدد عظيم وهم أصحاب نحلة فاسدة ، قد مرقوا عن الدين ، وتوطنوا في تلك الناحية من زمن بعيد وقاتلهم الأدارسة فمَن دُونهم .

وفي رأي صاحب القرطاس أنهم قبائل كثيرة ، أخلاط لا يجمعهم أب واحد ولا أم واحدة ، وكان متبوعهم صالح بن طريف قد ادعى النبوة في أيام هشام بن عبد الملك بن مروان ، وأصله من حصن بَرْباط ، من عمل شَذُونة بالأندلس، وله رحلة إلى المشرق ، وكان يشتغل بالسحر ، ولما قدم المغرب نزل بلاد تامسنا فوجد بها قبائل من البربر جهالا ، فأظهر لهم الاسلام والزهد والورع ، وأخذ بعقولهم ، واستمالهم بسحره ولسانه ، فاستغواهم وأقروا بفضله ، وقدموه على أنفسهم ، وصدروا عن رأيه في جميع أمورهم فادعى النبوة وتسمى بصالح المؤمنين وقال لهم أنا المذكور بهذا اللقب في القرآن ، وشرع لهم الديانة التي أخذوها عنه وذلك سنة ١٢٥ .

ومن الضلال الذي شرع لهم — يقول ابن أبي زرع — أنهم مقرون بنبوته وأنهم يصومون شهر رجب ويفطرون شهر رمضان ، وفرض عليهم عشر صلوات خمساً بالليل وخمساً بالنهار ، وأن الأضحية واجبة على كل من تبعه في الحادي والعشرين من المحرم ، وشرع لهم في الوضوء غسل السرَّة والخاصِرَتَيْن وصلاتهم ايماء لا سجود فيها ، ويسجدون في آخر ركعة خمس سجدات ويقولون عند الطعام باسم يا كسار وزعم أن تفسيره بسم الله ، وأمرهم أن يخرجوا العشر من جميع الثمار وأباح لهم أن يتزوج الرجل من النساء ما شاء ، ولا يتزوج بنات عمه ، ويطلق ويراجع الف مرة في اليوم ، فلا تحرم المرأة بشيء من ذلك ، وأمرهم بقتل السارق حيث وجد ، زعم أنه لا يطهره من ذنبه الا السيف ، وأمرهم بالدية من البقر ، وحرم عليهم رأس كل حيوان والدجاجة مكروه أكلها ، وقدوتهم في الأوقات الدِيَكَة ، وحرم عليهم ذبحها وأكلها . ومن ذبح ديكا أو أكله أعتق رقبة .

ووضع لهم قرآنا يقرأونه في صلاتهم ويتلونه في مسجدهم ، وزعم أنه أنزل عليه ، وأنه وحي من الله تعالى اليه ، ومن شك في شيء من ذلك فهو كافر . والقرآن الذي وضع لهم ثمانون سورة سماها بأسماء النبيين وغيرهم منها سورة ادم وسورة نوح ... وسورة فرعون وسورة بني اسرائيل ... وسورة الديك وسورة الحجل وسورة الجراد وسورة الجمل ... وسورة هاروت وماروت وسورة ابليس ... وسورة غرائب الدنيا وفيها العلم العظيم عندهم .

وأخبرهم أن لا غسل عليهم من الجنابة الا من الحرام .

وهكذا وجد قَوْما سُذَّجاً على الفطرة فتلاعب بعقولهم وضحك عليهم وجعل تعاليمه هذه استهزاء بقِيَم الاسلام ومَسْخا لشرائعه ، وبذلك لا يبعد أن يكون من أصل يهودي خبيث كما قال صاحب القرطاس ، فهو ينتقم من الاسلام ويعبر عن حقده عليه بهذه الصورة المكشوفة .

ويقول ابن هشام اللخمي في كتابه لحن العامة وابن دحية في كتاب المطرب أن مفردة برغواطة باللام بدل الراء ، وأن العامة يخطئون فيها فيقولون برغواطة . ونحن قد اتبعنا ما هو الشائع في ذلك ، زيادة على أن ابن أبي زرع علىما يظهر عنده فَضْلُ عِلْم بالقوم،وهو قد جعل نسبة القوم إلى متبوعهم البرباطي بعد تحوير العامة لها .

ولقد أفاد رحمه الله في بيان النحلة الفاسدة التي كان عليها القوم والضلال الذي كانوا يحتضنونه في تلك الناحية من المغرب ، ويحمونه بالقوة ويقيمون له دولة تقتسم النفوذ مع دولته الشرعية ، وقد تمالؤوا على هذا الزيغ والالحاد قرونا عديدة ، برغم محاربة الدول المتعاقبة على

المغرب لهم واطباقها عليهم مرارا عديدة . ومع ذلك فان بدعتهم لم تمت ودولتهم لم تـدُل ، حتى جاء عبد الله بن ياسين إلى بلادهم ، فلم بر تقديم شيء على جهادهم واستئصال شأفتهم ، وقد سار اليهم في أعداد كبيرة من المرابطين والمصامدة فجرت بينه وبين أميرهم حروب عظيمة وقتال شديد مات فيه من الجانبين خلق كثير ، واستُشْهد عبد الله في احدى المعارك ، فلم يثن ذلك عزم المرابطين ، بل صمموا على الحرب بقيادة أميرهم أبي بكر بن عمر ، ولم يقلعوا عنهم حتى قطعوا دابرهم ، وفر من فر منهم إلى حيث قضى نحبه وأذعن من بقي منهم وأسلموا اسلاما جديدا وطُهِّرت الأرض من رجسهم ودخل باطلُهُمْ في خبر كان .

وكان عبد الله لما أصيب ، حُمِل إلى عسكره وبه رمق ، فاجتمع اليه أشياخ المرابطين ورؤساؤهم فقال لهم : « يا معشر المرابطين ، انكم في بلاد أعدائكم ، واني ميت في يومي هذا لا محالة ، فاياكم أن تجبُنوا أو تفشلوا فتذهب ريحكم ، وكونوا أعوانا على الحق ، واخوانا في ذات الله تعالى واياكم والمخالفة والتحاسد على طلب الرياسة ، فان الله يؤتي ملكه من يشاء ويستخلف في أرضه من أحب من عباده ، ولقد ذهبت عنكم ، فانظروا من تقدمونه منكم ، يقوم بأمركم ، ويقود جيوشكم ، ويغزو عدوكم ، ويقسم بينكم فيئكم ويأخذ زكاتكم وأعشاركم ، فاتفق رأيهم على تقديم أبي بكر بن عمر اللمتوني ، فقدمه عبد الله بن ياسين عليهم باتفاق من جميع أشياخ صنهاجة واجتماع منهم على ذلك .

ولا شك أن هذا التقديم انما كان بمثابة تجديد البيعة للأمير أبي بكر اذ كان قد قدمه عليهم منذ وفاة أخيه يحيى ، ثم هو تفويض له وجمع للسلطة في يده ، تلك السلطة التي كانت موزعة بينه وبين عبد الله .

وكانت وفاة عبد الله عشية يوم الأحد ٢٤ من جمادى الأولى عام ٤٥١ ودفن بموضع يعرف بكُريفلة من قبيلة زُعيّر بنواحي الرباط العاصمة. وقبره معروف هناك إلى الآن .

لقد سقط عبد الله في ميدان الجهاد شهيدا مبرورا ، واختتم حياته بأفضل ما تختم به حياة المناضلين المخلصين ، من أجل عقيدتهم ومبادئهم ومثلهم العليا ، ولم يكن عالما يفتخر بأن مداد العلماء أفضل من دم الشهداء ، بل شارك الشهداء أيضا في بذل دمه والجود بنفسه في سبيل اعلاء كلمة الله ونصرة دينه ، وأبقى بعده ذكرا عاطرا يمجده الناس كما كانوا يمجدونه في حياته ، ويثنون عليه الثناء العظيم ، ويكتبون تاريخه بكل اعتزاز وافتخار . وان المغرب لَيَدِينُ له كما يدين للفاتحين الأولين ، بالتمهيد لدين الحق ، والقضاء على نزعات الشرك والالحاد ، وبتوحيد قلوب أهله على مذهب السنة والجماعة ، وهدايتهم إلى الصراط المستقيم ؛ وان مما يزيد عبد الله بن ياسين تقديرا واكبارا أنه أخلص القصد للغاية الشريفة التي عمل لها ، ولم يشُبْ حركته بغرض دنيوي ولا طمع في ولاية أو سلطان بل زهد في ذلك الزهد كله ، وأشاح عنه بوجهه ، ولم يستعن على نجاح أمر بشعوذة ولا ادّعاء ، كما فعل ذلك كثيرون غيره . وانما وزن أعماله بميزان الشرع ، وصدق النيةَ في كل مقاصده ، فوهبه الله التأييد والنصر ، ووضع في قلوب الناس محبته وطاعته ، وجعله اماما يقتدى به ، وقائدا للخير والفلاح . وكما أنقذ الله به المغرب من الفتنة والفوضى والضلال ، فقد كُتِب لخلفائه أن ينقذوا الأندلس بعدما أشرفت على الضياع في عهد ملوك الطوائف « والمرءُ في ميزانه أتباعُه » .

وقد ذكروا من سيرته الشخصية أنه كان شديد الورع في المطعم والمشرب، وأن عيشه كان من لحوم الصيد، وأنه كان كثير الصيام ، وأنه كان مِزْواجاً مِطْلاقاً ، وكان مُجَابَ الدعوة ، ولا غرو فقد قال النبي (ص) لسعد بن أبي وقاص وسأله أن يكون مُستَجاب الدعوة : طيِّبْ لُقمتَك تُستَجبْ دعوتُك .

رحمه الله رحمة واسعة ، وجازاه بأحسن الجزاء .

* * *

اخطاء مطبعية

اصلاح ما وقع من الأخطاء المطبعية في الحلقات الآتية :

الحلقة ٣٢

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٧	٩	مذكراته	مذاكراته
٨	١٨	والتعليم	والتعاليم
٩	١٤	ببلدة	ببلده
١٣	١٣	قرائه	قراءته
١٧	١٦	خلة	حلة
٢٢	٧	فما	فمما
٢٨	٥	رخوان	خوان
٣١	١٨	الوصم	الوهم

الحلقة ٣٣

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٧	٢	التّراب	التّرب (جمع تربة)

الحلقة ٣٤

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٦	١٠	انه	لانه

الحلقة ٣٥

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٥	٩	المنكر	المكس
١٧	٧	ولاه الامر	ولاه الله الامر
٢٠	١	صاينة	صيانة

الحلقة ٣٦

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٩	٣	حيا	حيى

مطابع دار الكتاب اللبناني
بيروت ص.ب. ٣١٧٦

يُوسُفُ بْنُ تَاشِفِين

الطبعة الثانية

١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م

AD 1994 - H 1414

دار الكتاب المصري

٣٣ شارع قصر النيل - القاهرة - ج.م.ع

ت: ٣٩٢٢١٦٨ / ٣٩٣٤٣٠١ - ص ب ١٥٦ - الرمز البريدي ١١٥١١

برقيا: كتامصر - فاكسميلي ٣٩٢٤٦٥٧ (٢٠٢)

TELEX No: 23081-23381-22181-21881

ATT: MR.HASSN EL-ZEIN

FAX: (202): 3924657

دار الكتاب اللبناني

شارع مدام كوري - مقابل فندق بريستول

ت: ٨٦٠٧٩٢ - ٨٦١٥٦٣ - ص ب: ٨٣٣٠ / ١١

برقياً «دكالبان»

TELEX: DKL 23715 LE

بيروت - لبنان FAX (9611) 351433



38

يوسف بن تاشفين

بقلم

عبد الله كنون

دار الكتاب المصري
القاهرة

دار الكتاب اللبناني
بيروت

يوسف بن تاشفين

مولده ونشأته ، تكوينه ، إسناد قيادة جيش المرابطين اليه ، استخلافه على المغرب من قبل الأمير أبـي بكر ، استقلاله بالحكم ، بناؤه لعاصمة مراكش ، بسط نفوذه على شمال المغرب وشرقه الى الجزائر ، توحيده للمغرب ، وتسميته بأمير المسلمين ، تدهور الوضع في الأندلس واستصراخ المعتمد به ، سقوط طليطلة في يد الإسبان وجواز يوسف الى الأندلس ، معركة الزلاقة ، جوازه ثانيا الى الأندلس ، جوازه الثالث ، تصفية ممالك الطوائف ، معاملته للمعتمد ، نفي تقولات الخصوم عنه ، جوازه الرابع ، كلمات وآراء لـه ، انضواؤه تحت لواء الخلافة العباسية ، انتشار ذكره ، صفاته وأخلاقه ، سعة مملكته ، وفاتــه .

هو أبو يعقوب بن تاشفين اللمتوني ، ملك الملثّمين المعروفين بالمرابطين ، ومختط مدينة مراكش ، وبطل معركة الزلاقة ، وواضع الحجر الأساسي في وحدة المغرب الكبير ، وأول من تلقب بأمير المسلمين من ملوك الاسلام كافة .

وُلِد على رأس المائة الرابعة ، ولا نعلم عن نشأته شيئا ، الا أنه من غير

شك كان ممن لازم عبد الله بن ياسين صاحبَ دعوة المرابطين ، والمؤسس الأول لدولتهم ، وربما كان ممن دخل رباطَه ، وتلقى تعليمه عنه ، وهذا الرباط كان فرعاً من مدرسة وجّاج بن زَلّوا ورباطِه الكبير الذي تخرج منه عبد الله ابن ياسين ، والصلة بين وجّاج وبين الامام أبي عِمران الفاسي معروفة ، والدعوة الاصلاحية التي قام بها هذا الامام وتلقاها عنه تلميذه وجّاج ونشرها بقطْرسوس ثم تلقاها عبد الله بن ياسين عن وجاج وبثها في اقليم الصحراء ، هي التي كان لها الفضل في قيام دولة المرابطين ، وتكوين القادة المصلحين من رجال لَمْتونة وقبائل صَنْهاجة على العموم ، أمثال يحيى بن عمر وأخيه أبي بكر وابن عمهما يوسف المترجَم له .

واذا صح هذا التقدير ، وهو صحيح حتما ، لأننا لم نرَ عبد الله بن ياسين يقدم للولاية الا خاصة الخاصة من مريديه ، وكذلك كان القوم بعده . نقول اذا صح هذا التقدير ، فيكون يوسف قد صحب عبد الله أكثر من عشرين سنة قبل ولايته ، وهي مدة كافية لتجعل منه رجلا صالحاً للحكم ، مستجمعاً لشروط القيادة ، كفْؤاً من الوجهتين النظرية والعملية للمهمة العظمى التي أُسنِدت اليه وقام بها خير قيام .

على أنه عند دخول عبد الله بن ياسين لبلاد صَنهاجة ، كان في نحو الثلاثين من عمره ، فلا شك أنه قبل ذلك تلقى تعليماً عاماً ، وتدرب خاصة على الفروسية وأعمال الحرب ، مما جعل منه بطلا نجْداً شجاعاً حازما ، كما يصفه المؤرخون .

وعليه نستطيع أن نجزم بأنه سواء في شبيبته أو كهولته تكوّن تكويناً صحيحاً

(أولا) في المجال الديني وما تجب عليه معرفته من أحكام الشريعة وطرق الدعوة والاصلاح ، (وثانيا) في تدبير الحروب والقيادة العسكرية ، (وثالثا) في نظام الحكم وسياسة الدولة . وهي الأمور التي برهن فيها على مقدرته الكاملة وكفايته التامة ، حتى إنا نعده من النماذج النادرة لملوك الاسلام الذين كانوا دائما في خدمة دولته ، فعملوا على إعلاء كلمته ، وتطبيق شريعته ووحدة أمته ، ولم يتخذوا الدولة مطية لبلوغ أغراضهم وقضاء شهواتهم .

وأول ما نلتقي به في ميدان العمل على عهد عبد الله بن ياسين ، سنة ٤٤٨ حين وَلِيَ أبو بكر بن عمر الإمارة ، وندب عبد الله المرابطين الى غزْو المصامدة وبلاد السُوس ، فجعل الأمير أبو بكر على مقدمة الجيش ابن عمه يوسف بن تاشفين ، كما يقول ابن أبي زَرْع ، وأصبح بذلك القائد الأول لجيش المرابطين ، الذي أخضع القطر السوسي ، وقاتل في مدينة تارودانت قوماً من الروافض كانوا قد استوطنوها منذ قدوم عبيد الله الشيعي الى افريقية ، كما نازل أغْمَاتَ واستخلصها من يد المغراويين الذين كانوا يسيطرون على المغرب . ثم ارتحل الى تادلا وكانت خاضعة لبني يَفْرَن أبناء عم المغراويين ، فأجلاهم عنها ، وسار الى بلاد تامَسْنا المعروفة بالشاوية وقاتل فيها قبائل بَرَغْوَاطة الضالة ، وهم الذين قاتلهم المولى إدريس من قبل ، ولكن شوكتهم لم تنكسر ، وقد كان قتال المرابطين لهم شديداً وطويلَ المدة مات أثناءه عبدُ الله بن ياسين ، ولكنهم تنفيذاً اوصيته لم يُقلعوا عنهم حتى استأصلوهم وقضَوْا على نِحْلَتِهِم الخبيثة .

ففي هذه المعارك كلها كان يوسف على رأس الجيش ، يُبلي البَلاء الحسن ،

ويقف الى جنب عبد الله بن ياسين وأبي بكر بن محمد ، فيكون الشخصية الثالثة من قادة الدولة الناشئة .

وبعد الانتهاء من حرب بَرَّغْواطَة ، رجع الأميرُ الى أغْماتَ ، حيث استراح قليلا ، ثم خرج في حرب تَصْفَوية لِما بقي من مملكة المَغْرَاويين واليفْرَنِيين بالمغرب ، وذلك في صفر ٤٥٢ ، ومما لا ريب فيه أن يوسف كان معه في هذه الحرب ، لأنه بعد وفاة عبد الله أصبح الرجل الثاني في الدولة ، فهو الوزير والمشير والقائد الذي لا غنى عنه . ولم تطل مدة هذه الحملة الا ثلاثة أشهر ، إذ اضطر أبو بكر للعودة الى أغمات ، لِما بلغه من اختلال الصحراء ونشوب الخلاف بين قبائل صَنهاجة ، فعزَم على السير إليها ليصلح أحوالها ، ويستأنف حركة الجهاد في أقطار السودان . ولكن كان عليه أن يَضْبِط الأمر في المغرب ، ولا يترك مكاسب الدولة فيه للضياع ، لأنه يعلم أن الوجهة التي يقصدها سحيقة وأنه ربما لا يعود منها ، وفي أحسن الأحوال يطول غيابه ، فتنتقض عليه البلاد التي فتحها ويسترجع خصومه ما انتزعه منهم .

وهكذا أخذ الأمير أبو بكر في تدبير سفره البعيد ، فاستخلف على المغرب ابنَ عمه يوسف ، وأمره بالرجوع الى استصفاء مُلْك زِناتَة من مَغْراوة وبني يَفْرن . وكان له زوجة تدعى زينب بنت اسحاق الهوّاري ، رجلٍ من التجار أصله من القيروان ، وهي ذات حسن وجمال وعقل وتدبير ، فمن ورعه وشهامته أنه لم يشأ أن يتركها معلقة ولا أن يأخذها معه الى الصحراء لعدم استطاعتها العيش هناك ، فطلقها وقال لها : اني ذاهب الى الصحراء وأريد الجهاد بالسودان ، ولعلي أرزَق الشهادة ، فلا أحملك ما لا تطيقين ،

فتَعمتْ عيناً بذلك ، وقيل إنها هي التي طلبت منه طلاقها فأسعفها . ويقال : إنه أوعز لابن عمه يوسف بتزوجها ، وقال له انها امرأة عاقلة .

وارتحل أبو بكر قاصداً الصحراء في ذي القعدة ٤٥٣ ، وقبض يوسف على زمام الأمور بالمغرب ، وقد وافق على خلافته أشياخ المرابطين . يقول ابن أبي زرْع : لِمَا يعلمون من دينه وفضله وشجاعته وحزمه ونَجْدته وعدله وورعه وسداد رأيه ويُمْن نقيبته . وتزوج زينب بنت اسحاق ، فأعانته برأيها وحصافتها وحسن تدبيرها . ومن ذلك أنه لما ظهر أمره وغلب على أكثر بلاد المغرب ، وسمع ابن عمه ومستخلفه الأمير أبو بكر بضخامة ملكه أقبل اليه من الصحراء ، ليتسلم الأمر من يده ، فشاور يوسف زوجته زينب في ذلك فقالت له : ان ابن عمك رجل متورع فاذا لقيته فقصِّرْ عما كان يعهده منك من الأدب والتواضع ، وأظهر له أنك مساوٍ له: ومماثِل ، ولاطفه مع ذلك بالأموال والهدايا ، فانه يسلم لك ، فلما قرُب الأمير أبو بكر من عمل يوسف خرج هذا اليه فتلقاه في الطريق وسلم عليه وهو راكب ، ولم ينزل له ، فنظر الأمير كثرة جيوشه فقال له : يا يوسف ما تفعل بهذه الجيوش كلها ؟ قال : أستعين بها على من خالفني . ثم نظر الى عدد كبير من الإبل موقورة قد أقبلت . فقال ما هذه الإبل ؟ قال أيها الأمير : جئتك بكل ما معي من مال وثياب وطعام لتستعين به على عيش الصحراء . فعلم أبو بكر أن يوسف قد استبد بالأمر دونه ، وأنه ان يتخلى له عن ولايته ، فرضيَ بما قدّم له ، واستوصاه خيراً بالرعية ، وانصرف الى الصحراء من جديد ، فأقام بها على جهاد السودان الى أن استشهد في سنة ٤٨٠ بعد أن استولى على نحو تسعين مرحلة من بلادهم .

وأما يوسف فانه كان خرج مع ابن عمه أبي بكر الى سجلماسة لتوديعه ، حين استخلافه له على المغرب وبعد ذلك فصل عنها الى وادي ملوية ، حيث ميز جيوشه فوجدهم أربعين ألفاً ، فاختار منهم أربعة قواد ، وعقد لكل واحد منهم على خمسة آلاف ، وقدمهم بين يديه الى قتال من بالمغرب من مغراوة وبني يفرن وغيرهم من قبائل البربر القائمين به ، وسار هو ببقية الجيش في إثرهم ، ففتح الله عليه ودانت له القبائل بالطاعة واستوثق أمره وكثرت جموعه ، وذاع صيته ، وتعلقت به الآمال ، ولا سيما بعد تسليم أبي بكر له واستقلاله عنه .

وشعر بالحاجة الى بناء قاعدة تكون أساس ملكه ومنطلق تحركاته في الوسط ما بين الجنوب والشمال ، فاهتدى الى مكان مدينة مراكش فنزله في سنة ٤٥٤ بخيامه وثقله ، واختط فيه مسجداً للصلاة وقصبة صغيرة لاختزان الأموال والسلاح ، وكان لما شرع في بناء المسجد يحتزم ويعمل في الطين والبناء بيده مع الخدمة تواضعاً منه وتقرباً الى الله عز وجل . وقيل : إن اختطاط مدينة مراكش كان في زمن الأمير أبي بكر بن عمر لما ضاقت أغمات بجنده ، وأن اختيار مكانها كان على أساس رحب الساحة وخصب الناحية والتحكم في بلاد المصامدة الذين هم من أشد قبائل المغرب قوة وأكثرهم جمعاً . ولكن الصحيح أن يوسف هو الذي نفذ الفكرة ، وإن قلنا بسبق الاهتمام بها ، وعلى كل فإن مراكش لم تستكمل وجودها كعاصمة كبرى الا في زمن علي بن يوسف وملوك الموحدين ولا سيما يعقوب المنصور منهم .

وجند يوسف الأجناد ، واستكثر من القواد ، واتخذ الطبول والبنود ،

وبعث العمال والعهود ، وبلغ جيشه أزيد من مائة ألف كما يقول صاحب « القرطاس » ، فخرج من مراكش قاصداً مدينة فاس ، فحاربه أهلها والقبائلُ المحيطة بها ، ولكنه تغلب عليهم ، وقاتل وُلاةَ مَغْراوَة وبني يَفْرن عليها وعلى مدينة صَفْرُو وبلاد الشمال ، وفرق الغارات على المعاقل والمدن ، وقصد بلاد غُمارَة بنفسه ، وتوغل فيها ، فلما شعر الزناتيون بخفة وطْأته عليهم عاوَدوا الكرة على فاس فتملكوها ، وبعث يوسف اليها بجيش من المرابطين فلم يغْن شيئاً . فاضطر الى العودة لقتال القائمين عليه وتدْويخ القبائل التي في طريقه حتى بلغ فاساً فنازلها وأعاد فتْحَها من جديد .

وكانت مدينتا طَنْجة وسَبْتَة خاضعتين لسكّوت البرّغواطي من بقايا البرّغواطيين الذين قاتلهم عبد الله بن ياسين ، فوجه يوسف اليهما أحدَ قواده ففتح طنجة وقتل أميرها المذكور وبقيت سبتة في يد ولد هذا الأمير ، وتوالت فتوح قواده الذين وجههم الى بلاد المغرب شمالا وشرقاً ، ومنها مدينة تِلِمْسان ، ومدينةُ وَجْدَة التي توجه اليها بنفسه وبلغ نفوذه الى وَهْران وجبال وَنْشَريس وأعمال شِلْف بأجمعها الى مدينة الجزائر .

وكان لما أعاد فتح مدينة فاس وحصّنها ، أمرَ فهدَم الأسوار التي كانت بها فاصلة بين عدْوَتَي القرويين والاندلس وردها مِصْراً واحداً ، وعمرها وبنى بها الحمامات والفنادق والأرْحاء ، وأصلح أسواقها وهذب بناءَها ، وأمر ببناء المساجد في جميع أحيائها وشوارعها ، وأي زُقاق لم يجد فيه مسجداً عاقب أهلَه ، وأجبرهم على بناء مسجد فيه ذكر ذلك ابن أبي زَرْع ، وبهذا وباعادة بناء جامع القرويين والزيادة فيه حتى صار على ما هو عليه

الآن، في أيام وَلده علي بن يوسف يعتَبر المرابطون من معمّري مدينة فاس والممكنين للصبغة الدينية التّي لها ، بالاضافة الى بنائهم لمدينة مرّاكش .

وقد استغرق يوسف في زحفه هذا على المغرب وتوحيده لأطرافه تحت حكمه زُهاء عشرين سنة ، منذ خرج من مراكش سنة ٤٥٤ الى سنة ٤٧٤ .. وكان في أثناء ذلك يسدد ويقارب ويصلح ما أفسدته الفتنة وجور الولاة السابقين ويقعّد قواعد الدولة ويختار الرجال لأعماله . وقد قسم المغرب عمالات على بنيه وأمراء قومه وذويه ، وضرب السكة في اسمه ، وتسمى بأمير المسلمين ، بعد أن أراد أشياخ القبائل من صنهاجة وكبار رجال دولته أن يدعوه أمير المؤمنين ، فأبى تواضعاً وقال : انما تسمى بهذا الاسم الخلفاء ، فقالوا لا بد من اسم تمتاز به ، وكان انما يدعى بالأمير ، فقال لهم يكون أمير المسلمين ، فاتفقوا على ذلك وكتب به الى الأقاليم .

وقيل انما سمي بذلك بعد وقعة الزلاّقة لما وقع الفتح واجتمع لديه ملوك الطوائف يهنئونه بالنصر فخاطبوه بأمير المسلمين ، وعلى كل حال ، فهو أول من لقب بذلك من ملوك الاسلام .

وفي سنة ٤٧٥ ورد عليه وهو بمراكش ، كتاب المعتمد بن عبّاد صاحب اشبيلية ، يعلمه بحال الأندلس وما آل اليه أمرُها من تغلّب العدو على أكثر ثغورها وبلادها ، ويسأله النصر والاعانة . فأجابه يوسف ان ذلك يكون بعد فتح سبتة ان شاء الله .. وكانت سبتة ما تزال بيد ضياء الدولة ابن سكّوت البرّغواطي ، فعرض عليه المعتمد مساعدته في فتحها ، فنازلها المرابطون برّاً ، وأحاطت بها أساطيل ابن عباد بحراً ، فسقطت للحال في يد المرابطين .

وشاور يوسف مشيخة لمتونة ورجال المغرب في شأن إصراخ ابن عباد ، فقالوا له : إنه من الواجب على كل مسلم اغاثة أخيه المسلم ، ولا يحِل لنا أن يكون هذا الرجل جارنا ، وليس بيننا وبينه الا ساقية ماء ، ونتركه طعمةً للعدو ، فعزم يوسف حينئذ على نصرة الأندلسيين .

وأجاز ابن عباد البحر الى يوسف ، فلقيه في فاس ، وألح عليه في الجواز الى الأندلس لقتال العدو ، وتوالت عليه رُسل أهل الأندلس وكتبهم يستصرخونه في تنفيس قبضة العدو عن مخنّقهم ، فطلب يوسف من ابن عباد أن يمكنه من الجزيرة الخضراء ليتخذها رباطا لجيشه .

وكان الوضع في الأندلس يزداد سوءاً يوماً بعد يوم .. فقد بدأ الاسبان حملةَ اكتساح قوية لبلاد المسلمين أو ما يسمى بحرب الاسترداد (Reconkista) واستخفوا كثيراً بملوك الطوائف الذين ورثوا خلافة قرطبة لما رأوا تنازعهم وقلة غنائهم في الدفاع عن حوزتهم ، حتى إنهم رَضُوا بدفع الإتاوَة للعدو لِقَاءَ كفّه عن قتالهم . وقام ألفونس السادس ملك قشتالة في نفس السنة التي وصل فيها المعتمد الى المغرب للاستنجاد بيوسف ، بجولة عبر أراضي ملوك الطوائف في جيش كثيف ، فشق بلاد الأندلس شقاً ، يقف على كل مدينة ويفسد ويخرب في أنحائها ، ويقتل ويسبي ، ثم يرتحل الى غيرها ، حتى وصل الى جزيرة طريف ، فأدخل قوائم فرسه في البحر ، وقال : «ان هذا آخر بلاد الأندلس قد وطئته» وهو يحكي ولا شك ما كان فعله عُقبة بن نافع حين انتهى من فتح المغرب فأقحم فرسه في البحر وقال :

« اللهم اشهد أني قد بلغت المجهود ، ولولا هذا البحر لمضيت أقاتل في سبيلك ، حتّى لا يعبد أحد سواك » .

وفي هذه الأثناء سقطت مدينة طليطلة في يد ألفونس المذكور ، فكان ذلك انذاراً بمصير بقية العواصم الأندلسية ، ومصير المسلمين في شبه الجزيرة ، وعظمت الفجيعة بسقوطها بين ملوك الطوائف أنفسهم فأحرى بين الشعب الأندلسي المنكوب ، لذلك أصفقت كلمة الجميع على استصراخ عاهل المغرب ، والاحتماء بجيش المرابطين العتيد .

وأقام يوسف بمدينة فاس ينظر في أمر الجهاد ، ويستنفر له قبائل المغرب ، ثم رحل الى سبتة ، فهدّنها وأصلح أحوالها وسفنَها ، ولحقت به العساكر والجنود ، فشرع في تجويز الجيوش الى الأندلس ، فلما استوفى جوازها وجواز المجاهدين ، واستقر الجميع بساحل الجزيرة الخضراء ، جاز هو على إثرهم في جيش عظيم من قبائل المرابطين وأنجادهم وصُلَحائهم ، وكان ذلك زوال يوم الخميس ١٥ ربيع الأول سنة ٤٧٩ ، وكان جوازه بأسرع ما يكون ، فنزل بأرض الجزيرة الخضراء وصلى بها الظهر ، وتلقّاه المعتمد وغيره من ملوك الأندلس وأمرائها ، فاتصل خبره بألفونس وكان محاصراً لمدينة سرَقُسْطَة ، فارتحل عنها ، وشرع في اتخاذ الأهبة للقاء العاهل المغربي .

وفيما توجه هذا الأخير الى اشبيلية ، أخذ الفونس يجمع حشوده ووَضع يده في يد ملك أراغون والكونت بِرنْجير رايْموند ، وكان الأول محاصراً لمدينة طُرْطوشة ، والثاني يتأهب لغزو بلَنْسِية ، فكفا كلاهما عما كانا بصدده وانضما الى صف الفونس ، كما انضمت اليه قوات أخرى جاءت من جنوب

فرنسا ومن ايطاليا وغيرها ، وتأهب الفريقان للقاء ، وكان المعتمد على جيش الأندلس ، الذي يضم جميع ملوك الطوائف ، وابن تاشفين على جيش المغرب ، الذي يقوده أبطال أنجاد مثل داود بن عائشة وسيْر بن أبي بكر وغيرهما ..

وتقدم جيش الأندلس يتبعه جيش المغرب ، فكان كلما قام ذاك من موضع نزّله هذا ، حتى حلاّ معاً بالغَرْب من مدينة بَطَلْيَوْس في بسيط فسيح يعرف بالزّلاّقة ، وبدون أن ندخل في تفاصيل مقدمة المعركة ، نذكر أن الفونس تقابل هو وجيشه مع جيش المغرب في حين تقابل حلفاؤه مع جيش الأندلس ، ودارت رحى الحرب على أشد ما يكون بين الجانبين ، وكادت الكفة تميل الى جانب العدو ، فتدخلت القوات الاحتياطية التي احتفظ بها يوسف بن تاشفين لهذا الموقف ، وخالفت أعداد منها الى معسكر ألفونس فأضرمت فيه النار ، واشتبكت مع من كان فيه من الحامية فتغلبت عليها ، وتراجع العدو ووقع الخلل في تعبئته ، فتبعه جيش المسلمين يفتك ويأسر ، وأشرف يوسف على هذه العمليات بنفسه ، وكان يحرض المجاهدين ويقوي نفوسهم ، فاستمرت الهزيمة على العدو ، وأيقن الفونس بالفناء ، ففر تحت جنح الليل في نحو خمسمائة فارس على غير طريق ، مثخنين بالجراح ، بحيث مات أكثرهم قبل الوصول الى طُلَيطلة .

وكانت هذه المعركة الحاسمة من أعظم المعارك التي جرت بين المسلمين والاسبان في الأندلس ، اذ قتل فيها معظم جيش العدو الذي لم يكن يقل عن مائة ألف شخص ، وكسِرَت شوكة الاسبان الى حين طويل ، وأمد الله بسببها في حياة الأندلس قرابة ثلاثة قرون ونصف قرن ، وكان الاسبان قد

أجمعوا أمرهم على طرد المسلمين من شبه الجزيرة الأندلسية في تلك الفترة التي بلغت دولتهم فيها منتهى الضعف تحت حكم ملوك الطوائف ، ولكن الله خيب أملهم وأبطل تدبيرهم ، وعادت لدولة الاسلام في الأندلس عزتها وصَوْلتها .

وكانت هذه الواقعة العظمى يوم الجمعة ١١ رجب ٤٧٩ كما في القِرْطاس قال : وهو الموافق للثالث والعشرين من شهر أكتوبر ، يعني سنة ١٠٨٦ ، واجتمع ملوك الأندلس وأمراؤها الذين شهدوا الحرب مع يوسف فسلموا عليه بأمير المسلمين وهنأوه بالنصر ، وخرجت كتبه مصدرة بلقب أمير المسلمين الى بلاد العَدْوَة والأندلس ، فقرئت على المنابر ، ولعل ذلك ما حمل بعضهم على القول بأنه انما لقب بهذا الاسم بعد معركة الزلاقة ، ومما سجل ليوسف من المآثر في هذه المعركة تَجافيه عن الغنائم التي جمِعت فيها وتركْها لملوك الأندلس ، مبرهناً بذلك على نزاهة قصده وعفة نفسه ، وكانت هذه الغنائم شيئاً كثيراً مما أطلق ألسنة الأندلسيين بالثناء عليه ، والاعتراف له بالجميل ، وان كانت بعد ذلك لم تتورع أن تتهمه بالحرص والطمع ، وان ذلك كان هو باعثه على استصفاء ملوك الطوائف .

ولم يطِل يوسف المقام بالأندلس اذ وصله نبأ وفاة ابنه أبي بكر ، وكان تركه مريضاً بسبتة فاغتمّ لذلك وانصرف راجعاً الى المغرب ، وأقام بمراكش الى سنة ٤٨٠ فخرج في شهر ربيع الآخر منها يتطوف على البلاد ويتفقد أحوال الرعية .

وفي سنة ٤٨١ جاز الى الأندلس جوازَه الثاني برسم الجهاد ، تلبية لدعوة ابن عباد ، وقد انطلقت فرسان العدو من حصن لبيط (Aledo) المتاخم

لبلاده ، تعيث في الأرض فساداً وتقتل وتأسر كل يوم ، بحيث جعلوا ذلك وظيفة لهم ، وقد قصروا تحركاتهم هذه على مملكة ابن عباد انتقاماً منه لأنه كان السبب في دخول المرابطين الى الأندلس ووقوع غزوة الزلاقة . فلما وصل الى الأندلس ، تلقاه ابن عباد ، وكتب الى ملوك الأندلس يدعوهم الى الجهاد وقال لهم الموعد بيننا حصن لبيط ، فلم يصل اليه ممن كتب اليهم الا صاحب مُرسيَة ، وحاصر يوسف الحصن المذكور أربعة أشهر الى أن دخل فصل الشتاء ، ووقع شنَآن بين ابن عباد وابن عبد العزيز صاحب مرسية ، واختلت أحوال الجيش ، وجاء المدد الى الحصن فأقلع عنه يوسف ورجع الى المغرب ، وقد تغيّر على ملوك الأندلس لكونهم تخلفوا عن دعوته .

وأما العدو فقد عمد الى الحصن وأخلاه ، لأن الحصار كان أنهكه ، ولم يبق فيه من يستطيع الدفاع ، فاستولى عليه ابن عباد .

وهذا الذي ذكرناه في الجواز الثاني ليوسف هو رواية صاحب القرطاس ، وفي رواية الحلل الموشية بعض مخالفة لذلك ، وأن الأمر لم يكن يتعلق بالمعتمد وحده ، فأهل بلنسية ومرسية ولورقة وبسطة كلهم كانوا يتعرضون لغزوات العدو ، وكلهم استنجدوا بيوسف ، وحصار حصن لبيط كان مناوبة بين جيوش هذه البلاد تحت نظر يوسف ، لكن نيات ملوك الطوائف كانت قد فسدت ، وجعل بعضهم يسعى ببعض لدى يوسف ، ومن المحقق أن رعاياهم لم يكونوا راضين عنهم ، وأن حياة اللهو والاستهتار التي كانوا يحيَوْنها لم تدع لهم وقتاً ولا عزيمة لحماية بلادهم ، وصد قوات العدو عنهم ، وبالرغم من أن يوسف لما عاد الى المغرب ترك بأرض الأندلس جيشاً لحماية الثغور

ومطاردة العدو ، فان هذا الجيش قد تعرض للضياع من جرّاء إهمال أولئك الملوك له ، ومداخلة بعضهم للعدو ضداً على جيش المرابطين .

قال ابن خلدون : « وتوافَقَ ملوك الطوائف على قطع المدد عن عساكر أمير المسلمين ، فساء نظره فيهم ، وأفتاه الفقهاء وأهل الشورى من المغرب والأندلس بخلعهم وانتزاع الأمر من أيديهم ، وصارت اليه بذلك فتاوى أهل المشرق الأعلام مثل الغزالي والطرطوشي وغيرهما » .

وهذا الى توالي استنجاد أهل الأندلس به ، خاصتهم وعامتهم ، وطلبهم منه إنقاذهم مما هم فيه من الظلم والغَشْم والروْع والفزع ، فلما جاز الى الأندلس جوازه الثالث برسم الجهاد سنة ٤٨٣ سار حتّى نازل طُلَيطلة وحاصرها ، والفونس بها ، فهتكها وقطع ثمارها وخرب ناحيتها ، انتقاماً مما فعله جيش الفونس بالمسلمين في نواحي المدن سابقة الذكر ، والغارات التي كان فرسان حصن لبيط يشنونها عليهم ليل نهار .. لكن الغريب في الأمر هو أن أحداً من ملوك الأندلس لم يأته ولا عرّج عليه . فلما شفى نفسه من طُلَيطلة سار الى غرناطة ، وكان صاحبها عبد الله بن بسلكّين قد ظاهر الفونس على يوسف فأخذها من يده هي ومالقه التي كانت بيد أخيه ، وسيرهما معاً الى مراكش مع حريمهما وأولادهما ، فأقاما بها وأجرى عليهما النفقة الى أن ماتا بها على ما عند ابن أبي زرع وابن الخطيب(١) .

ولما خلع يوسف ابن بسلكّين عن ملك غرناطة ، طمع المعتمد بن عباد في تسليمها له ، فتجافى عنه يوسف ورجع الى مراكش ، وقدم على الأندلس

(١) وما في مذكرات عبد الله من تيسيرهما الى أغمات يظهر أنه كان في أول الأمر .

قائده سير بن أبي بكر اللمتوني ، وفوض اليه في مصيرها ، وان لم يأمره في ابن عباد بشيء فسار نحو إشبيلية وهو يظن أن ابن عباد سيخرج اليه ويتلقاه بالضيافة ، فلم يفعل وتحصن منه فراسله سَيْر في أن يسلّم اليه البلاد فامتنع المعتمد ، فلم يكن بد من القتال .. وهكذا سقطت إشبيلية في يد المرابطين وتقبض سَيْر على المعتمد وأهله وولده وسيّرهم الى المغرب .

وتتابع وقوع العواصم الأندلسية في يد قواد المرابطين واستسلام أصحابها أو هلاكهم في الدفاع عنها كما وقع لابن الأفطس صاحب بَطَلْيَوْس .. وكانت سنة ٤٨٤ حاسمة في استصفاء ممالك الطوائف ، إذ سقطت فيها قرطبة وإشبيلية وجيّان وغيرها ، وفي السنة التي تليها سقطت دانية وبلنسية ، وفي سنة ٤٨٦ فتحت مدينة إفراغ من بلاد شرق الأندلس ، ولم يزل الفتح يتوالى وجهاد العدو وحماية الثغور دَيْدَنَ الجيش المغربي حتى خلصت البلاد كلها ليوسف بن تاشفين ما عدا ولاية الثغر الأعلى التي بقيت بيد ابن هود بإقرار يوسف له عليها لما أظهره من روح المسالمة وقوله له : « نحن بينكم وبين العدو سد لا يصلكم منه ضرر » مع تحصينه لبلده وضبط أمرها .

وكما رأينا فان يوسف قد بذل مجهوداً عظيماً في استصلاح أحوال الأندلس ، وجهاد العدو المغير على ممالكها استجابة لدعوة أهلها من ملوك وأمراء ، وخاصة وعامة ، وكان عمله في اصلاح ذات البَيْن ، ما بين القادة والزعماء أكثر من عمله في أي ميدان آخر ، ولكن النزاع لم يزل مستشرياً بينهم ، والخصومة على أشدها ، واللجوء الى العدو احتماء به وانتصاراً على المنافس شِنشِنة لم يقلعوا عنها ، حتى بعد نجدة يوسف لهم وهزيمة هذا العدو في موقعة الزلاقة ،

بل انهم لما استوحشوا من يوسف ، واستشعروا غضبه عليهم ، وخافوا من عقابه وانتقامه ، لم يترددوا أن يضعوا يدهم في يد العدو ، ويستظهروا به عليه ، وعادت هيف الى أديانها ، وأصبحت سيطرة العدو على الأندلس كما كان يتمنى ، قاب قوسين أو أدنى .

ففي مثل هذا الوضع لم يكن هناك وسيلة للانقاذ ، ولا سبيل الى الاحتفاظ ببلاد الاندلس للعرب والمسلمين ، الا ما قام به يوسف من استخلاصها من يد هؤلاء الزعماء والقادة الذين لم يكونوا يقدّرون مسؤوليتهم ، وفي كل يوم يستعجلون النهاية المحتومة لوجودهم بسبب فرقتهم وتخاذلهم ، وعلى أحسن الاحتمالات ومع عدم اساءة الظن بهم ، فان ما كان يمليه الموقف لاستمرار السيادة الاسلامية على هذه البلاد ، وتفادي وقوعها العاجل في يد العدو ، هو ما فعله يوسف ، وتدارك به الأمر ، قبل حصول الكارثة . وما أشبه ما كانت عليه الحال في الأندلس وقتئذ ، بما عليه حال البلاد العربية اليوم من التقسيم والخلاف والتبعية للأجنبي ، وتبديد طاقاتها في المعارك الداخلية ، والعدو جاثم على صدرها يسومها الذل والهوان ، ويقتطع كل يوم من أرضها ما يوسع به الإقليم الخاضع لنفوذه ، الذي اغتصبه من غفلتها وسوء تصرف حكامها ، فهي أحوج ما يكون الى قائد عصاميّ مثل يوسف يرأب صدعها ويلمّ شملها ويطهر أرضها من رجس العدوّ الدخيل ...

فمن يعترض على تدخل يوسف في الأندلس وتوحيده لأقاليمها الموزعة بين ملوك الطوائف ، الخاضعين لنفود ألفونس ، المؤتمرين بأمره ، هو كمن يعترض اليوم على من يعمل لوحدة العرب وجمع كلمتهم ، لطرد الصهاينة المعتدين ،

وجعل حد لاستهتار الزعماء والقادة العرب ، بقضية فلسطين الشهيدة والقدس المحتل .

ويؤخذ على يوسف معاملته للمعتمد بن عباد وسجنه له بأغمات وهي قضية عاطفية ضخمها الأدب الذي أنشيء حول مصير هذا الملك السيئ الحظ ، وما قاله هو في نكبته من أشعار مؤثرة ، ولو نظرنا اليها بعين الانصاف ، لما أعطيناها هذه الصفة المأسوية التي جعلتها تثار في كل مناسبة .

لقد وقع ابن عباد في الأسر ، وكان ابن تاشفين قد أوصى قائده بالإبقاء عليه ، وعدم قتله ، فأتاح له فرصة العمر ليملأ الدنيا بالبكاء على ملكه الضائع ، والشكاية من غدر الأيام . ولما كانت الدنيا لا تخلو من ذوي العواطف الرقيقة ، من الذين ينظرون الى مصلحة الفرد قبل مصلحة الجماعة ، فان مصير المعتمد لم يفتأ يثير الشجون ويورث الغيظ على ابن تاشفين عند طبقة من الناس ، وخاصة بطانته السابقة من الندمان والشعراء ، ومن أشبههم في الأزمنة المتلاحقة .. لكن الذين ينظرون الى عمل يوسف من زاوية السياسة القومية التي تتطلب الضبط والحزم ، وحماية بلاد العروبة والاسلام ، لا يترددون في أنه عمل شرعي ، وأن اعتقاله للمعتمد في أغمات لم يكن منه بد ، وهو أقل ما تقضي به الأعراف السياسية والقوانين الحربية ، لا سيما وقد بارز بالعداوة قائد يوسف وقلب له ظهر المجن ، وداخل عدو المسلمين — فيما يقول ابن خلدون — للاستظهار به على جيش المغرب فتوافرت الدواعي الى مقاتلته وأسره .

ولقد كان هناك من ملوك الطوائف من سالم أو استسلم ، فآل أمره الى

التكريم والرعاية لأهله وذويه ، فليس ما يطبع سياسة المرابطين أو البربر كما يعبر بعض الكتّاب هو القسوة ، فان القوم كانوا من الالتزام بشريعة الاسلام ومشاورة أهل الفقه والدين ، بحيث لم يثبت عليهم أنهم أراقوا مِحْجَم دم في غير مواطن الحرب . ولو كان الأمر صادراً عن طبيعة وغريزة لما فرقوا في المعاملة بين هذا وذاك ممن وقع في أيديهم من ملوك وأمراء .

على أن اعتقال المعتمد في أول الأمر ، انما كان بمثابة ما نعبّر عنه اليوم بالإقامة الاجبارية ، بدليل أنه كان يستقبل الزوار ويدخل عليه الشعراء ، فيمدحونه ويجيزهم . وانما وقع التشديد عليه حين ثار ابنه عبد الجبار بأحد حصون الأندلس .. ومع ذلك فلا تقاس معاملة يوسف له بما كان ملوك الأندلس يعاملون به خصومهم من ضروب العنف والقسوة والبطش وعند الله تجتمع الخصوم .

* * * * *

كذلك يتندر كثير من الكتاب بما أشاعه أدباء الأندلس وخاصة بطانة المعتمد عن يوسف من كونه يجهل العربية جهلا تاماً ، ولا يعرف الا البربرية ، حتى انهم ربما ذكروا أن مضامين الرسائل التي ترد عليه انما كانت تبلغ اليه بطريق الترجمة من كتابه . ويروون أن المعتمد كتب اليه ذاتَ مرة رسالة أنشد فيها بيت ابن زيدون القائل :

حالت لفقدكم أيامنا فغدتْ   سوداً وكانت بكم بيضاً ليالينا

فلما قرىء عليه قال : لعله يطلب منا جواري سوداً وبيضاً ، والمعروف أن

كتّابه الصدّور كانوا من الأندلس ، فليس عندنا دليل من التاريخ على أنهم كانوا يحسنون البربرية حتى نسلّم أنهم يستطيعون أن يترجموا اليها الرسائل الواردة عليه ويبلغوه مضامينها ، وكيف يتصور أن ملكاً مثل يوسف في سعة ملكه وضبطه وحزمه ، يمكنه أن يصرف الأمور ، ورسائله الصادرة والواردة ومنشوراته ومراسيمه تحرر بلغة لا يعرفها وانما يحاط علماً بمضامينها ؟ .

وهل هناك أسخفُ من هذه الرواية التي تقول إن يوسف لما سمع بيت ابن زيدون ، علق عليه بذلك الكلام الصبياني ؟ ولنجارِ هؤلاء الرواة الموتورين في سخافتهم فنسألهم عن الرسالة التي كتبها المعتمد اليه وضمنها ذلك البيت ، أين هي ؟ أليست تكون عَنْقَاءَ مُغْرب ، او كتبت بالفعل ، فيتناقلها الناس ويسجلها المؤرخون ؟ وما معنى أن ينشد المعتمد في هذه الرسالة بيت ابن زيدون الذي يقول « حالت لفقدكم » ويوسف لم يفقد ؟ فهل نتخذ ذلك حجة على انعدام الذوق وقلة الفهم عند المعتمد ؟ ..

الحقيقة أن يوسف كان على جانب من العلم والمعرفة بالعربية والدين ، ونصوصهما الأولى وهي القرآن والسنة النبوية لا يجوز معه أن يقال انه يحتاج في فهم الكتب المحررة بالعربية الى ترجمان ، وأحرى أن يقال انه لا يعرف العربية مطلقاً . يدل على ذلك ما قدمناه في الكلام على نشأته وتكوينه ، وما يُقدّر أن يكون حصله أثناء انقطاعه في رباط عبد الله بن ياسين من المعلومات الضرورية وقبله ، وهو أمر يعد في جملة المؤهلات التي جعلته يُختار من بين العديد من رجال لمتونة للقيادة والزعامة ، حتى كان ثاني رجل في الدولة أيام امارة أبي بكر بن عمر ، ثم رجلها الفذ وأمير المسلمين بعد ذلك

الذي لم ينازعه أحد ، ولا شك في أهليته وتقدمه واستحقاقه قريب أو بعيد . وقد برهن في تسييره لشؤون الدولة وتدبيره للحروب على جدارته وكفاءته ومقدرته ، مما لا يستقيم أبداً لرجل جاهل ساذَج لا يعرف حتّى اللغة التّي يدير بها سياسة بلاده ، كما يزعم القوم .

على أن أولئك الرواة لما كانت العلاقات ما تزال طيبة بين المغرب والأندلس قد رووا لنا ما ينقض قولهم هذا ، وهو جوابه لألفونس قبل موقعة الزلاقة ، فقد كتب اليه ألفونس يهدده ويحاول أن يثنيه عن عزمه على نصرة ملوك الأندلس وإصراخ أهلها وذكر من قوّته وما أعده لقتاله ما ظن أنه يؤثر في يوسف ، فيتأخر عن قصده . فأجابه عن يوسف أبو بكر بن القصيرة ، وهو يومئذ من وزراء المعتمد وكتابه ، بكتابٍ احتفل فيه ما شاء ، وكان كاتبا مفلقاً ، قالوا ، فلما قرأه على يوسف ، قال هذا كتاب طويل ، وأحضر كتاب ألفونس وكتب على ظهره « الجواب ما ترى لا ما تسمع » وفي رواية أخرى أنه كتب عليه : « ان الذي يكون ستراه » ، وكان لهذا الجواب وقع عظيم في نفس ألفونس الذي عرف أنه بليَ برجل يفعل ولا يقول .

فهذه الرواية لم تقل انه ترجم له جواب الكاتب ابن القصيرة الى البربرية ، وانما ذكرت أنه قرىء عليه فاستطاله ، واستعاض عنه بجواب من جوامع الكلم ، بقي مثلا مضروباً على شدة الحزم وقوة البأس وعظمة النفس الى الآن . وقد تفردت من بين الروايات الأخرى باثبات واقع الحال والاعتراف بحقيقة الرجل ، لأنها رويت قبل أن يظلم الجو بينه وبين خصومه ولعل ما قلناه في هذا الموضوع يكفي لتبديد كل الترهات التّي تدور حوله ، لا سيما

وهي لغو من القول ، وهزل لا يستحق أن يحمل على الجديّة بحال .

* * * *

ولما دانت الأندلس ليوسف واستتب له بها الأمر ، جاز اليها جوازه الرابع والأخير ، متفقداً لأحوالها متعهداً لمصالحها ، وذلك فيما بين سنتي ٤٩٦ و ٤٩٧ حسبما يستفاد من كتاب الحلل الموشية وتاريخ ابن خلدون . على أن صاحب القرطاس كذلك يذكر أنه في سنة ٩٦ أخذ البيعة اولده علي بقرطبة ، فبايعه جميع أمراء لمتونة وأشياخ البلاد وفقهائها ، وذلك في ذي الحجة منها ، فجوازه هذا كان لأخذ بيعة الأندلسيين اولي عهده التي أبرمت في المغرب سنة ٩٥ وللنظر في الشؤون السياسية للبلاد ، وضبط الثغور ، وقد صرف بعض الولاة وعين آخرين ، وكان ذلك ايذاناً بتدشين عهد جديد في الجزيرة ، وهو عهد الاستقرار والسلم بعد زمن الفوضى والحروب . قال في الحلل ، وهو يتحدث عن جواز يوسف هذا الى الأندلس : « ولما جال في بلادها وتطوف على أقطارها شبهها بعقاب رأسه طليطلة ومنقاره قلعة رَباح وصدره جيّان ومخالبه غرناطة وجناحه الأيمن بلاد الغرب وجناحه الأيسر بلاد الشرق .. وببيان كيفية وضعها وتمثيلها في الصفرة (١) يبدو بيان هذا التشبيه الذي هو راجع الى سياسة أمرها واعتبار أحوالها » ونزيد فنقول ان هذا التشبيه العقيم هو مما يتعرف به بُعْدُ نظر يوسف وحصافة رأيه وصحة تصوره وسداد حكمه ، فهل من يصدر منه مثله يكون من السذاجة بالمثابة التي تجعله يقول في بيت ابن زيدون ما قوّله إياه الخصوم الموتورون ؟

---

(١) الصفرة : الخارطة .

ويحسن أن نورد هنا ما جاء في ترجمته عند ابن خلّكان من كلام منسوب له في اعتبار أحوال المعتمد والتعليق على حياته الخاصة ، وهو كلام يدل على تفكير سياسي ناضج ونظر سديد في تدبير شؤون الملك ، فقد ذكر ابن خلكان أن يوسف عند قصده ملاقاة الفونس تحرى المسير اليه بالعراء من غير أن يمر بمدينة أورستاق حتّى نزل الزلاّقة ، وهذا خلاف ما قدمناه من أنه توجه أولا الى إشبيلية ، ومنها كانت انطلاقته هو والمعتمد الى الزلاقة ، فهي رواية أخرى ، قال : « ولما قضى أمير المسلمين من هذه الوقعة ما قضى ، أمر عساكره بالمقام ، وأن تشن الغارات على بلاد الفِرنْج ، وأمر عليهم سَيْر بن أبي بكر ، وطلب الرجوع في طريقه ، فتكرم به ابن عباد فعرّج به الى بلاده وسأله أن ينزل عنده ، فأجابه يوسف الى ذلك » . فلما انتهى يوسف الى إشبيلية ، مدينة المعتمد ، وكانت من أجمل المدن منظراً ، ونظر الى موقعها على نهر عظيم مستبحر ، تجري فيه السفن بالبضائع ، جالبة من بلاد المغرب وحاملة اليه في غربيه رُستاق عظيم مسيرة عشرين فرسخاً يشتمل على آلاف من الضياع كلها تينٌ وعنبٌ وزيتون ، وهذا الموضع هو المسمى فرق إشبيلية ، وتميز بلاد المغرب كلها من هذه الأصناف ، وفي جانب المدينة قصور المعتمد وأبيه المعتضد في غاية الحسن والبهاء ، وفيها أنواع ما يحتاج اليه من المطعوم والمشروب والملبوس والمفروش وغير ذلك . فأنزل المعتمد يوسف بن تاشفين في أحدها ، وتولى من إكرامه وخدمته ما أوسع شكر ابن تاشفين له .

« وكان مع ابن تاشفين أصحاب له ينبهونه على تأمل تلك الحال ، وما هو عليه من النعمة والإتراف ، ويغرونه باتخاذ مثلها لنفسه ، ويقولون ان

فائدة الملك قطع العيش فيه ، بالتنعم واللذة ، كما هو المعتمد وأصحابه ، وكان يوسف بن تاشفين مقتصراً في أموره غير متطاول ولا مبذر متنوّق في صنوف الملاذ بالأطعمة وغيرها ، وكان قد ذهب صدر عمره في بلاده في شظف العيش ، فأنكر على مغريه بذلك الإسراف ، وقال : « الذي يلوح من أمر هذا الرجل – يعني المعتمد – أنه مضيّع لما في يده من الملك ، لأن هذه الأموال التي تعينه على هذه الأحوال لا بد أن يكون لها أرباب لا يمكن أخذ هذا القدر منهم على وجه العدل أبداً ، فأخذه بالظلم ، وأخرجه من هذه الترهات ، وهذا من أفحش الاستهتار ومن كانت همته في هذا الحد من التصرف فيما لا يعدو الأجوفين ، متى تستنجد همته في حفظ بلاده وضبطها وحفظ رعيته والتوفر على مصالحها » وزاد ابن خلكان :

« ثم ان يوسف بن تاشفين سأل عن أحوال المعتمد في لذاته ، هل تختلف فتنقص عما هي عليه في بعض الأوقات ، فقيل له : لا بل كل زمانه على هذا ، قال : أفكل أصحابه وأنصاره على عدوه ومنجديه على الملك ، ينال حظاً من ذلك ؟ قالوا : لا . فقال كيف ترون رضاهم عنه ؟ قالوا : لا رضى لهم عنه . فأطرق يوسف وسكت » .

ان هذه المحاورة التي جرت بين العاهل المغربي وبطانته من قواده المقربين اليه ، لدليل على بعد غوره وتمرسه بسياسة الملك ، ونزاهته وعفته ، واستقلاله بالرأي وعدم اسلاس القياد لهذه البطانة التي أمرته بالسوء وأشارت عليه بما فيه فتنته وضياع مملكته لو اتبع إشارتها ، ولكنه وهو الرجل الحكيم والناقد البصير جعل يبين لأصحابه ما في تلك الخطة من الفساد وظلم الرعية ، واستعجال

الخراب لبلاده ، فألقى عليهم درساً عظيما في أصول الحكم وتدبير الممالك ، ونبههم الى المصير المظلم الذي ينتظر المعتمد ومن على شاكلته من الحكام المفرطين في مصالح رعاياهم ، المنهمكين في الملاهي والملاذ ، المضيعين لمقدرات بلادهم فيما لا يعود عليهم وعليها الا بالهلاك والدمار وبهذا تتبين لنا عظمة يوسف وعبقريته الفكرية والسياسية ، اضافة الى عبقريته العسكرية والحربية التي لا مطعن فيها ، فان هذه النظرة الفاحصة التي ألقاها على حياة المعتمد والنتائج التي استخلصها منها، تقدمه الينا في صورة مفكر كبير ومصلح عظيم ، يتعمق بواطن الأمور ولا يكتفي بظواهرها ، قد ملك زمام نفسه فلم يغتر بما يزينه الناس من الباطل وسار في أمره على ما يعرفه من حق وصواب ، فلم يكن من السهل أن يستدرج أو يخدع ، فأين ما يقوله الخصوم عنه من الهراء والكلام الفارغ ؟ ..

الحقيقة أنه لولا الغرض والشهوة والعصبية البلدانية من أهل الأندلس والتقليد الأعمى ممن جاء بعدهم ، لكان هذا الكلام وحده من أعظم ما يبعث على انصاف يوسف وتقدير عمله ، واعتباره ثورة على الظلم والاستئثار والفساد ، فضلا عن إنقاذه البلاد من الوقوع في يد العدو ، وتقليص ظل الاسلام والحضارة العربية عنها منذ القرن الخامس الهجري .

ولو كان هذا الكلام الذي فاه به العاهل المغربي ابطانته ، صدر من أحد ملوك الإفرنج اتُلُقِّيَ بمزيد الاعجاب والشقشق وعُلِّق عليه بما يجعله دستوراً من دساتير الحكم ، وقانوناً من قوانين السياسة، تستخرج منه العبر والعظات وتؤخذ منه المغازي والمثلات ، حتى لا يبقى وجه من وجوه النظر لا يقلب عليه ، فليت شعري متى يستيقظ العرب والمسلمون من سباتهم ،

ويقدرون رجالاتهم الذين صنعوا تاريخهم ، وأبلَوا البلاء الحسن في الحفاظ على كرامتهم ؟..

هذا واعل العمل الجليل الذي قام به يوسف بعد انقاذه الاندلس ، هو انضواؤه تحت لواء الخلافة العباسية ، وطلبه العهد من خليفة بغداد على ما بيده من الأقاليم لتكون ولايته شرعية ، بحسب النظر الاسلامي ، حتى لا يعدّ خارجاً على الامام الأعظم الذي هو أمير المؤمنين ، وخليفة المسلمين ، ومن ثم تسمى بأمير المسلمين ورفض أن يلقب بأمير المؤمنين كما سبق الإلماع الى ذلك .

قال ابن خلدون : « وتسمى يوسف بأمير المسلمين وخاطب الخليفة لعهده ببغداد ، وهو أبو العباس أحمد المستظهر بالله العباسي ، وبعث اليه عبد الله ابن محمد العربي المعافري الإشبيلي وولده القاضي أبا بكر بن العربي الامام المشهور ، فتلطفا في القول وأحسنا في الابلاغ ، وطلبا من الخليفة أن يعقد لأمير المسلمين بالمغرب والأندلس ، فعقد له وتضمن ذلك مكتوب من الخليفة ، منقول في أيدي الناس ، وانقلبا اليه بتقليد الخليفة وعهده على ما الى نظره من الأقطار والأقاليم ، وخاطبه الامام الغزالي وأبو بكر الطّرْطوشي يحضانه على العهد والتمسك بالخير .

وكان هذا قبل جوازه الرابع الى الأندلس سنة ٤٩٧ .

ويعلق صاحب الاستقصا على هذا الأمر فيقول : « وانما احتاج أمير المسلمين الى التقليد من الخليفة المستظهر بالله مع أنه كان بعيداً عنه وأقوى شكيمة منه ، لتكون ولايته مستندة الى الشرع وهذا من ورعه رحمه الله » .

لقد رد يوسف بسياسته هذه المغرب الى أحضان الجامعة الاسلامية بعد ما

كانت الدول التي نشأت فيه من قبل ، قد اقتطعته منها . وتلك ولا شك خطة مستمدة من تعاليم عبد الله بن ياسين التي كان يلقيها الى تلاميذه المخاصين ومنهم عاهلنا العظيم ، ومن اشارات جلسائه الفقهاء الذين كانوا أقرب الناس اليه وأكثرهم نفوذاً في دولة المرابطين على العموم منذ قيامها ، بحيث لا يُبرَم أمر ويصدر حكم الا بعد أخذ رأيهم فيه ، حتى لقد كثر ما انتقد المؤرخون خضوع هذه الدولة لسيطرة الفقهاء ناسين أو متناسين أن الدولة اسلامية ، وأن أعرف الناس بأحكام دولة الاسلام هم الفقهاء ، فاستشارتهم والأخذ برأيهم هو من الرجوع الى أهل الاختصاص وتوسيد الأمر الى ذويه ، ولو لم يكن من نتيجة لذلك الا هذا التدبير الحكيم الذي أعاد الرباط السياسي لدولة الاسلام الى ما كان عليه من قوة وفعالية ، لما كانت هذه الدولة تنشر أجنحتها على بلاد الاسلام قاطبة في المشرق والمغرب ، لكان علينا أن نشيد بسلوك المرابطين في تقريبهم للفقهاء ونزكّي الحكم الذي تكون اليد العليا فيه للفقهاء .

ولعل نجاح هذا المسعى الحميد وتحقيقه على يد سفارة من رجال الفقه الاعلام هو مما يؤيد نظرنا في ذلك ، ويظهر الفرق العظيم بين أعمال مستشارين من الفقهاء وأعمال غيرهم من مختلف الطبقات .

وقد طار ليوسف بهذه السياسة الرشيدة ، والسيرة الحميدة ذكر جميل في أقطار المشرق ، حتى تشوقت اليه أنظار كبار الشخصيات فيه . فقد قال ابن خلكان في ترجمته : « وكان حازماً سائساً الأمور ضابطاً لمصالح مملكته ، مؤثراً لأهل العلم والدين ، كثير المشورة لهم ، وبلغني أن الامام أبا حامد الغزالي تغمده الله برحمته لما سمع ما هو عليه من الأوصاف الحميدة ، وميله

الى أهل العلم ، عزم على التوجه اليه ، فوصل الى الاسكندرية وشرع في تجهيز ما يحتاج اليه فوصله خبر وفاته ، فرجع عن ذلك العزم ، وكنتُ وقفت على هذا الفصل في بعض الكتب ، وقد ذهب عني في هذا الوقت من أين وجدته »، وناهيك بهذه السمعة الطيبة التي تحمل قطباً من أقطاب العلم والدين على شد الرحلة من المشرق الى زيارة صاحبها في أقصى المغرب ، مع ما عُلِم من اجتناب العلماء ورجال الدين للقرب من الملوك والسلاطين ، وعدم رغبتهم في لقائهم حتى عند حرص هؤلاء على ذلك .

فكفى يوسف هذه المكرمة العظيمة التي تبين من فضله ورفعة قدره وعلو شأنه عند أقطاب العالم الاسلامي بالمشرق ما خَفِي على بعض المتحاملين عليه من أهل الأندلس والسائرين في ركابهم . وما أحسن قول الحماسي :

لقد زَادنِي حباً لنفسيَ أنني ... بغَيض الى كل امرىء غير طائِل

وأشار ابنُ خلكان بعد كلامه السابق الى صفة يوسف الخَلقية بفتح الخاء بعد ذكره لصفته الخُلقية بضمها ، وهذا الوصف هو عند ابن أبي زرع أتم وأكمل ، فنحن ننقل قوله فيه لعمومه وشموله . قال رحمه الله بعد ما ذكر اسمه واسم آبائه ثم ذكر اسم أمه وهو فاطمة بنت سيْر بن يحيى من أبناء عمومته اللمتونيين : « صفته أسمَر اللون نقيّه ، معتدل القامة نحيف الجسم ، خفيف العارضين ، رقيق الصوت ، أكحل العينين ، أقنى الأنف ، له وفْرة تبلغ شحمة أذنيه ، مقرون الحاجبين ، جَعْد الشعر ، وكان رحمه الله بطلا نجداً شجاعاً حازماً مهاباً ضابطاً لملكه ، متفقداً الموالي من رعيته ، حافظاً لبلاده وثغوره ، مواظباً على الجهاد ، مؤيداً منصوراً ، جواداً كريماً

سخياً ، زاهداً في الدنيا متورعاً عادلا صالحاً ، متقشفاً على ما فتح الله عليه من الدنيا ، لباسه الصوف ، لم يلبس قط غيره ، وأكله الشعير ولحوم الابل وألبانها ، مقتصراً على ذلك ، لم ينتقل منه مدة عمره الى أن توفي رحمه الله تعالى على ما منحه الله من سعة الملك في الدنيا وخوله منها ، فانه خُطِب له بالأندلس والمغرب على ألف وتسعمائة منبر » .

ثم يقول ابن أبي زرع مبيناً سعة مملكة ابن تاشفين ونقاء سيرته : « وكان ملكه من مدينة إفراغة من ناحية شرق الأندلس الى مدينة الاشبونة على البحر المحيط من غرب بلاد الأندلس ، وبالمغرب من جزائر بني مَزْغَنّة (الجزائر العاصمة) الى طَنْجة ، الى آخر السوس الأقصى ، الى جبال الذهب من بلاد السودان ، ولم يوجد في بلد من بلاده ، ولا في عمل من أعماله ، على طول أيامه اسم مَكْسٍ ولا معونة ، ولا خراج ، لا في حاضرة ولا في بادية الا ما أمر الله تعالى به وأوجبه حكم الكتاب والسنة من الزكاة والأعشار وجزية أهل الذمة وأخماس غنائم المشركين . وجَبَى من ذلك المال على وجهه ما لم يَجْبِه أحد قبله ، ورد أحكام البلاد الى القضاة وأسقط ما دون الأحكام الشرعية ، وكان يسير في أعماله فيتفقد أحوال رعيته كل سنة . وكان محباً في الفقهاء والعلماء والصلحاء مقرباً لهم ، صادراً عن رأيهم ، مكرماً لهم ، أجرى عليهم الأرزاق من بيت المال طوال أيامه . وكان مع ذلك حسن الأخلاق متواضعاً كثير الحياء ، جامعاً لخصال الفضل ، وكان كما قال الفقيه الكاتب أبو محمد بن حامد فيه وفي بنيه :

مَلِك له شرفُ العلى مِن حِمْيرٍ　　　واذا انتموْا صنهاجة فهم هم

لما حووْا إحرازَ كل فضيلة غَلَبَ الحياءُ عليهم فتلثموا ..

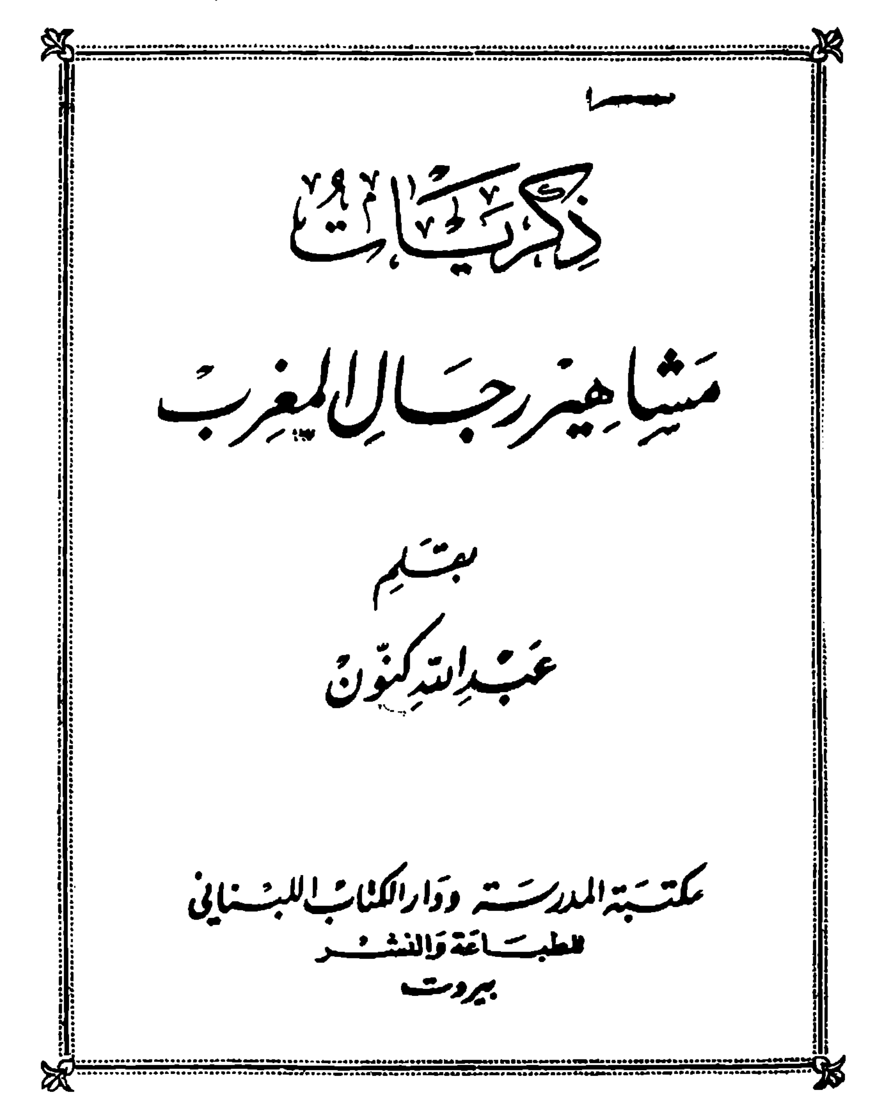
انتهى باختصار يسير . وجاء وصفه بالحلل الموشية على هذا المنوال ، الا أن فيه زيادات مفيدة ، وهذا نصه : « كان رجلا فاضلا خيّراً زكياً فطيناً حاذقاً لبيباً ، يأكل من عمل يده ، عزيز النفس ينيب الى خير وصلاح ، كثير الخوف من الله عز وجل ، أكبرُ عِقابِه الاعتقال الطويل ، وكان يفضل الفقهاء ويعظم العلماء ، ويصرفُ الأمور اليهم ، ويأخذ برأيهم ويقضي على نفسه بفتياهم . أقامت بلاد الأندلس في مدته سعيدة حميدة في رفاهية عيش وعلى أحسن حال ، لم تزل موفورةً محفوظة الى حين وفاته رحمه الله . وقد كان الجهاد انقطع بها منذ تسع وسبعين سنة ، من مدة آل عامر الى حين دخوله اليها . قدم أشياخ المرابطين فيها وكانوا أقواماً ربتهم الصحراء ، نيتهم صالحة لم تفسدها الحضارة ، ولا مخالطة الأسافل ... وترك الثغور المواجهة لبلاد العدو في حكم الأندلسيين لكونهم أخبر بأحوالها ، وأدرى بلقاء العدو وشن الغارات ، مع الاحسان اليهم ، فلما قربت وفاته أوصى ابنه ولي العهد بعده أبا الحسن على ثلاث وصايا (أحدها) ألا يهيج أهل جبل دَرَن (الأطلس) ومَن وراءه من المصاعدة وأهل القبلة ، (الثانية) أن يهادن بني هود وأن يتركهم حائلا بينه وبين الروم ، (الثالثة) أن يقبل من محسن أهل الأندلس ويتجاوز عن مسيئهم » انتهى ببعض تصرف .

وتوفي يوسف بن تاشفين ، وقد بلغ عمره مائة سنة في مستهل محرّم كما عند ابن أبي زرع ، وقال ابن خلكان في يوم الاثنين لثلاث خلون من المحرم سنة خمسمائة . وما في الحلل الموشية من أنه توفي في ربيع الآخر

لا معول عليه . قال « ودفن بقصره بحاضرة مراكش ، وحضر موته أبناؤه وعترته الصنهاجية وأسرته اللمتونية ، وقبض وهو على أوله في العزم والجد في نصر الدين واظهار الكلمة وعضد الاسلام رحمة الله عليه » .

ولا بد أن نشير في آخر هذه الترجمة الى ما مضى من وصف قوم يوسف بالملثمين ، وهو وصف كاشف لحالهم ، فانهم كانوا أهل صحراء ، يتقون لفح حرها باللثام ، أما وصفهم بالمرابطين ، فلما سبق قيام دولتهم من دخولهم مع عبد الله بن ياسين الى المحل الذي رابط فيه للعبادة وتربية من انقطع اليه من قبائل صنهاجة ، على ما بيناه في ترجمة ابن ياسين ، وتنتسب قبائل صنهاجة في أصلها الى حِمْيَر من عرب اليمن ، ولذلك ألمع ابن حامد في شعره المتقدم حين قال : قوم لهم شرفُ العلى من حِمْيَر ..

المملكة العربية السعودية
وزارة المعارف
المكتبات المدرسية



دار الكتاب اللبناني
برقيا: كتالبان - بيروت
ص - ب: ٣١٧٦
بيروت - لبنان

39

إبن حبوس الفاسي

ابن حبوس الفاسي

الاشتباه في اسمه ، ولادته ونشأته ، نبوغه واشتهاره ، ديوانه ، حياته أيام المرابطين ، وقف على الشعراء ، وفاته ، شعره ، نماذج منه

أبو عبد الله محمد بن حسين بن عبد الله بن حَبُّوس الفاسي ، شاعر كبير من مخضرمي الدولتين المرابطية والموحّدية ، عُرف بجَدّه حبّوس ، وهو بالباء الموحدة المخففة ، من موالي بني أبي العافية ملوك المغرب بعد الادارسة ، وهذا الاسم معروف في المغاربة قديماً ، ومع ذلك فقد اشتبه على كثير من الناس فحرّفوه .

قال ابن خلكان في ترجمة الشاعر الدمشقي ابن حَيّوس – بالياء المثناة مشددة : « وفي شعراء المغاربة ابن حَبوس بالباء الموحدة المخففة ، وانما ذكرته لئلا يتصحف على كثير من الناس بابن حيّوس . ورأيت خلقاً كثيراً يتوهمون أن المغربي يقال له ابن حيّوس أيضاً ، وهو غلَط ، والصواب ما ذكرته ، والله أعلم » . وممن تصحف عليه بابن حيّوس صاحبُ تاج العروس ، فأورده في مادة « حاس » وقال كَتنوّر ، كما صحّف اسم والده الحُسَيْن الى

الحيسي ، ولعل هذا تطبيع فقط ، على أن ابن حيّوس هذا قد يتصحف بابن حبوس صاحبنا ، ونتيجة لذلك، فان ابن القاضي لما ترجم لأبي بكر بن باجة في الجذوة ، أنشد له قوله :

أسُكّانَ نعْمان الأراكِ تيقّنوا بأنكمُ في ربْع قلبيَ سكّانُ

الى آخر الأبيات المشهورة ، ثم قال : ويقال انها لابن حَبُّوس ، فتصحف عليه ابن حيّوس الدمشقي الذي تنسب اليه هذه الأبيات أيضاً بابن حَبُّوس الفاسي ، فنَسب اليه ما ليس له ، وهذا ان لم يكن ذلك من خطأ الطبع ، وهو في الجذوة كثير .

وثَمّ شاعر آخر أندلسي اختلف في اسمه فقيل انه ابن حيّوس ، بياء مثناة وسين كاسم الشاعر — الدمشقي — وهو ما أشار له صاحب « معاهد التنصيص » في شرح الشاهد :

كيف أسلو وأنت حِقْف وغُصن وغزال لحظاً وقَدّاً ورِدْفا

فقال : « البيت من الخفيف وهو منسوب لابن حيّوس ، ولم أره في ديوانه ، ولعله ابن حيّوس الاشبيلي » .

ثم عرّف بابن حيوس الدمشقي فأطال في ترجمته ، وقال في ابن حيوس الاشبيلي ما نصه : « وابن حيوس الاشبيلي ذكره ابن فضل الله » . ونقل تَحْلِيةً له فيه ، وبَيْتَين من شعره أنشدهما له ابنُ سعيد المغربي .

وقد أثار هذا التشابهُ في الاسم مُشكِلا عند صديقنا الأستاذ الكبير خليل

مردم بك ، وهو يحقق ديوان ابن حيّوس الدمشقي ، فكتب الى الأستاذ عبد العزيز الأهواني ، وكان حينئذ في مدريد يتخصص في الأدب الأندلسي كما يقول خليل بك في مقدمة ديوان ابن حيّوس ، يسأله عن ابن حيّوس الاشبيلي ، فأجابه بأن صاحب البيتين اللذين أنشدهما ابن فضل الله هو ابن حَنون الاشبيلي بالنون لا بالياء كما في كتاب «المُغْرب في حلى المَغْرب» لابن سعيد المغربي ، فالصواب في نص صاحب معاهد التنصيص أن يكون الاسم ابن حَنون الاشبيلي لا ابن حيّوس .

وأظن المشكل لا ينحلّ بكون الاسم في كتاب المغرب : ابن حَنون بالنون ، فهو في كتاب عنوان المرْقصات والمطْربات لابن سعيد نفسِه : ابنُ حيّون بمثناة ونون آخره ، وكذلك هو في رايات المبرّزين له ، وفي النفح عند الكلام على التوشيح والوشاحين ، وهو كلام منقول عن ابن سعيد. وكذلك وَرَدَ اسمُه في تاريخ الأدب الأندلسي لِبَالِينْسِيا . ولم يرد فيه ولا في النفح اسم ابن حنون بالنون إطلاقاً .

نعم هو في « زاد المسافر » بالنون مع تكنيته بأبي العباس متوافق مع ما في المُغْرب ، وتبقى معنا روايات المرقصات والرايات ونفح الطيب وغُونْسا - لِيس بَالِينْسيا - كلهّا على انه ابن حَيّون، ورواية معاهد التنصيص عن ابن فضل الله انه ابن حيّوس بالياء المثناة تحت والسين آخِرَه . ويعضدها ما جاء في بدائع البدائه قال : « وأخبرني الفقيه الزاهد أبو عبد الله محمد القرطبي أيده الله ، قال : قال أبو محمد عبد المومن بن علي صاحب قرطبة والمغرب يوما في مجلسه ، وقد عوفيَ من مرض .

الحمد لله رب العالمين على ..

ثم طلب إجازتَه من أهل المجلس ، فلم يجبْه أحد . فقال أبو العباس ابن حيّوس :

بُرْءِ الإمام الذي في الآمِنين عَلا » .

فهذه ثلاث روايات ليست إحداهن بأوْلى من الأخرى بالترجيح ، اذ ليس فيها ما ضُبِط بالحروف كما فعل ابنُ خلكان في ابن حيّوس وابن حبُوس مع احتمال التصحيف في كل منها ، ولذلك قلنا : إن المشكل لا ينحل بجواب الأخ الدكتور عبدالعزيز الأهواني .

وبكل وجه فان اسم صاحبنا المترجم له ، هو بالباء الموحدة المخففة من غير خلاف .

ولد ابن حَبُوس ببلده فاس سنة ٥٠٠ ، وتأدب بالعلماء من أهلها والطارئين عليها ، وقال الشعر في صباه ، ولا صحة لما في (المحمدون من الشعراء) للقِفْطي من أنه أندلسي المولِد والمنشأ ، ثم رحل الى تلمسان فأقام بها يسيراً ، ثم رحل الى مراكش فأقام بها قليلا ، ثم قدم الأندلس فتردد في بعض بلادها معظَمَ عصر شبيبته ، الى أن ظهر أمر عبد المومن بن علي ، فصحبه ولزم ركابه ، وله فيه وفي بنيه أمداح كثيرة . قاله ابن عبد الملك المراكشي .

ونبغ واشتهر ، وأصبح شخصية فذّة تجمع بين العلم والشعر ، ويروي عنها الرواة وتتقدم المعاصرين من أهل الأدب . قال ابنُ الأبّار عنه في التكملة : « كان عالماً مُحقاً وشاعراً مفلِقاً يتقدم في ذلك أهلَ زمانه ،

ويُوقَفُ على جودة شعره من ديوانه ، امتدح الأمراء وروى عنه أبو بكر عبدالعزيز بن زيدان وغيره » وقال ابن عبدالملك في الذيل والتكملة : « روى أبو عبد الله عن أبي بكر الأبيض ، وروى عنه أبو محمد بن محمد التادلي وعبدالعزيز بن زيدان ، وكان شاعراً مفلقاً من جِلّة فحول الشعراء ، متفنناً في معارف سوى ذلك من كلام ونحو ولغة » .

ويرشدنا ابنُ الأبّار الى ديوانه لنقف منه على جودة شعره ، وأين منا ديوانه ؟ فسامحه الله ، لقد كان خيراً من إبعاده النجعة ، وتلفيقه لِتِلكَ السجعة ، أن يروي لنا قصيدة أو قصيدتين من مختار شعره ، فنجدهما لديه الآن كالدرتين المكنوزتَيْن ، والشّذرتين المخزونتين، ولكن هكذا شاءت الأقدار أن يتعاون الجميع على طمْر التراث الفكري لهذا القطر المغربي .

وإن تعجب ، فعجب مُوافقةُ ابن دِحْيَة لابن الأبار في هذا الصنيع ، فانه لما ذكر شاعرنا في كتابه « المطرب » ، لم يرو من شعره ولا بيتاً واحداً (١)، وانما أشار الى ديوانه الذي رفعه الى الملك الكامل بن أيوب سلطان مصر ، مع أنه أثنى عليه عظيم الثناء ، ووصفه بشاعر المغرب . وهاك قوله فيه : « ومنهم شاعر المغرب الأقصى ، ومفخره في صناعة المحاكاة والتخييل ، وإن كان له غلو في الإمداح ، وإفراط في الاختراع والاقتداح ، فربما ثنى عنانه الى مدح اللطيف الخبير ، ورَوّى ظمأه ذلك العذبُ النمير » ثم ذكر أنه لقيه بمراكش سنة ٥٦٤ ثم زاره في داره بفاس بدرب السرّاجِين ، وأخذ عنه وسمع منه .

---

(١) غلط محقق كتاب المطرب فنسب لابن حبوس أبياتاً ليست له وذلك في فهرس الشعراء الذي وضعه الكتاب .

وقال ابن عبد الملك في ديوانه هذا : « وشعره كثير ، وقد جمع له بعض أصحابه المختصين به ، ما عَلِقَ بحفظه منه أو أحضره ذكره ، أو أسأرته عوادي التنقل والاضطراب الى آخر ربيعَي ستين وخمسمائة ؛ فناهز ذلك ستة آلاف بيت وخمسمائة بيت . وقد وقفت منه على مجلد متوسط » وهذا على كثرته إنما هو طرف من شعره الذي كان لدى هذا الصاحب ، كيف لو جمع كل شعره فيما مضى من عمره قبل الستين ثم فيما بقي الى حين وفاته ؟

وكان ديوانه هذا عند القِفطي وأعاره لعلي بن القاسم بن عساكر فبقي عنده .

ويقول المؤرخ الأديب عبد الواحد المراكشي في كتابه « المعجب » يصف طريقة ابن حَبُوس في الشعر : « وكانت طريقته في الشعر على نحو طريقة محمد بن هانىء الأندلسي في قصد الألفاظ الرائعة ، والقعاقع المهولة ، وإيثار التقعير ، الا أن محمد بن هانىء كان أجود منه طبعاً ، وأحلى مهيعاً » وهذه شهادة — على ما بها — قاضية بِعُلوّ نفَسه وبُعْد غايته .. على أنه ذكر له قبلها ما يشهد بتفوّقه وتقدمه على جميع شعراء عصره من أندلسيين ومغاربة ، وذلك حين كلامه على بيعة أهل الأندلس لعبد المومن بن علي واحتفاله لذلك بجبل الفتح (جبل طارق) وهو قوله :

« وكان له (لعبد المومن) بهذا الجبل يوم عظيم ، اجتمع له وفي مجلسه من وجوه البلاد ورؤسائها وأعيانها وملوكها من العُدوة والأندلس ما لم يجتمع لملك قبله ، واستدعى الشعراء في هذا اليوم ابتداء ، ولم يستدعهم قبل ذلك ، إنما كانوا يستأذنون فيؤذن لهم ، وكان على بابه طائفة أكثرهم

مجيدون ، فدخلوا ، فكان أول من أنشده أبو عبد الله محمد بن حبُوس من أهل فاس (وأتى بكلامه السابق) ثم قال : « فأنشد في ذلك اليوم قصيدة أجاد فيها ما أراد :

بَلَغَ الزمانُ بهَدْيكم ما أمّلا　　وتعلمتْ أيامُهُ أن تعدلا

وبِحسْبِهِ إن كان شيئاً قابلا　　وجَد الهِداية صورةً فتشكلا

لم يبق على خاطري أكثر من هذين البيتين » .

فانظر كيف قُدّم ابنُ حَبُوس في ذلك المحفل العظيم على جميع من حضر من شعراء العُدْوتين الذين كانوا يُعدّون بالعشرات ، ما ذاك الا لتبريزه في الميدان ، وتقدمه — كما قال ابن الأبار — على أهل زمانه في هذا الشأن ، خصوصاً اذا لاحظنا أن ذلك الترتيب لا بد أن يكون عن قصد من منظمي الاحتفال الرسمي كما يُشعِر به كلامُ صاحبِ « المعجب » .

ونلاحظ أيضاً أن سِنّ ابن حَبُوس في ذلك الحين ، كانت نحواً من ٥٦ سنة ، لأن جواز عبد المومن الى الأندلس كان في سنة ٥٥٦ على ما عند ابن أبي زَرْع وغيره لا سنة ٥٣٨ كما وَهِمَ المراكشي ..وهذه السن أيضاً تقضي بتقديم ابن حبوس لأنه أصبح حينئذ شيخ الأدباء في المغرب .

ثم قال المراكشي عنه : « ولابن حبوس هذا قصائد كثيرة فيه (عبد المومن) وكان حظِيّاً عنده ، نال في أيامه ثرْوة ، وكذلك في أيام ابنه أبي يعقوب ، وكان في دولة لمتونة مقدماً في الشعراء ، حتى نقِلت اليهم عنه حماقات ،

فهرب الى الأندلس ، ولم يزل بها مستخفياً يتنقل من بلد الى بلد حتّى انتقلت الدولة المرابطية » . وهذا النص يفيد تقدمه أيضاً في الصناعة قبل الموحدين ، حين كانت أكثرية الأدباء من أهل الأندلس ، وكان الأدب الأندلسي في قمة مجده ونهاية كماله .

إنما لا ندري ما هذه « الحماقات » التي نقلت للمرابطين عنه ، أهي أقوال تمس بكرامة الدولة ورجالها مما كان يخوض فيه أهل الأندلس ؟ أم تصرفات تشعر بميله الى أعدائهم القائمين عليهم ؟ أم تهتك ومجون مما كان يصدر من الشعراء وأهل الأدب في زمانه ولا تحتمله سذاجة الدولة وصبغتها الدينية المعروفة ؟ إن لفظ الحماقات يحتمل هذا وغيره من الأمور ، ولكن ربما كان الأمر الثاني أرجح في نظرنا ، ولهذا قُرِّب في زمن الموحدين ورُفِع مقامه على غيره من الشعراء .

وحكى في « المعجب » هذه الحكاية التي جرت له أيامَ تغرّبه في الأندلس ، وفيها فوائد كثيرة ، منها اهتمام الأندلسيين بالأدب والشعر ، حتّى إنهم أوقفوا عليه الأوقاف . ومنها وقوف الحركة الأدبية في الأندلس أيام الفتنة حتّى لم يوجد أديب في مدينة شِلْب ، مدة سبع سنوات قبل مجيء ابن حبُوس اليها ، مع ما اشتهرت به هذه المدينة من كون أهلها أكثرهم شعراء ، حتّى لو مررت بالفلاح في حقله اوجدته ممن يقول الشعر ، ومنها مكانة ابن حبوس الشعرية في ذلك الوقت ، وهذا هو المهم في الحكاية . ونصها :

«قرأ عليَّ ابنه (ابن الشاعر) عبد الله من خط أبيه هذه الحكاية . قال : دخلت مدينة شِلب من بلاد الأندلس ، ولي يوم دخلتها ثلاثة أيام لم أطعم

فيها شيئاً، فسألت عمن يُقصَدُ اليه فيها، فدلني بعض أهلها على رجل يُعرف بابن الملح ، فعمدت الى بعض الورّاقين ، فسألته سِحَاءَةً (١) ودواةً فأعطانيها ، فكتبت أبياتاً امتدحه بها وقصدتُ داره فاذا هو في الدهليز ، فسلمت عليه ، فرحب بي وردّ عليّ أحسن ردّ ، وتلقاني أحسن لقاء ، وقال : أحسبك غريباً ؟ قلت نعَمْ . فقال لي : من أي طبقات الناس أنت ؟ فأخبرته أني من أهل الأدب من الشعراء ، ثم أنشدته الأبيات الّتي قلت ، فوقعت منه أحسن موقع ، فأدخلني الى منزله ، وقدّم إليّ الطعام ، وجعل يحدثني فما رأيتُ أحسن محاضرة منه . فلما آن الانصراف خرج ثم عاد ومعه عبدان يحملان صندوقاً حتّى وضعه بين يديّ ، ففتحه فأخرج منه سبعمائة دينار مرابطية ، فدفعها اليّ وقال : هذه لك . ثم دفع إليّ صرّةً فيها أربعون مثقالا وقال : هذه من عندي . فتعجبت من كلامه وأشكل عليّ جداً ، وسألته من أين كانت هذه لي ؟ فقال لي : سأحدثك ، إني أوقفتُ أرضاً من جملة مالي على الشعراء ، غلتها في كل سنة مائة دينار ، ومنذ سبع سنين ، لم يأتني أحد لتوالي الفتن الّتي دهمت البلاد ، فاجتمع هذا المال حتّى سيق اليك . وأما هذه فمِنْ حُرّ مالي ، يعني الأربعين ديناراً (٢) ، فدخلت اليه جائعاً فقيراً وخرجت عنه شبعان غنياً » .

وقد استغنى ابنُ حَبُوس بعد ذلك عند اتصاله بعبد المومن وبَنيه ، وأمِنَ واستقرت به الدار في بلده فاس ، حيث زاره ابنُ دِحْيَةَ كما سبق القول ، وتوفي سنة ٥٧٠ كما في ابن عبد الملك بنَقل صاحب الاعلام .

(١) قطعة قرطاس ، وانظر تحقيقاً حول هذه الكلمة في كتابنا « العصف والريحان » .
(٢) عبر أولا بالمثقال وثانياً بالدينار إيذاناً بتساويهما .

وفي تاج العروس أن وفاته كانت سنة ٥٨٠ وربما يكون وقع في الرقم تحريف .

هذا وتقدم عن ابن دحية وصفه بشاعر المغرب ومَفخَرَه في صناعة المحاكاة والتخييل ، ووصَفَه صَفوانُ بنُ ادريس وقد افتتح به كتابه بشاعر الخلافة المهدية ، يعني الدولة الموحّديّة ، وهو اللقب الذي حمله الشاعر الجرّاوي بعدُ . ونستخلص من هذه الأوصاف ومن كلام المراكشي السابق في شعره أنه كان طبقة عالية يزاحم بشعره الفحول من الشعراء كابن هانىء وغيره . وقد عُرِف شعرُه في المشرق لدى خلق كثير من أهله كما يفهم من كلام ابن خلّكان ، وإن كانوا يغلطون في اسمه ، ومجمَلُ القول فيه ، أخذاً من النماذج التي وقفنا عليها منه ، أنه شعر يجمع بين الجزالة والابداع ، ويكثر فيه المجاز والصور الخيالية التي يُقرّبُ بها ما بَعُدَ من المعاني وشرَدَ من الأغراض ، والكلمة فيه تخضع لمراد الشاعر ولا تتحكم فيه ، ولو كان بيدنا كثير من شعره ، لحكمنا جزماً بأنه نسيج وحده في أسلوبه ، على ما ظهر لنـا مما بيدنا من شعره ، وأن نَفَسَه مشرقيّ وليس بأندلسيّ .

والغالب على شعره فَنّا المدحِ والحكمةِ ، على الأقل ، فيما اطّلعْنا عليه منه ، والحكمة تنشأ عن التفكير الطويل والثقافة الواسعة ، والذلك فاننا حين نجده يخلل بها أشعاره ، حتى الامداح منها ، نعرف أن تجربته الشعرية كانت تقتضي منه معاناةً وعمليةَ خَلْقٍ فَنّي كما هو الحال عند كل الفنانين والأدباء الكبار .

وهذه نماذج من شعره نحن مدينون بها لكتاب « زاد المسافر » وكتاب « الذيل والتكملة » ، الا أن ما نُقِل عن الذيل وقع في بعض أبياته محو ،

فاضطررنا الى الانتقاء منه ، فمن قوله في مدح عبد المومن ، وهو من القصيدة التي أنشدها إياه في جبل الفتح وأورد في المعجب منها البيتين السابقين :

فَلأنتمُ الحقّ الذي لا يُمترَى ... فيه وليس بجائزٍ أن يُجهَلا
ولأنتمُ سرُ الإلـه وأمرُكمْ ... ملأ العوالِمَ مُجملاً ومُفصّلا
عزُلتْ ولاةُ الحسْن عن إدراكه ... فهْو المنَزّهُ حسنُه أن يُعقَلا
كاثرتُمُ زُهْرَ النجومِ أسنّةً ... وأدَرْتُمُ فلَكاً عليها القَسْطلا
ومنعتُم الريحَ الهبوبَ لأنكم ... أرسيتُم الحَلَق المضاعَفَ أجْبُلا
صدّتْ تَمشّى القهقرى ولو أنها ... خاضَت رِماحَكُم لعادات مُنخُلا

ولـه منها في صفة الرياض :

إن رنّتِ الريحُ الخفوقُ إزاءَها ... ترك القَضيبُ قَوامه وتَميّلا
شرب النشاط سلافةً حتّى انتشَى ... ولو أنها حُرمت عليه تأوّلا

ولـه في عبد المومن ، وقد حل بالرباط من قصيدة ، ويلاحظ ما يدل عليه قوله في الموازنة بين الممدوح والبحر من سعة الثقافة الجغرافية بالخصوص :

ألا أيّها ذا البحرُ جاورَك البحرُ ... وخيّمَ في أرجائك النفعُ والضرّ
وجاشَ على أمْواهِك العقلُ والحِجا ... وفاضَ على أعطافك النهيُ والأمر
وسال عليك البَرّ خيلاً كماتها ... اذا حاولت غزْواً فقد وجَبَ النصرُ
لعلك يُطغيك اشتراكٌ سمعتَهُ ... فذلك بحر لا يشاكِلُه بحر

فأنتَ خديمُ الشمس والبدرِ عنوةً ... وتخدمه في أمره الشمس والبدر
ويحويك شطرُ الأرض تعمُر بعضَه ... وفي صدره الأفلاكُ والبحر والبرّ
وقد وسِعَ الأيامَ جوداً ونجْدةً ... وليس لما تأتي به عنده قَدْرُ
ومالك من معنى تشارِكهُ بـه ... سوى خُدَعٍ في النطق زخرفها الشعر
ومالك من شيء يُشير الى الـتي ... تَفُوهُ بها الا السّلاطة والهَذْرُ
وليس اشتراك اللفظ يوجِبُ مِدْحةً ... ولكنه إن وافقَ الخَبرَ الخُبْرُ

ومنها في ذكر مدينة الرباط :

بنَـى فوقـه أمّ البلاد فكلها ... يسحّ عليه من مَراضِعها دَرّ
تَكنّفها المِلآن من كـل جانب ... نقيضان ذا حلوُ المَذاق وذا مُرُّ
فهذا عليه المَدّ والجزْر دائبـاً ... وذلك لا مدّ عليه ولا جَـزْرُ
غدت نُقطة في ضِمْن دائرة الدّنَى ... فلا أفُقٌ ينأى عليها ولا قُطـرُ
فمن حيث ما رُمتَ الجوانب نِلْتَها ... بِيُسرٍ ، ولا كَدّ عليك ولا عسْرُ

وله فيه من قصيدة لما فتح مدينة بجاية سنة ٥٤٦ وكان ابن حبوس معه :

مَنِ القومُ بالغَرْب تُصغِي الى ... حديثِهـمُ أذُنُ المَشْرِقَ
جرَوْا والمنايـا إلى غايـةٍ ... فلـم يسبقُوها ولم تَسْبِـق
بِأيديهـمُ النـارُ مَشْبوبـةً ... فمَهْما تُصِبْ باطـلا تُحرِق
يقودُهـم مَلِـكٌ أروعٌ ... تفـرّدَ بالسؤددِ المطلَـق

تَخيَّره الله من آدم فما زال مُنحدِراً يرتقي
الى الناصِريّة (١) سِرْنا معاً ولمّا تفُتْنا ولم تُلحَق
الى بَرزَةٍ في ذرا أرْعَنٍ تَجِلّ عن السّور والخَنْدَق
يعوذُون منا بمولاهُمُ ومَوْلاهم عاذَ بالزّوْرق
وأكسبَهُ خوفُه رِقّةً فلو خاضَ في البحر لم يَغْرَق

ويروي ابن القِفْطي بعض أبيات هذه القصيدة ويعلّق عليها ، وذلك بعد ذكره أنه وقف على ديوانه وتملّكه ثم أعارَه لابن عساكر ولم يعِدْه اليه فيقول : ولم يَعلَقْ بخاطري من شعره ، الا ما قاله ارتجالا بين يدي عبد المومن عند فتحه بِجَاية ، وهرُوب صاحبها في زورق أعدّه لنفسه بعدما انهزم الى قَصره وغلّق أبوابه من جهة المدينة وفتح بابه من جهة البحر ، ولاذَ أهلُ المدينة بالقصر ينادونه : يا مولانا اخرج الينا لنقاتل بين يديك ، وكان عبد المومن ينظر إلى الأمير الهارب في البحر ، فنزل ابنُ حبُوس عن دابته وأنشده هذه القصيدة ، لكن القفطي لم يروِ منها الا قوله : فلاذوا بقصر لمولاهم البيت .

وبيتاً آخر بعده لم يروه ابن صفوان ؛ وهو :

وفارقه أحمراً أبيضاً ولجّجِ في أخضرٍ أزرق

ثم أتى بعده بالبيت الأخير وهو باختلاف بعض ألفاظه :

(١) هي بجاية تنسب الى الناصر الحمادي لتجديده لها بعد خرابها .

وأورثَــهُ خــوفُــه رقّــةً فلو خاض في اللّجّ لم يغرَق

وقال بعد ذلك ، ومنها في مدح عبد المومن :

تخيره الله من آدم البيت ، وعلق عليه بقوله :

أراد منحدراً في الأصلاب ، مرتقياً الى المعالي ، وهذا في غاية الجودة والرشاقة والصنعة في المطابقة .

وله من قصيدة أخرى ولعلها فيه أيضاً :

أميرَ المؤمنين لقــد أضاءَ الــ زمــانُ بِنُور هدْيِكَ واستنارا
لكمْ شرْقُ البلادِ ومَغرِباها وأمرُكم مــع الفَلَك استــدارا
يسير اليكم مــن نــاء عنكــم يدور إليكم مــن حيث دارا
فمن قد فــرّ عنكم من عــدو فنَحْوَكُــمُ اذاً يبغــي الفِرارا
ولــو خوّفتُمُ أعــلامَ رَضْوَى لما سكنتْ ولا وجَدتْ قَــرارا

وهذه القطعة كالتي قبلها من أبلغ الشعر وأمدَحِهِ ، فانها تبين عن نَفْس عبد المومن القوية وشخصيته الكبيرة ، ولذا رجحنا أنها فيه :

وله من قصيدة لعلها في فتح عبد المومن للمهدية بيتان أحدهما في ذكر اختطاط المهدية من طرف عبيد الله المهدي بطالع الأسد ، وهو :

بطالــع الأسَد اختُطّ البــنــاءُ لها لكنك الأسدُ الدامــي الأظافير

والآخر في ذكر بابها الحديدي الشهير وهو :

بــاب حديــد وأبــراج ثمانيــة تسخّــر العقل فيها أي تسخير

أنشدهما ابن حماد في كتاب أخبار بني عُبيد، وقد تصحف اسم ابن حبُوس فيه الى ابن حيّوس .

وله أيضاً هذان البيتان أنشدهما في زاد المسافر ولم يذكر من قيلا فيه :

عصفتْ بدعوتك الريـاح الهوجُ وسطـا بأمرك ذابِلٌ ووَشِيجُ
وتقدّمتـك الى العـدو مهابـة يشقى بها فـي سدّه يأجُـوج

وأولهما يشبه أن يكون ذماً في حين أن الثاني مدح بليغ .

وفي كتاب « المن بالامامة » ما يفيد أن هذه القصيدة قيلت في فتح عبد المومن للمهدية ، وقد أنشد البيت الأول منها فقط ، وبصورة مغايرة .

ولابن حَبُوس من قصيدة في مدح الوزير أبي جعفر بن عطية :

ألا زارَ مِن أم الخُشَيْف خيَالُها ومن دونها البيداء يخفق آلُهـا
لقد أوقدت في القلب مِنيَ جمرةٌ بدا في سواد العارضَيْن اشتعالُها
ثكلتُ الليالي عند غيريَ سِلْمُها ورَوقَةُ دنياها وعندي قِتالُها
أتحسدُني في أن أعيش كأنما اذا فسدت حالي ستَصلُح حالُها
أمَا تتّقي أن يشرَئبّ انُصرتي قَويّ إذا رام السماء ينالُهـا
وماذا الـذي ينأى عليه وإنـه الذو قَدَمٍ أمّ النجوم نِعالُهـا
وزيرَ العلا عندي من القول فَضْلَةٌ رو ينها في مدحكم وارتِجالُها
وما كنتُ أخشى مدة الدهر أن أرَى تميدُ بِيَ الدنيا وأنتم جِبالُهـا

وله من أخرى يذمه لما نُكِب ، وما أقبح هذا التقلب من الانسان عندما يغدر بأخيه الزمان :

أندلسيّ ليس من بَرْبـرِ يختلس الملكَ من البَرْبر
لا تُسْلِمُ البربرُ ما شيّدَتْ بالمَلِك القَيْسيّ من مَفْخَر

ومرادُه بالملك القَيسيّ هنا عبد المومن بن علي ، لأنه فيما يذكر له من نسب عربي ينتهي الى قيس عيلان .

ونسجل هنا كيف أنه جعل جريمة الوزير أبي جعفر محاولتَه اختلاس الملك لنفسه ، وذلك ما يكون عبد المومن قد روّجه بين الناس لتبرير قتله ، فشاعر رسمي مثل ابن حبوس لا يعدل عن هذه التهمة ، كما لا يمكن أن يعدل عن هجائه اليومَ ممدوحَهُ أمس ، فان عبد المومن كان يمتحن الشعراء بهجو وزيره كما ذكِر ذلك في ترجمته .

ولا نمرّ على هذين البيتين حتى نصحح ما فيهما من غلط نسبة أبي جعفر الى الأندلس ، فقد عرف أنه مغربي مراكشي ، وان كان أصله الأصيل من الأندلس (١) ، فهذا الذم على حد ما يقال عندنا في بعض الطبقات : هذا من البلد ، وهذا طارىء ، وإن كان وُلِد ونَشَأ بين أظهرنا .

ولابن حبُوس يذكر احتفال عبد المومن بالمصحف العثماني عند نقله من قرطبة الى مراكش ، والصنيع العظيم الذي فعل بتزيينه وتحليته وصيانته :

---

(١) انظر الحلقة (٥) من « مشاهير رجال المغرب » الخاصة بترجمة الوزير ابن عطية .

سيشكرُ المصحفُ إكبابَكم | عليه إذ أوْجَدَه الفقْدُ
أذكرتُمُ الأيامَ ما أغفلت | من برّه إذ قَدُم العهْدُ
مُصحف ذي النورين عثمانَ ما | كان لكم عن صونه بُدّ
أوسعتمُ الدنيا اطّراحاً وما | كان لكم الا به وَجْد
يحنو عليه العطف منكم ولا | يُغبّه الإشفاقُ والودّ
صَبابةٌ منكم به لم تكن | تُثيرها جُمْلٌ ولا دَعْدُ
أحببتُمُ المولى فأحببتُم | ما خطّهُ من وَحْيِه العبْدُ
ألبستُموه حِلْيَةً لم يكن | يسمحُ للكفّ بها الزّنْدُ
لم تُدركِ الأعرابُ ما كُنهُها | ولا ادّعت إدراكَها السّغْدُ(١)
لأسفَرت سَفْرتُكم هذه | عن واضحاتٍ نُجْحها نَقْد
تكفّل السعدُ بمقصودكم | وبانتِ الوجْهةُ والقَصدُ
عنايةُ الله بكم جمّةٌ | لكم عليها الشكرُ والحمد

وله قصيدة أخرى في الموضوع ، قال ابن عبد الملك : وهي عندي من غُرَر القصائد :

فِعلُ امرىء دل على عقله | والفَرْعُ منسوب إلى أصلِه
إن الذي يَكرُم في جنسه | هو الذي يَكرُم في فصْلِه

---

(١) ناحية نزيهة بين بخارى وسمرقند ، والمراد أهلها مقابلة لهم بالعرب .

والمــرء لا يُشكَرُ عـــن نفسه ... وإنما يشكَرُ عـــن فَضْلِــه
والخــيرُ والشرّ لهـــذا وذا ... أهــلٌ ، فَرَجّ الخيرَ مـــن أهلِه
لا يــترُك الــلازمُ ملــزومَه ... والشخصُ لا ينفكّ عن ظِلِــه
وكــلّ مفطــورٍ عـــلى شيمةٍ ... لا بد أن تظهــرَ في فعلِــه
لا يدرك الطّرفُ على شَدّه ... مــا يُدرك الطّرْفُ عــلى رِسْلــه
والنــاس أشتاتٌ وفي الطبــع ما ... قد يعطِفُ الشكلَ الى شَكلــه

الى أن قال :

هــذا كتــابُ الله جــلّ اسمه ... بخط عثمان وفي دخلــه
أنيسُه فــي وحشة الــدار إذ ... تواطــأ القتــل الى قتلــه
رمــى به الخابطُ فــي غيّــه ... وضمه الحــاطبُ فــي حبْلــه
وصار من أوكــد شغل امرىء ... في تركــه الاعراضُ عن شغلــه
صيانــةُ الشيخ لــه أوجبــت ... لحاجــة الباغــين فــي بَذْلــه
حتى أتــى الأمةَ مـــن نبهــت ... شهادةُ الرّسْل عــلى عدْلــه
فأيقظ الأجفــان مـــن نومــة ... صَحا بهــا المخبولُ من خبْلِــه
عرّفَ ما يُجهل مـــن حقّــه ... وضمّ مـــا فُرّق مـــن شَمْلِــه
ومــال فــي تَعْظيمه ميْلــةً ... أعـــادت الفرعَ الى أصلِــه
ألبسَه مـــن رائق الحلْي مــا ... يَعجزُ جيدُ الدهــر عن حَمْله
وزاد مـــا أبطَن مـــن بِــرّه ... على الـــذي أظهرَ من حفْلِــه

نشزٌ يضيء النجمُ في عُلْوه ونَيّرات الشهْب في سُفْلِه
فمِن حَصَى الياقوت حَصباؤه وتِبْرُه يغنيه عن رَمْلِه
كأنما الأصباغُ فيه وقد تألف الشكل الى شكلِه
زَخارفُ النّوّار في روضة هرّاق فيها الليلُ من طَلّه
ويشير الى إشراف عبد المومن بنفسه على هذا العمل وإرشاده الصناع عند الحيرة ، على ما ثبت في رسالة ابن طُفَيْل التي تصف هذا الصنيع :
ذلك من فضل إمام الهُدى وكلّنا نُعزَى إلى فضلِه
كأنما العُمّال آلاتُه تفعل ما يَصدُر عن فعله
جهابذُ الآفاق قد بَلّدوا في فصْل ما يفصل أو وَصْلِه
وكلهم برّزَ في سبْقِه وأحرَز الخصل على مَهْلِه
ثم يستأنف نظم جواهره الحِكْمية الفريدة :
ما خَطْوُ من يعدُو به سابح كَخَطْو من يعدُو على رجلِه
وليس من يَغْرفُ من نهره مثل الذي يغرفُ من سَجْلِه
ولا الذي يمْرَحُ مرخىً له مثل الذي يمرح في شُكْله
ولا حسامٌ نال منه الصّدا مثل الذي بُولِغ في صَقْلِه
التمرُ مَعْزُوٌّ الى نَخْلِه والشّهْد منسوب الى نَحْلِه
والقدس محفوظ على أهله وأنتمُ والله من أهلِه
عجائب العالم مختَصة بأولياء الله أو رُسْلِه

وهذا كلام ظاهِرُه الحكمة وباطِنه مدحُ عبد المومن ، وتلك براعة نادرة يتوفر عليها هذا الشاعر ، وتكاد تكون نوعاً من الرمزية غَنَيِيَ بها ابن حَبوس عن أن يُعدّد صفات الممدوح كما درَج عليه الشعراء ، فأفرغها في هذا القالب الحِكْمي البليغ . وبقَطْع النظر عن هذه الاشارة ، فان ابن عبد الملك لم يملك بعد إيرادها إلا أن يُكرّر إعجابَه بها مرة ثانية وحق له ذلك .

ومن شعر ابن حبوس هذه القصيدة يمدح الشريعة ويذم الفلسفة ، وقد طغت الفلسفة في عصره ، وكان من أعلامها ابن طُفَيْل وابن رُشْد ، وقبلهما ابن بَاجَة ، وغيرُهم ، وبمزيد الأسف فان المحو قد أتى على كلمات من أبيات فيها بأصل العلاّمة ابن ابراهيم صاحب الاعلام الذي ننقل عنه ، فاضطررنا الى تخطيها :

(لذ) (١) بالنبوة واقتبس من نورها	واسلك على نهج الهداية تَهْتَدِ
واذا رأيتَ الصادرين عشيّةً	عن مَنْهَل الدين الحنيف فأوْردِ
الدينُ دينُ الله لم يعبأ بمبْتَدعٍ	ولم يحفِل بِضلّة مُلْحِد
قالوا : بنور العقل يدرَك ما ورا	ءَ الغيب قلت قَدِي من الدعوى قَدِ
مَن لم يحِطْ علماً بغاية نفسه	وهي القريبةُ ، مَن له بالأبْعَد ؟
ولقد نرى الفَلَك المحيط وعِلْمَ ما	في ضِمْنِه أعيَى على المترصّد
سَعْدُ المجرّة بالكواكب دائم	في زعمهم وقَسيمُها لم يَسْعَد

(١) ما بين القوسين زيادة من عندنا لامحائه في الأصل .

مَن خصَّ بالسّفْليّ جِرْمَ البدر أم مَن خص بالعلْويّ جِرْمَ الفَرقد؟
ما شاهِقُ الطوْد المنيف وإن علا إلا بمنزلة الحَضيض الأوْهَد
وجوازُ عكس الأمر في ذا واضح للعقل فازْدَدْ من يقينك تَرشُدِ
ذاك اختصاصٌ ليس يعلم كُنْهَه مَن ليس يوصَف بالبقَاء السَرْمَدِ
خفّضْ عليك (أبا فلانٍ) إنها نوَب تُطالعُنا تَروح وتغتَدي
سالَتْ علينا للشكوك جَداوِلٌ بعد اليقين بها ولمّا تَنفَدِ
وتبعّقَتْ (١) بالكفر فينا ألسُنٌ لا تَفقِد التضليل ما لم تُفقَدِ
أعداؤنا في ربنا أحبابنا جرَحوا القلوب وأقبلوا في العُوّد
كُشِفَ القِناعُ فلا هوادَةَ بيننا حتى نُغادِرَهم وراء المسنِدِ
ستَنالُهم منا الغداةَ قوارعٌ ان لم تَغلْهم غولها فكأنْ قَدِ
وتصوبُ فيهم سُحْبنا بصواعقٍ تلك التي جَلَبتْ مَنيّةَ أرْبَد
ولَعَمْرُ غيْرهم ، وتلك أليّةٌ إن الحِمَام لِجَمْعهم بالمَرْصَد
أسفي ولَوْ أني نُصِرتُ عليهمُ للتَمت في المُهَجات كل مُهنّد
قالوا الفلاسِفُ ، قلت : تلك عصابة جاءت من الدّعْوَى بكل مُفنّد
خَدعتْ بألفاظٍ تروق لطافَةً فاذا طلبتَ حقيقةً لم تُوجَد
يُلغَى كتاب الله بين ظهورهم وجميع مَسنون النبي محمد

---

(١) تبعق في الكلام : انبسط .

يا قاتَل الله الجهالـــةَ إنهـــا ورقٌ لأغصان الشباب الأمْلَـــد

إن هذا الحِجاج القوي الذي يدل على رسوخ صاحبنا في المعرفة ، هو مما يدخل ، ولا شك ، في الحملات التي شنت على الفلسفة ومنتَحِليها ، فهيأت الجو لنكبْة ابن رشد في عهد المنصور الموحدي ، ولو أن ابنَ حَبُوس لم يدرك هذا العهد ، وبه نعلم أن الدولة لم يكن لها في ذلك يد ، لأن ابن حَبُوس يقول هذا وهو يعيش عصرَ يوسفَ بن عبد المومن نصير الفلسفة ومستوزر أصحابها ... ونكبةُ ابن رشد على كل حال كان الباعثُ عليها سياسياً أكثر منه فِكرياً . وليراجَع كتاب « النبوغ المغربي » في هذا الصدد.

وله في الوصايا والأمثال وذم الزمان :

رِدِ الطَّرْقَ (١) حتى تُوافي النَّميرا فَرُبَّ عسيرٍ أتــاحَ اليَسيــرا
وأرسِلْ قَلُوصَكَ طــوراً شَمالا وطوراً جَنوبــاً وطوراً دَبورا
وشُنَّ عــلى غازيات البلاد من النَّقْع والرمل جيشاً مُغيرا
وفِرْ مــاءَ وجهك حتى تجمَّ وأطف السَّمومَ بــه والهَجيرا
وطِرْ حيث أنت قويّ الجنَــا ح لا عُذْرَ عندك أن لا تطيرا
ولا تَقْعَنَّ وأنــت السليـــ ـــم حيث تضاهي المَهيضَ الكسيرا
فــأمّ الترحّل تُدعَــى وَلُوداً وأمّ الإقامــة تُدعَى نَزُورا
وذو العجز يرضَع ثديــاً حَدُورا وذو العــزم يرضع ثدياً دَرورا

(١) الطرق : الماء الكدر .

يَعِزّ على النبل أنّي غدوتُ أكنى أديباً وأُسْمَى فقيرا
وأنيَ ثبْتٌ لكفّ الزمان يُعرّقُ عَظْمِيَ عَرْقاً مُبيرا
وما ذاك أنّيَ هيّابةٌ أخافُ الرحيل وأشْنا المسيرا
ولكِنْ بِحُكْم زمانٍ غدا يحطّ الجياد ويسْمِي الحَمِيرا

وله في الاعتبار بدخول الحمام :

(للمَرْء في) (١) حمّامه عِبْرة وإنما يعتبر العاقل
يُذَكِّرُ بالكونَيْن من جنة ومن جَحِيمٍ ذكرُها هائل
وإنما يعرِض أنْمُوذجاً مِن ذا وذا لَوْ نُبِّه الغافل
نعيمُه فيه الشقاءُ الذي يُشْفِق منه العالم العامل
تكادُ نفسُ المرء من حرّه تزول لولا أنه زائل
يا صاحبي ، والجِدّ لي شيمَةٌ وليس من أصحابيَ الهازِل
نحن طلبان فبادر بنا مِن قبل أن يَقْنصنا الحابِل
بحرٌ سلِمْنا منه في ساحِلٍ فما ترى إن غمر الساحل
في حيث لا تُنجِي الفتى حيلةٌ سواءٌ الفارِسُ والراجِل

وله من قصيدة يذم الشعر :

يا غرابَ الشعر لا طِرْ تَ ومُلّيتَ الوقوعا

---

(١) زيادة من عندنا في مكان المحو .

وإذا استيقظ شهمٌ قرمٌ زدتَ هجوعا
هبكَ لا تقتنص عزاً لم تقتنصت الخضوعا ؟
رُمتَ أن ترقى سريعاً فترديتَ صريعا
ربما اصطاد بغاثٌ شبعاً واصطدت جوعا
ولقد غال (حبيباً) منك ما غال (صريعا)

وله في معاملة الناس ، وأغرب غاية الاغراب ، ولعل ذلك كان منه أيام تشرده :

أعِدَّ لنا بحيك عصا وأقضِم ماضغيكَ حصى
وشعشع للورى شرقاً مع الساعات أو غصصا
وكن ورداً خبعثنةً(١) يراوغ منهمُ قنصا
وعامل بالخديعة من لقيتَ ، وبادرِ الفرصا
وغمّض عينك النجلاءَ حتى تنعتَ الحوصا
وهزّ لمعشرٍ سيفاً وهزّ لآخرين عصا
وكاشر من يَدِبّ لك الـ ـضرا واحرِص كما حرصا
ولا تعتب عليه فلو ظفرت به لما خلصا
وسؤ ظناً بكل أخٍ يقاسمك الثنا حِصصا
ولا تحفل بإمّعةٍ يخال الشحمةَ البرصا

---

(١) الورد : الأسد ، والخبعثنة : الشديد الضخم .

ولا تَحرِص فَرُبَّ فتىً مُضاعٍ عندما حَرَصا
وحِرصُ الطائر الواقع صَيَّر جَوَّه قَفَصا
لقد رَخُصَ الغلاءُ وأهوَنُ الأعلافِ ما رَخصا
وقد ذهب الوفاءُ فلا يقول مغالطٌ نقَصا
فلا تلزم مكان الظل إنْ وافيتَه قَلَصا
وغَنِّ لذا الزمان إذا انتشى وازْمُرْ إذا رَقَصا
ومَن شَهِد الخطوب وعاش مِثْلي يشرَح القِصَصا

والبيت الأخير يشهد أن شعره هذا كان نتيجة تجربة قاسية ، فمن المحتمل جداً أن يكون مِن مَقوله أيام فِراره . ولله في خلقه شؤون !.

وبين حَرَصا في البيت السابع وحَرَصا في البيت الحادي عشر إيطاء ، وهو من عيوب القافية (ويزكو عيبه كلما دنا) والغالب أنه متباعد في الأصل وانما قرّب ما بينه الاختيار من أبيات القصيدة عند صفوان بن ادريس في زاد المسافر رحم الله الجميع ، ويحسن أن نختم هذه الترجمة بلطيفة ذكرها القِفطي ، تتعلق بابن حَبُّوس وحسَدِ الشعراء له ، وخصوصاً الأندلسيين ، جريّاً مع طبعهم في الازراء على أهل المغرب وعدم التسليم لهم . قال القفطي : وأخبرني القرموني أبو عبد الله قال : سُرِقَ لابن حَبّوس في سفَرِه خُرْجٌ فيه ثيابه وقصائد له ونفقة ، وكان الشعراء يحسدونه ، فعملوا في ذلك زَجَلا ألفاظه عامية على عادتهم في الازجال ، مطلعه :

لقـــد جرَتْ رزِيـّـــا   عـــل ولْـــد حبُّوس
سرِق لُـــو مـــا سرَق   هـــو من شِعْرِ الأندلوس
سَـــارِق سرَق لِسَـــارق   يعـــد فـــي ذا عجَـــب
سرق لو كل مـــا اقتنى   وكـــل مـــا اكتسـَـب
ثـــيابـــو والقصائـــد   والسلـــخ بـــالـــذهـــب
وكـــل مـــا ذكـــرنـــا   يسوى ثـــلاث فلـــوس

طبع على مطابع
دار الكتاب اللبناني

ذكريات

مشاهير رجال المغرب

بقلم

عبد الله كنون

مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني
للطباعة والنشر
بيروت

دار الكتاب اللبناني
برقيا: كتالبان - بيروت
ص.ب: ٣١٧٦
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى ١٩٧٤

40

إِبْنُ زِنْبَاعِ الطَّنْجِي

تحية من تونس

أهدى المؤلف بعض الحلقات من هذه السلسلة في طبعتها الأولى الى صديقه الأستاذ محمد الشاذلي خزندار أمير شعراء تونس رحمه الله فكتب اليه عنها في احدى مراسلاته هذه التحية الكريمة :

حمداً وصلاة

١٥ رمضان المعظم سنة ١٣٧٢

ورد عليّ كتابكم الكريم رداً على رسالتي اليكم فأحللته المحل اللائق به حفاوة وتكريماً ، وتلوته تلاوة المعجب بناسج برْده ذاكرا صاحبنا البغدادي(١) واسطةالتعارف بيننا بما يقابل جميله من ثناء وشكران . ولقد نقلت لِحَسَنِنا هذه الفقرة التي تخص نجله (العزيز) الواردة في جوابكم — وشكرت له حسْنَ أياديكم معنا بما تتحفوننا به من مؤلفات ونَشْريات هي خير ما نجمل به خزائننا المضمخ باطنها بعبيركم الفواح .

---

(١) يعني الأستاذ حسن البغدادي التلمساني .

سيدي الأستاذ : كم أنا متشوف لاحرازي على صورة منكم تكون عندي نعمت الذكرى ، ولربما ساعفني الحظ فكانت من محتويات ديواني الذي لن أزال أترقب الفرصة السانحة لاستخراجه من مسوداته وابرازه لعالم المطبوعات ، إذ طال العهد عن ظهور الجزأين السابقين من شعري . والأمل وطيد في استجابة رغيبتي ، ولا إخالك الا مرتاحاً لهذا الالتماس ، ومثلك لا يجحف ، ولا أنا ممن يلحف ؛

هذا ولي الشرف بانهاء تحيتي على طريقكم لمن هم حولكم من السراة النبلاء ، ذوي الأيادي البيضاء ، في نهضتنا الاجتماعية ، باسطاً أكفي للنفحات القدسية لتأييدنا واستطالة حياتنا حتى نشاهد بأعيننا ونلمس بأيدينا استعادة عزتنا واسترجاع ما حققناه من نخوة وسلطان وما ذلك على الله بعزيز . وفي الختام تقبلوا عباهر العواطف ونفائس الأحاسيس من ودودكم المخلص .

محمد الشاذلي خزندار

ثم أتبع الرسالة بهذه الأبيات :

لابن بطوطة ذكر في ابن خلدون ... أحيته أسفار عبد الله كنون

فيها الأحاديث عن أبطال مغربنا ... بين الأشاوس منا والأساطين

كم في الأفارقة الأولى أوائلنا ... من أهل معرفة أو من سلاطين

سادوا وشادوا وذادوا عن حظائرهم ... من مثل طارق أو مثل ابن طواون

وفي الخوالد من آثار نهضتهم ... ما ليس مثله في هند ولا صين

وفي الرواسخ علماً من أساتذة — كابْن زياد ومنظورٍ وسَحْنون
مالي وتَعْداد من بادوا فهل وُجِدت — في النسل أمثالُ موسى أو بلكّين(١)
ماذا أقول ونفسي اليوم منشدة — عند ادكاري لهم : (إني لتعروني)(٢)
اللهَ في خلقٍ ، اللهَ في لغةٍ — اللهَ في مِلة ، اللهَ في الدين
اني لأفتح عيني في حَوالِكها — من حيث لَعْلَعَة التمدين تعشيني(٣)
وألتقِي بأناس قيل همْ رَحمِي — لكنما ما عنَاهم ليس يعْنيني
سبْحانَ من غير الأوضاعَ فانقلبت — حالاتها فأرى ما ليْس يرْضيني
لَوْلا بَريق من الإيمان في فِئةٍ — ما اسطاعَ غيرك في البَلْوى يسليني
هي السياسة من جرائها انسلَخوا — عن الهدَى فالْتَوواْ ليّ الشعابين

---

(١) علق الشاعر على هذا البيت بأنه يريد موسى بن نصير وبلكين بن زيري الصنهاجي أمير أفريقية والمغرب ومؤسس مدينة الجزائر .

(٢) يشير الى قول الشاعر :

وإني لتعروني لذكراك هــزة — كما انتفض العصفور بلله القطر

(٣) وعلق على هذا البيت بقوله : لي في مثل هذا المعنى من شعري المطبوع ضمن قصيدة ما يلي :

اذا كان يعشي العين نور تمدن — تخفشت حتى لا تريني شعاعــه

ابن زنباع الطنجي

مغربيته ، نسبه ، علمه وأدبه ، عصره
ترجمة الفتح بن خاقان له ، شعره ، نبذة منه ،
تعقيب لغــوي

هو القاضي الأديب أبو الحسن بن زنْباع[1] الصنهاجي من أهل طنجة ، نسبه اليها القلقشندي في صبح الأعشى وقال : « ترجم له في قلائد العِقْيان وأثنى عليه وأنشد له أبياتا منها :

وقد تحمي الدروع من العوالي ... ولا تحمي من الحَدَق الدروعُ

على انه اقتصر على كنيته ونسبه ولم يقل فيه ابن زنباع كما أن الفتح انما قال فيه أبو الحسن بن زنباع ولم ينسبه ولو الى قبيلته فأحْرَى بلده ، واولا هذا النص الذي ظفِرْنا به في صبْح الأعشى لمَا علمنا أن هذا الشخص مغربي أصلا إذ لم يذكر الفتح في ترجمته ولا كلمةً تشعر بذلك .

---

(١) زنباع كقنطار والنون زائدة قاله في القاموس وروح بن زنباع الجذامي له صحبة .

وقد بحثنا جهدنا علنا نعثر على ترجمته في كتاب أو خبر عنه في ديوان فلم نفلح وألقَيْنا سؤالا على أدباء المغرب ومؤرخيه في الصحافة المغربية أواخرَ الثلاثينيات من التاريخ الميلادي ، طالبين ممن عنده علم بحاله أو وَقَفَ على شيء من أخباره أن يتفضل بالافادة عنه فلم نظفر بجواب ؟

وها نحن الآن نضطر الى اثبات ترجمته في الذكريات ولا نجد ما نشفي به غليلا منها حتّى اسمه لا نقدر أن نقول على الجزم إنه (علي) وان كانت كنيته أبا الحسن ، لأنه ربما لا يكون كذلك ، نعَمْ نَسبه الى صَنْهيت — كما يقول نسبه القلقشندي — صحيح بشهادته هو واقراره على نفسه في هذا البيت من شعره :

وتَلافَنِي قبل التّلافِ فانني ... من حِمْيَرٍ وسيأخذونك في دمي

وحمْير هي أهلُ منهاجة عندهم كما قال الشاعر أبو محمد بن حامد في دولة المرابطين :

قوم لهم شرَف العلا من حِمْيَرٍ ... واذا انْتَمَوْا صَنهاجة فهُمُ همو

وقال الراجز عبد العزيز المَلْزوزي :

وإن صَنْهاجَ سَلِيل حِمْيَر ... وهْوَ ابنه لِصلْبه لا العنْصر

ثم وقفنا بعد ذلك على نسخة مخطوطة مِنَ القلائد في المكتبة العامة بتطْوان فوجدنا اسمه فيها : (ابن بَيّاع) لا ابن زنْباع وهو كذلك وارد في طراز

المجالس للشهاب الخَفاجي الذي أنشد لـه بيتين مختلفين من قصيدتين منسوبتين لـه في القلائد ، مقتصراً على قوله في تسميته : (ابن بَيّاع) من قصيدة :

وقَفَتْ عليها السحْب وقفةَ راحِمٍ فبكتْ لها بعيونها وقلوبِها

ومن أخرى :

أبِيت أُداري الشوقَ والشوق مقبِل عليّ وأدعو الصبرَ والصبر مُعرِض

ولعل هذا ما حَمَل المستشرق الفرنسي (هـ. بيريس) على القول في كتابه الشعر الأندلسي في القرن الحادي عشر : انه يدعَى بكِلا الاسمين ، وكلما ذكره سواء في صلْب الكتاب أو في الفِهرْس يقول فيه : ابن زنباع أو ابن بياع .

على أن هناك شاعراً آخر يعرف بابن بَياع ، ولكنه سَبْتي ، كما نسبه ابن بَسام في الذخيرة فقال : وأنشدت لابن بياع السبتي :

ورَدتُ بها التنوفَةَ وهْي بَدْر فلم أصْدر بها الا هِلالا

وهذا البيت لا يوجد في الشعر الذي أورده صاحب القلائد لمترجَمِنا ، وان كان يشبِه نَفَسَه ، فهل هي أسرة تعرف بهذا الاسم كانت موزعة بين طنجة وسَبْتة ، ولذلك اضطر ابن بسام لتمييز هذا الفرد الثاني منها بالسبتي : ؟

كما وجدنا اسم بني زنْباع يطلق على أسرة من سكان إشْبِيلية حسبما في الذيل والتكْمِلة لابن عبد الملك المراكشي ، فهي على ما يظهر أسرة كانت

متواجدة بالمغرب والأندلس . ولكن هل الأندلسية أيضاً كانت تعرف ببني بَياع كالمغربية ؟

هذان سؤالان ليس عندنا ما نعتمده في الجواب عنهما على سبيل القطع .

واذا كنا في بعض هذه التراجم نتساءل عن تاريخ ولادة المترجَم وعن نشأته ، وأحياناً عن تاريخ وفاته مع شهرته وانتشار ذكره ، فاننا الآن نتساءل عن اسم المترجم وعن كنيته الصحيحة هل هي ابن زنْباع أو ابن بَياع ؟ وان كان لا غرابة في ذلك ، فقد عهدنا أن يطلِق الناس على بعض الأفراد أكثرَ من اسم واحد ويَشْتَهِرَ بذلك ، ونذكر على سبيل المثال اسماً شبيهاً باسم صاحبنا ابن بياع ، وهو الحافظ أبو عبد الله الحاكم النيسابوري الذي كان يعرف (بابن البيّع) كما يعرف بالحاكم ، وغيره كثير .

وعلى كل حال فان هذا رجل كان من صدور الرجال في عصره ، جمَع من صفات الفضل وأدوات الكمال ، ما قلّ أن اجتمع في غيره ، وتولى رفيع المناصب ، وبلَغ أعلى المراتب ، ويكفي أن يكون من رجال القلائد لمعرفة مكانته الأدبية ، ومع ذلك ، يقع الاختلاف في اسمه ولا نعرف من أطوار حياته قليلا ولا كثيرا . ولولا عمل ما يشْبِه المعادلات الرياضية لمـّا اهتدينا الى اثبات مغربيته ، ولما ظن أحد أنه من أبناء هذا المغرب الذي يقال فيه بحق انه بلاد الغرائب .

لذا فنحن لا نستطيع أن نقدم من المعلومات الشخصية عنه شيئاً غيرَ ما نفهم من تَحْلِية الفتْح له بالفقيه القاضي وصفته بالمشاركة في العلوم والآداب والفصاحة والبيان ، والطب أيضاً ، من أنه حقيقةٌ شخصيةٌ فذةٌ قضى

عليها الاهمال ، وكادَ يمحوها النسيان من تاريخ المغرب ، وأن الأدب هو أقل بضاعة كانت تتميز بها هذه الشخصية ، فصار اليوم أكثرَ ما نَذكرها بِه .

وأخيراً نأخذ من ترحّم الفتح عايه أنه كان قد توفي عند تأليف القلائد فهو ممن عاش أواخر القرن الخامس وأوائل السادس ، في العصر المرابِطي .

وهذه ترجمة الفتح له «الفقيه القاضي أبو الحسن بن زنْباع رحمه الله تعالى مليِء حياء ، وقنيِء استْحياء ، طَوْد سكون ووقار ، وروضة نباهة يانعة الأزهار ، وسَمَت صفحاتِ المَهارق غرَرُه ، وانتظمت بِلبّات المغارب والمشارق دررُه ، إن نطق رأيتَ البيان منْسرباً من لِسانه ، والاحسان منتَسِباً لإحْسانه ، حوَى العلومَ وحازَها ، وتحقق حقائق العرب ومَجازَها ، ورَوَى قصائدها وأرْجازَها ، وعَلِم إطالَتها وإيجازها ، وهو في الطب موفق العِلاج ، واضح المنهاج ، وله نظم تنزهَى به نحور الكَعاب ، ويُستَسْهَل الى سماعه سلوكُ الصعاب ، وقد أثبتّ منه ما تجتَليه ، فتَستْحليه ، وتَعْقله فتَنْقله » .

ودلالة هذا الكلام واضحة جداً على الأمور الآتية :

(أولا) — انه كان من مشاهير رجال الفقه والقضاء،ويؤخذ ذلك من ذكر الفتح له في القسم الثالث من كتابه القلائد ، الخاص بأعيان القضاة . والعلماء السّراة ، فهو في هذه الطبقة التي لها الصدارة والتقديم من الفقهاء والقضاة كأبي الوليد الباجي وابن حَمْدين وابن عَطِية والقاضي عياض ، ومن علماء اللغة والأدب كأبي عبَيد البَكْري وابن السّيد البَطَلْيوسي وأمثالهم ،

ولذلك ذكره معهم ، وعلى هذا فان ولايته للقضاء لا بد أن تكون في مدينة من كبْرَيَات المدن ، ولا نستبعد أن تكون في مدينته طنجة ، وحيث إن تاريخها على عَراقتها قد لفه النسيان فكذلك تاريخ صاحبنا وولايته ، وهو من خيرِ من أنجبتْ وأنجبِ من أنْجَلَت .

(ثانيا) ــ أنه كان من ذوي المشاركة في العلوم غير الفقه الذي استحق به ولاية القضاء ، وذلك ما تصرّح به هذه العبارة : « حوَى العلوم وحازَها ، وتحقق حقائق العرب ومَجازَها » فضلا عما قبلها وما بعدها من العبارات التي تشير الى تضلعه في علوم العربية والآداب وضرْبِه بِسهْم مصيب في صناعتَي النظم والنثر ، وانتشار آثاره في ذلك بالمشرق والمغرب .

(ثالثا) ــ أنه كان يتعاطى صناعة الطب وأنه كان فيها موفقاً صاحب طريقة واضحة ، وهي كفاية زائدة على كفاياته المذكورة قبل ، وربما دلت على أن له نظراً في غيرها من العلوم التجريبية التي لا تحصل المهارة في الطب الا بها .
(رابعا) ــ أنه كان ذا أخلاق عالية وصفات كريمة يغلب عليه الحياء وهو يستلزم التواضع والانزواء ولعله بذلك لم يكن يخالط الناس كثيراً فأغفلوا ذكره... وهذا الى سكون ووقار يقتضيهما سَمْتُ العلم وناموس الحكم .

وكل هذه الدلالات مما يرفَع من مقامه ويجعله من الشخصيات البارزة بين أهل عصره وان كنا الآن انما نتلمس ملامح شخصيته تلمساً من وَحْي الفِقَر والأسْجاع التي أفرغ الفتح فيها ترجمته .

هذا ولئن كان ما بقِيَ بيدنا من آثاره ، إنما هو هذه النبذة من أشعاره ، التي نجدها في القلائد ، فانّا نعد ذلك كسباً هامّاً ، لأنه يظهرنا على

ناحية من حياته الفكرية المتعددة الوجوه ، وهي براعته الشعرية التي لا نزاع فيها ، فنحن لو كان لنا أن نتخير من إنتاجه الشعري المتنوع الأغراض ، لما زدْنا على ما تخيره منه أديب الأندلس في عصره ، وضمنَه مَجموعتَه الأولى التي هي قلائد العقيان(١) .

ان هذه الترجمة بالقياس الى مثيلاتها لا تحتَمِل أكثر من النماذج التي عرَضَها علينا الفتح ، والناقد بصير كما يقولون ، فلنا أن نقول مطمئنين الى اختياره ، إن شعر المترجم طبقة عالية في البلاغة والانسجام متين الحَوْك ، رقيق الديباجة ، جميل التصوير ، لطيف التخيل ، يصدر عن ثقافة واسعة ، ونظرة متفتحة على الحياة ، ولو لم يصلنا منه الا هذه القصيدة البائية التي يقولها في وصف الربيع لكانت كافية في التعرف الى إبداعه الشعري ، فان من الشعراء ، من خلَد ذكْره بقصيدة واحدة .

كيف وان لها أخوات شقيقات لا تقل عنها جودةً واحسانا ، فهذه اللامية التي يهنىء فيها بأحد الفتوح ، تشتمل على وصف رائع للمعركة بين المسلمين والروم وهزيمة هؤلاء أشنعَ هزيمة ، برغم ما أعدوه من قوة وعَتاد .

وهذه الميمية التي يخاطب بها الفتح بن خاقان هي من أجود الشعر الإخواني الذي يفيض بأسمى العواطف وأرق المشاعر .

وهذه الضادية التي يعبر فيها عن مَواجِده ويصف الحرب هي كذلك من أروع الشعر الوجداني والوصفي بحيث لم يملك الخفاجي الا أن ينشد أحد

---

(١) للفتح مجموعة ثانية هي مطمح الأنفس كما هو معلوم .

أبياتها استحساناً لـه . ثم عَيْنيته التي ذكره القلقشندي ببيت منها إعجاباً به . فميميته التغزلية التي تشتمل على خطرات فلسفية رائعة ، كل ذلك وغيره من شعره ، في الذّرْوة والسنام من البلاغة والانسجام .

وهاك ربيعيتَه المنوه بها :

أبدتْ لنا الأيام زهرةَ طيبِها ... وتسربلَت بنَضيرها وقَشيبِها
واهْتز عِطْف الأرض بعد خشوعها ... وبَدتْ بها النعماء بعد شحوبِها
وتطلعت في عنْفوان شبابها ... مِن بعدما بلَغَتْ عتيّ مشيبِها
وقَفتْ عليها السحْب وقْفةَ راحِم ... فبكتْ لها بِعيونها وقلوبِها
فعجبت للازهار كيف تضاحكتْ ... بِبكائها وتباشرتْ بِقطوبِها
وتسربلتْ حللاً تَجرّ ذيولَها ... مِن لَدْمِها فيها وشق جيوبِها
فلقد أجادَ المزْن في إنجادها ... وأجادَ حرّ الشمس في ترْبيبِها
ما أنصفَ الخيريّ يمنَع طيبَه ... لِحضورها ويبيحه لِمغيبِها
وهْيَ التي قامتْ عليه بِدفْئِها ... وتعاهدتْه بِدرّها وحليبِها
فكأنه فرْض عليه مُوقّتٌ ... ووجوبه متعلق بِوجوبِها (١)
وعلى سماء الياسَمين كواكب ... أبْدَتْ ذكاء العجزَ عن تغييبها (٢)
زُهْر تُوقّتُ ليلَها ونهارَها ... وتفُوتُ شأوَ خسوفها وغُروبِها

---

(١) من وجبت الشمس : غابت .
(٢) ذكاء علم على الشمس .

فَضِلَتْ على سيْر النجوم بأسرها ... وسُرُوّها في الخِلْفَتين وَطِيبها
فتأرّجتْ أرجاؤها بِهبوبِها ... وتعانقتْ أزهارُها بِنكوبِها (١)
وتَصوبتْ فيها فروع جَداولٍ ... تتصاعَد الأبصار في تَصْويبِها
تطفو وتَرسُب في أصول ثِمارها ... والحُسْنُ بين طفوّها ورسوبِها
فكأنما هـي موجِسَات أساوِدٍ ... تَنْساب من أنْقابِها لِلصوبِها (٢)
فَأدِرْ كؤُوسَ الأنْس في حافَاتِها ... واجْعَلْ سَدِيدَ القول من مشروبها
فَحديث إخوان الصفاء لَذَاذة ... تُجْنَى ويُومَن من جِناية حوبِها
واركضْ الى اللذاتِ في مَيْدانها ... واسْبِق لِسد ثغورها ودروبِها
أعْرَيْتَ خيلَكَ صَيْفَها وخَريفَها ... وشِتاءها هذا أوانُ ركوبِها
أوَ ما تَرى الأزهار ما مِنْ زَهْرةٍ ... إلا وقد رَكِبتْ فَقارَ قَضيبها
والطيرُ قد خفقَتْ على أفْنانِها ... تُلقِي فُنونَ الشدْوِ في أسْلوبِها
تَشْدو وتَهتز الغصون كأنما ... حَركاتُها رقْص على تَطْرِيبِها

لقد اشتملت هذه القصيدة على فنون من بديع القول ، قلما تأتتْ الا لِمَن طال باعه في صناعة الكلام ، وقد مر بنا البيت الذي أنشده منها الشهاب الخَفاجي لاستجادته إياه ، وهو البيت الرابع الذي يصف فيه تعاطفَ السحاب مع الأرض بعدما بلغت من المَشيب عتياً ؛ فرحِمَتْها حتى

---

(١) من نكبت الريح مالت عن مهبها .

(٢) الطرائق والمضايق في الجبال والأودية .

بكَتْ عليها ، وهو تخييل بارع يتضمن تعليلا شعرياً لنزول المطر .

وتأتي بعده الأبيات التي يصف فيها نَوْرَ الخيري وانتشارَ عَرْفه ليلاً بعد غروب الشمس واحتباسَه نهاراً أثناءَ شروقها ، عكْسَ المطلوب منه او أنصف وراعَى يد الشمس عليه التي طالما تعهدتْه بدفْئها وحرارتها حتى نما وترعرع ، ففي تصويره هذا إلْمام بطبيعة النبات وفِعْل الشمس في تكوين عناصره من لوْنٍ ورائحةٍ وورقٍ نضير .

واذا كان هذا من الأمور المعلومة لدى عامة الدارسين ، فان صياغته في عبارات شعرية هو محل الاعجاب والتقدير .

كذلك ما وصف به الياسمين من استعارة السماء لعرائشه الخضراء ، والنجوم لزهراته البيضاء ، والمقارنة بينها وبين نجوم السماء وتفضيلها عليها بكونها تُوَقّت الليلَ والنهارَ معاً ، بخلاف نجوم السماء ، التي توقت الليلَ فقط ، وبكونها ثابتة ليلا ونهاراً لا تحجبها الشمس كما تحجب نجومَ السماء ، الى آخر الوصف الشامل لأريجه العاطر الذي يَسري سرَيَان النجوم ، وجَداول الماء التي تغَطي سوقَه وتنساب انسيابَ الحيات ، كل ذلك من قوة عارضته البيانية وخياله الشعري الخصْب .

وفي آخر القصيدة يعرب الشاعر عن ابتهاجه بفصل الربيع ، ويدعو الى تعاطي كؤوس الأنس فيه مع اخوان الصفاء وركوب الخيل والركض في اللذات أسوة بالأزهار التي ركبتْ فقرات القضبان ، والأطيار التي تغني على الأغصان.. انها حقاً قصيدة ممتعة .

وله يهنىء بالفتح :

كذا تصان السيوف في الخِلَل ويَفخَر الخَط بالقَنَا الذُبُلِ
وتُكرَمُ الخيلُ في مَرابِطها بِرّ الفتاة العَروب بالرّجل
ويُعطَفُ النَبعُ كالحواجب أوْ أحنى وتُمهي السيوف (١) كالمقل
ويوثِر الشرّةَ الكَمِيّ اذا خُيِّر بين الدروع والحلل
فتَح أنارتْ له البلاد كما أشرفَت المقرِبات للنّهل
هُدّتْ له الرّومُ هدةً ملأت قلوبَ أبطالِهم من الوَجَل
فما أطاقوا الولوجَ في نفقٍ وما أطاقوا الصعودَ في جبَل
ألقَوا بأيديهم ولا سبَب يفَرُق بين الفتاة والبَطل
فمَجرئي الأسْد في مَرابِضها كمَجرئِي الغانيات في الكِلَل
وربما لم تقم مَناصِلُها مقَام تلك اللواحِظ النّجُل
تَغامَسوا في الدروع زاخِرةً كي يَسلَموا من حَرارة الأسَل
فما أفادتهم الدروع سوى م النقلَة من خِفةٍ الى ثِقَل
كأنهم والرماح تحفِزهم جرْي فِصَالٍ (٢) سلكْنَ في الوحَل
جاوُوا بها سُبّقاً مضاعفَةً قد أُخلِصت بالحديد والعمَل
مِثل عيون الدّبَى (٣) فصيرها دَم وطعْن كأعيُن الحجَل

(١) أي تسيل بالدماء .
(٢) جمع فصيل وهو ولد الناقة يفصل عن أمه .
(٣) صغار الجراد .

هناك سَلْ بالوزير مَنْ شَهِدَ م الحربَ وان كنتَ شاهداً فقُلِ
ولا تَخفْ إن حكيْتَ مُغْرِبَةً عَنه مقَام المكَذب الخَطِلِ
فانه الأوْحد الذي تَركَ الدَّ م هرَ بلا مشْبِهٍ ولا مَثَلِ
حَدِّثْ بما شِئْتَ عنه مِن حَسَنٍ وعَظم الأمرَ ثم لا تَسَلِ
ففَضله يَبْهَرَ الأهِلةَ في سعودها والشموسَ في الحمَلِ

وقال مراجِعاً للفتح بن خاقان :

هوًى منْجِد يلقَى به الليلَ مُتهِمُ يصرح عنه الدمع وهو يُجَمجمُ
يَبيتُ يداري أو يداريءُ ما به ويَغلبه أمر الهوى فيسلِّم
لأجفانه من كل شيء مؤرق ومن أين للمشتاق شيء يُنَوِّم
وليس الهوى ما الرأي عنه مُزَحزح ولكنه ما الرأي فيه مُفَخَّم
وأعذَرَ أهل الحب كلَّ مداَّه يَرى أن من يهدي له النصحَ ألْوَم
وأجلَد أبناء الزمان مرزأ يقاسي خطوبَ الدهر وهو مُقيِّم
ويصعُب حمل الهم والهمّ مفرد فكيف ترى في حمله وهو تَوْأم
ولولا أبو نصر ولذاتُ أُنسه تقضّتْ حياتي كلها وهي علقَم
فتى فتح الله المعارف بِاسْمِه ومِن دونها باب من الجهل مبهَم
تأخر في لفظ الزمان وإنه بمعناه في أعيانه متقدم

أتوْا بالمعاني وهْيَ درّ مُنَظّم وجاء بها من أفقِها وهي أنجم
وما يَستوي في الحكْم راقٍ وغائِص لقد نال أسنَى الرتبة المتَسنّم

* * *

إليكَ أبا نَصْر بَديهةَ خاطِرٍ تَوالَى عليه الشغل وهو مقسّم
أهبْتَ به للقول وَهْو (اِمّا بِه)(١) فَلبّى ولم يسْعِدْه نُطق ولا فَم
وكم مِصْقَعٍ لا يرهَبُ القولَ فِعله ثَنَتْه خطوب ما انثَنَتْ وهو مفحَم
ولو لم يكن إلا وَدَاعُك وحْدَه لأشْفَق منه يَذْبلٍ ويلَمْلَمُ(٢)
فما يَصْنع الانسان وهو بِفهْمِه يحِس بأشْتات الأمور ويَفْهم
وقد كنتَ تُشْكِيني من الدهر دائباً فقد صرْت أشكو منك ما أنت تعلم
عليك سلام تَسحَب الريح ذيْلَه فيَعْبَق منه كل ما يُتنَسّم
وإن لم يكن الا وَداع وفُرْقة فان فؤادي قبْلَك المتقَدّم

ولـه أيضاً :

أرَى بَارِقاً بالأبْلَق الفَرْد يومِضُ يذْهَبُ جِلْبَابَ الدجى ويُفضض
كأن سلَيْمى من أعاليه أشرقَتْ تمد لنا كفاً خَضيباً وتَقْبِض

---

(١) انظر تعقيبنا على هذه الكلمة في آخر الترجمة .
(٢) يذبل ويلملم جبلان معروفان .

اذا ما تَوالَى وَمْضُه نفَضَ الدجى ... له صِبْغَةَ المسْوَدّ أوْ كاد ينفُضُ
أرقتُ لــه والقلب يهفو هُفُوّه ... على أنـه منه أحدّ وأوْمَـض
وبِت أداري الشوقَ والشوقُ مقبل ... عليّ وأدعو الصبر والصبر مُعرض
وأستَنْجِدُ الدمعَ الأبيّ على الأسى ... فتُنْجِدُني منه جداول فُيّض
وأعذلُ قلباً لا يزال يرُوعُــه ... سَنا النار يستشْري أو البرق يَنبِضُ
تظنّهما ثَغْـرَ الحبيب وخَـده ... فذا ضاحِك منه وذا متَعَرّضُ
اذا بلغت منك الخَيالات ما أرى ... فأنتَ لِماذا بالشخوص مُعرِضُ
الى أن تفـرّتْ عن سنا الصبح سُدفَة ... كما انشق عن صَفح من الماء عِرمِض(١)
وندّتْ الى الغرْب النجومُ مرُوعةً ... كما نفرتْ عِير من السيْل رُكّضُ
وأدركَها مِن فَجأة الصبح بَهتة ... فتَحسبُها فيه عُيُوناً تُمرّضُ
كأن الثريا والغُروب يحثهـا ... لِجامُ على رأس الدجى وهو يركضُ
وما تَمتَري في الهَقعَة(٢) العينُ أنهـا ... على عاتِق الجوزاء قُرْط مُفَضّضُ

ومنها في صفة الحرب :

سَل الحرب عنه والسيُوفُ جداول ... تَدفقُ والأرماحُ رُقْط تُنَضْنِضُ
وبالأرض من وقع الجِياد تمدّد ... ولكنه فيما تَروم تَقيّضُ

---

(١) العرمض : الطحلب .
(٢) الهقعة ثلاثة كواكب تعلو منكب الجوزاء .

وبالأفْق للنقْع المُشــار سحائب مَواخِض ُ لكن بالصواعِق تمخَض
وقد سَهِكَتْ(١) تحت الحديد من الصدا جُسوم بما عُلّت من المسك ترحَض
ومدت الى ورد الصدور عيُونها صدور العوالي والعيُون تُغمِّض ُ
وأشرَفت البيض ُ الرقاقُ الى الطلَى لِتَكْرعَ فيها والرؤوس تُخفَض
فلستَ ترى إلا دماءً مراقَــةً تخاض الى أكباد قوم تخَضْخِض ُ

ولـه وهي الأبيات التي أشادَ بها في صبح الأعشى :

نزاع مـا أرى بك ام نزوع لقد شَقيتْ بــه منك الضلوع
يَروعك أو يريعك كـل داع أكل مُثوّبٍ (١) داعٍ سميع
جَهِلتَ وقد علاك الشيب أمراً يقوم بعلمه الطفْل الرضيع
ولولا ذاك ما قدرت أني أنوء بِحَمْل مـا لا أسْتَطيع
بِحَسْبِك أو بِحَسْبِي منك دهْر يشت بِصَرْفه الشمل الجميـع
وشوق تقتضيه نَوى شَطون فتقضي عنه واجِبَها الدمــوع
حملت الحب مؤتَمَناً عليــه فكيف يَضيع ذلك أو يَذيـع
لقد جَشمْتَ نفسكَ مـتْلفاتٍ بِكل ثَنيةٍ منهـا صَريـع
وحال ُ الصب تخضبه دمــوع كحال القِرْن يخضبه نَجيـع

---

(١) عرقت وتغيرت ريحها .

(٢) المثوب الداعي يلوح بثوبه ليرى .

وقد تحمي الدروع من العوالي ولا تحمي من الحدق الدروع
ورب فتى تراع الأسد منه تقنص قلبه الرشأ المروع

وكتب اليه الوزير محمد بن القاسم من رجال القلائد معزياً في قريب مات له :

يشاطرك الصبابة والسهادا ويمحضك المحبة والودادا
صديق لو كشفت الغيب عنه وجدت هواك قد ملأ الفؤادا
يعز عليه رزء بت منه شقيق النفس تلهمها سدادا
أنشفق للعباد ونحن منهم من الرب الذي خلق العبادا
أراد بنا الفناء على سواء ولا بد لنا مما أرادا
لئن قدمت علقاً مستفاداً لقد أكرمت حظاً مستعادا
ومثلك لا يضعفه مصاب ولا يعطي لنائبة قيادا
وما زلت الرشيد نهى وحاشا لمثلك أن نعلمه الرشادا

فراجعه القاضي أبو الحسن بن زنباع :

لعاً لك (١) من جواد قد أجادا ونال الغاية القصوى وزادا
وبشر بالتي يسمو اليها سواك فلا تبلغه مرادا
فاني قد رأيت الدهر طلقاً تنزل عن خلائقه وحادا

---

(١) لعاً لك : دعاء للعاثر بالانتعاش والسلامة وضده لا لعاً لك .

ومنذ بُخِسْتَ حظك وهو كبر — أحالَ على الورى سنةً جمادا
ولن يرْضى الزمان وأنتَ فيه — تدافع عن محلك أو تعادى
ومثلك وهو أنتَ ولا مزيد — شفى وكفى الملمات الشدادا
ومَن وَخزَتْهُ بالنوب الليالي — فكيف يطيق عَدْواً واشتدادا
ولولا ما كفَفْتَ به فؤادي — من الحِكَم التي تسلي تمادى
ومَن يطفِيءْ بنزْر الماء ناراً — فليس يزيدها الا اتقادا
جزاك اللهُ خيراً من صديق — أفادَ صديقَه مما استفادا
ورد عليه صَبْراً ضل عنه — واقسَم لا ينال له قيادا
وأنجده على خطب عراه — وأدركَ فيه ثاراً فاستقادا

ولـه أيضاً :

لهَواك في قلبي كريقك في فمي — غيري يقول الحب مر المطعم
فأدِرْ عليَّ بمقلتيك كؤوسه — حتى يدب خماره في أعظمي
إن التلدُّد(١) في هواك تلذُّذ — او كان أقتلَ من زعاف الأرقم
أحبِبْ بحب لا يشير ملامةً — ملئت بموليه عيونُ النوّم
شغل النواظرَ والقلوب ولم يدع — مَن لم يَسِمْه من الأنام بميسم
ومن العجائب شغلُ شيءٍ واحد — في الحال أمكنةً ولم يتقسم

---

(١) المعاناة والشدة .

وأقامَ أزْمِنةً وليس بِجوْهَــر وجرَى وليس بِمَائِع ٍ مَجْرَى الدم
يا أيها القَمَرَ الــذي إنسانه يَرْمِي أنــاساً للعيون بأسْهم
لم أُبْدِ حباً غيرَ أن جوانحــي فاضتْ به فَيْضَ الإنـاء المفْعَم
لا ذنْب لي عِلْمَ الــذي أسرَرْته نظراً ولم أرْمــز ولم أتكلَّــم
وأمرتَ بالشكوى اليك وانمـــا ينمَى الى الانسان ما لم يَعْلَـم
ولَربما لـم تُشكِني فأماتَنِــي يأسي فَذرْني تحت أمْر مبهَم
وتَلافَنِي قبل (التلاف)(١) فانني مِن حِمْيَر ٍ وسيأخذ ونك في دَمي
الطاعنين بكــل أسْمَر مِدْعَس والضاربين بكل أبْيضَ مِخْذَم
والواردين الصادريــن اذا الوَغَى لفَحتْ بجَمْرتِها وجوهَ الحوّم
ولعلهــم تسمو بِهم هِمـاتهم أن يدركوا في الظبْي ثأرَ الضيغَم

أوقال ارتجالا وقد زاره نفَر من إخوانه :

هلا وسهلا بكم مِن سَادة ٍ نجب كالذُبّل ِ السمْر ِ أو كالأنجم الشهب
اجملتــمُ وتفضلْتم بزَوْرتِكم وليس ينكَر فضل من ذوي حَسب
أضاءَ منزلنا من نــور أوْجهِكم وطابَ مِن عيْشِنا ما كان لم يَطِب

• • •

(١) أنظر التعقيب على هذه الكلمة في آخر الترجمة .

هذا جميع ما أثبته الفتح في القلائد من شعر مترجَمنا ، وهو كما قلنا فيه كفاية للتعريف بشاعريته وتقديرها ، ووَددْنا او وقفنا بازاء كل قصيدة أو مقطعة منه وقفةً ولو قصيرة ، لإبراز ما فيها من ضروب الابداع ، ولكن ضيق المقام مع استغناء الأديب الحصيف عن ذلك ، منعنّا من الاسترسال في التعليق والتحليل بعدما أجملنا القول في أكثر هذه القصائد والتنبيه على محاسنها .

نعم نحب أن نعقب على تعبير (لِمَا بِه) الوارد في قصيدة شاعرنا التي يخاطب بها الفتح بن خاقان ، فانه تعبير غريب كتَبْنا عنه بحثاً خاصا قدمناه الى مجمع اللغة العربية بالقاهرة بعدما كنا توقفنا فيه مدة ، وتتبعنا نظائِرَه في فصيح الكلام نظما ونثراً حتى اهتدينا الى معناه ، وهو أنه يقال في حالة ما يشبه العدم من الاحتضار ، وقد أقره المجمع بعد إحالته على لجنة الأصول بالمعنى المذكور ، ودلالة وجوده في كلام ابن زنباع هي تضلعه من متن اللغة واطلاعه على غريبها فأحرى مستعملها ، ولذلك قال فيه الفتح : « حوى العلوم وحازها ، وتحقق حقائقها العرب ومجازها » .

وبعكس هذا كلمة (التلاف) في هذا البيت من ميميته التغزلية :

وتلافَنِي قبل (التلاف) فانني   من حِمْيَر وسيأخذونك في دمي

فان مصدر تَلِف هو التلَف قياسا ، ولم يذكر اللغويون لِتَلِفَ مصدرا سماعيا بهذا الوزن ، فيبقى اذن أنه من باب الاشباع ، وقد استعمله غير المترجم ، ومما وقفت عليه من ذلك قول ابن عُنَيْن الشاعر :

انظر الي بِعَيْن مَوْلىً لم يزل يولي الندى وتَلافَ قبْل (تَلافي)

وقول شرف الدين ابن قاضي اليمن :

واذا الداءُ خِيف منه (تَلاف) ليس يَشْفِي الا الحَكيمُ البَصيرُ

والعلم لله .

طبع على مطابع
دار الكتاب اللبناني

المجلد الأول	المجلد الثاني	المجلد الثالث	المجلد الرابع	المجلد الخامس
عبد العزيز الفشتالي	عثمان السلاليجي	أبو القاسم الشريف	إبن الياسمين	أحمد بن شعيب الجرنائي
أبو القاسم الزياني	ابن غازي	ابن الحاج الفاسي	ابن البناء العددي	ابن هاني السبتي
الوزير ابن ادريس	ابن زكور	أحمد زروق	الإمام إدريس	محمد المسناوي
إكنسوس	ابو الطيب العلمي	الشريف الإدريسي	أبو عمران الفسي	محمد بن المدني كنون
أبو جعفر بن عطية	ابن الونان	ابن بطوطة	السلطان محمد بن عبدالله	عبد الملك المعتصم
ابو العباس الجراوي	ابن عبدون المكناسي	عبد المهيمن الحضرمي	الأصيلي	محمد الخامس
ميمون الخطابي	أبو بكر بن شبرين	أبو العباس العزفي	عبدالله بن ياسمين	محمد بن عبدالكريم الخطابي
مالك بن مرحل	إبن رشيد	عبد الواحد المراكشي	يوسف بن تشفين	سابق البربري
عبد العزيزالملزوزي	أبو موسى الجازولي	ابن أبي زرع	ابن حبوس الفاسي	النابغة الهوزالي
الأمير سليمان الموحد	ابن أجروم	أبو حفص بن عمر	ابن زنباع الطنجي	أبو الحسن المسفر